الأسمار والأحاديث



زكي مبارك

الأسمار والأحاديث

الأسمار والأحاديث

تأليف
زكي مبارك

هنــداوي

الأسمار والأحاديث

زكي مبارك

رقم إيداع ٢٠١٢/٢٢١٥٥
تدمك: ٧ ٢٠٥ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

المحتويات

إهداء

إلى جناب المسيو دي كومنين

صديقي العزيز

أعتقد أن سهراتنا في القاهرة ومصر الجديدة كان لها فضل في رياضة قلمي على صياغة الأسمار والأحاديث، فمن حقك عليَّ أن أهدي هذا الكتاب إليك، ليكون شاهدًا على تأثير علمك وأدبك، وليكون تذكِرةً باقيةً للوِداد الذي وصل بين قلبي وقلبك، وهو جوهرٌ نفيسٌ لم يعرف مثله الناس منذ أَجيال طوال.

ولو أنك كنت تفهم اللغة العربية لرجوتُ أن تجد في هذا الكتاب ملامح من الصور التي رسمها منطِقُك العذب ونحن نطالع سِفر الوجود في اللحظات التي جاد بها الزمان منذ سنة ١٩٢٨ إلى اليوم.

والله يحفظك ويرعاك للصديق الذي صاحبك اثني عشر عامًا فلم يَرَ فيك غير شرف النفس، وكرم الطبع، وسُمُوّ الروح، وأريَحِيَّة الفؤاد.

زكي مبارك

مقدمة

بقلم محمد زكي عبد السلام مبارك

أيها القارئ[١]

هل تذكر ما يحدِّثك به مِراض القلوب؛ إذ يقولون إني أُثني على نفسي في فواتح مؤلفاتي؟

أنت تذكر ذلك، ولا ريب؛ لأنهم يُعيدون هذه التهمةَ في كل وقت بغير حساب.

فهل ترى من حقي أن أدفع هذه التهمة في فاتحة كتابي هذا، لعلهم ينتهون؟!

إن الحاسدين والحاقدين لم يتركوا طريقًا إلا سلكوه لينفروك مني، أيها القارئ، ثم عادوا جميعًا خاسئين مدحورين، وتلك عاقبةُ البغي والعدوان.

لقد عابوا عليَّ أن أُفْتَنَ أشدَّ الفُتُون بما وصلتُ إليه من الظَّفَر بودادك، أيها القارئ، فهل كانوا ينتظرون أن يَغْزُوا قلبك بعدْوَى الحِقد والضِّغن فأعيش في دنيايَ بلا صديق؟

إن ودادك، أيها القارئ، هو الذي أرهف قلمي، وصَقَل بياني، وهو العزاء عما أُعاني في دهري وزماني من ظُلم وعُقوق، وما تذكرتُ حبك، أيها القارئ، إلا غفرت ذنوب الدهر، وصفحتُ عن مكايد الزمان.

[١] من عادة المؤلف أن يبدأ مقدمات كتبه بالبسملة والحمدلة، وقد خلف عادته هذه المرة؛ لأنه كتب مقدمة هذا الكتاب وهو غضبان.

والآن — وقد رُفِع بيني وبينك الحجاب — أُحِبُّ أن تعرف أني لم أسرِق مودتك ولم أنهب ثقتك، وإنما غنمتُ من مودتك وثقتك ما غنمتُ بفضل الكفاح الموصول، وبفضل ما أنفقتُ من نور البصر تحت أضواء المصابيح، في زمن تؤخذ فيه بعض المراكز الأدبية بالخداع والتضليل، وبيْع الضمائر والقلوب.

إليك، أيها القارئ، أَنفض أحزاني وأشجاني، ولو شئتَ لدللتُك على فيالق من المؤلفين في المشرق والمغرب شكَوْا دهرهم كما شكوتُ، وتوجَّعوا من زمانهم كما توجعتُ، وعانَوْا من غدر الأصدقاء والزملاء بعض الذي أعاني.

فأنا لم أبتكر شكوى الزمان، وإن كنتُ أشقى المُكتَوِين بغدر الزمان.

أنا ما سرقتُ ثقتك، أيها القارئ، حتى يُنفق ناسٌ من أعمارهم ما يُنفقون لينفِّروك مني، فأنت تعرف أني قضيت أكثر من عشرين سنة في خدمة اللغة العربية خدمةً صحيحةً صادقةً يعجِز عنها الرجال «الأفاضل» الذين يُحسنون حياكة الأقاويل والأراجيف، والذين تشهد سرائرهم بأنهم لو كُلِّفُوا نَسْخ مؤلفاتي ومقالاتي وقصائدي لانْقَضَتْ أعمارهم قبل أن ينسخوا تلك الألوف المؤلفة من الصفحات العامرة بالأفكار والمعاني.

المخلصون في زمانك قليل، أيها القارئ، وهم مع ذلك لا يخدمونك إلا في ميدان أو ميدانين، أما أنا فقد خدمتك في كثير من الميادين: نظرتُ فرأيت اللغة العربية تَتَشَوَّف إلى من يحدّد مقاصد النقد الأدبي، فألَّفتُ كتاب «الموازنة بين الشعراء» وقد طُبع مرتين، ورأيت لغة العرب تنتظر من يحقق بعض المؤلفات القديمة فنشرت كتاب «زهر الآداب»، وتداركت في الطبعة الثانية ما فاتني تحقيقه في الطبعة الأولى؛ فجاء صورةً من الأدب المخدوم بجدٍّ وعناية، ثم نشرتُ «الرسالة العذراء» مصحوبةً بدراسات وتحقيقات، ثم عاونتُ على إخراج كتاب «الكامل» في صورة تَسُرُّ الناظرين، وتلك جهود بذلناها لوجه الأدب ولم نر من منافعها المادّية غير أطياف!

ورأيت القرن الرابع هو الفَيْصَل بين عهدين من عهود الإنشاء، فألَّفتُ كتاب «النثر الفني» الذي يُعَدُّ بحق خير كتاب في بابه منذ العصر العباسي إلى اليوم، والذي أرغم الحاسدين والحاقدين على الاعتراف بأن الرجل الذي كَوَى قلوبهم وكُبُودَهم لم يكن في حياته من العابثين.

ورأيت المجتمع المصري في حاجة إلى من يدله على هفواته الذوقية والأدبية والخُلُقية؛ فألَّفتُ كتاب «البدائع» الذي أقبل عليه القُرَّاء فطُبع مرتين، وألفتُ رسالة «اللغة والدين والتقاليد» التي أجازتها لجنة المباراة الأدبية برياسة مدير الجامعة المصرية.

وراعني أن يجهل الناس بعض مصادر التشريع الإسلامي؛ فنشرتُ رسالة في تحقيق نَسَب كتاب «الأم»، وهي رسالة عَدَّها السنيور نالّلينو من الآيات، وسينتفع بها رجال الأزهر الشريف.

وعز عليَّ أن يقال: إن شعراء أوربا قد تفرَّدُوا بإجادة القول في الوجدانيات؛ فألفتُ كتاب «مدامع العشاق»؛ ليكون شاهدًا على سَبْق العبقرية العربية إلى شرح مآسي الأرواح والقلوب، ومن قبله ألفتُ كتاب «حب ابن أبي ربيعة» الذي صوَّر ملاعب الأفئدة في أيام الحجيج.

وساءني أن يقال: إن راسين هو أعظم من شرح عاطفة الحب؛ فألفتُ كتاب «ليلى المريضة في العراق»؛ لأقيم الدليل على أن في كُتَّاب اللغة العربية من يتفوق أظهرَ التفوقِ على راسين.

ونظرتُ فرأيتُ أن الجمهور شغلته الشواغل عن الدراسات الفلسفية؛ فألفت كتاب «الأخلاق عند الغزالي»، وكتاب «التصوف الإسلامي»، وهما كتابان لن يجود بمثلهما الزمان، ولو قلت إن كتاب «التصوف الإسلامي» هو خير ما كان وما سيكون في التعبير عن العبقرية العربية لكنت أصدق الصادقين.

ورأيت الأدب العربي يحتاج إلى من يَعْرِض محاسنَه على العقول الأوربية؛ فألَّفت كتاب: La Prose Arabe au IVe sjècle de l'Hégire، ورسالة: L'Art d'écrire chez les Arabes au lile siècle de l'Hégire.

وقد كان لهذين الكتابين صدًى في البيئات الأوربية والأمريكية عند من يهمهم الوقوف على ذخائر اللغة العربية. ورأيت جمهور أهل الأدب يظنون أن إمارة الشِّعر في السنين الخوالي لم يظفر بها غير أبي تمام والبحتريّ وابن الروميّ والمتنبي؛ فألفت كتاب «عبقرية الشريف الرضِيّ»، وهو كتاب رَضِيَ عنه قوم وسَخِطَ عليه أقوام، ولكنه سيبقى من غُرر المؤلفات الأدبية ولو كره الحاسدون والحاقدون.

ورأيت الناس في الشرق يكادون يجهلون أسرار الحياة الأوربية؛ فألفت كتاب «ذكريات باريس»، وهو كتاب يشرح ما هنالك من صراع بين الرُّشد والغيِّ، والهُدَى والضلال.

ورأيت الأمم العربية في شوق إلى من يحدد ما بينها من مختلف الصلات، ومن يُعبِّر عما في ضمائرها من آلام وآمال؛ فألفت كتاب «وحي بغداد».

أترك ما شغلتُ به نفسي من الدراسات الأدبية في الأعوام الماضية، فالقُرَّاءُ يعرفون من ذلك أكثر مما أعرف، وإن كان يخفى عليهم أن لي مؤلفات جيدة تصدقتُ بها على بعض الأدعياء. وأنتقل إلى الحديث عن كتاب اليوم، وهو كتاب «الأسمار والأحاديث» فأقول: هذا الكتاب جديد من جميع نواحيه، ولن يحتاج إلى تزكية أحد من الأصدقاء، فهو حركة فكرية متوثِّبة تُواجه القارئ في كل صفحة، بل في كل سطر، بل في كل جملة، إن لم أقل في كل حرف، وهو مجالٌ للتأمل والتفكر والتندُّر والاعتراض والاحتجاج.

في هذا الكتاب صُوَرٌ غريبة لعقول المصريين، وعقولٍ من عَرَفْتُ من الفَرَنسيين، وسيشقى به ناس ويسعد ناس؛ لأنه سجَّل طوائف من أوهام العصر الحاضر أدق تسجيل.

أنا أعرف أن مَوْتي يوم يحين سيكون فرصة لقوم كدَّرَتْ صَفْوَهم حياتي، ولكني مع ذلك راضٍ عما صنعتُ حين تصدقتُ فخلَّدتُ أسماءً لا تستحق الخلود من أمثال السادة فلان وعِلان وتِرْتان! وهل في التصدُّق على الجاحدين من بأس؟ أولئك قومٌ مَنَّ الله عليهم بالوجود، وأَمْكَنَهُم من النعيم بالأنوار والظلمات، وسمح لهم باستنشاق الهواء، فليس من الكثير أن أدعي أنهم يقرأون ويفكرون!!

في هذا الكتاب تنويهٌ بأشخاص يودُّون لو عَمِيتْ عيونهم وصَمّت آذانهم؛ فلا يرون وجهي ولا يسمعون أخباري، ولكنهم سيعرفون أني أكرم منهم وأشرف؛ لأني سجلت أسماءهم في كتاب سيغلَّف من جلود أحفادهم وأسباطهم بعد حين.

بقيت كلمة عن أسلوب هذا الكتاب:

وأنا أعتقد بلا زهو ولا كبرياء أني وصلتُ باللغة العربية إلى ما كانت تطمح إليه من «البيان».

أنا أعتقد بلا استطالة ولا تَزَيُّد أني خلقت عُذوبة الأسلوب في اللغة العربية، وقد صار البيان عندي طبيعة أصيلة لا يعتريها تكلُّف أو افتعال، وما أذكر أني عرفت التسويد والتبييض فيما ألَّفت من الكتب أو نشرت من المقالات بعد زمن التمرين الذي سبق سنة ١٩١٦.

وما أعرف بالضبط ما هي خصائص أسلوبي؛ لأني أَصدُر فيه عن السَّجِيَّة والطبع، ولكني أعرف بالتأكيد أن الذي يقرأ مؤلفاتي ومقالاتي يشعر بأنه يرى الحياة وجهًا لوجه، ويشهد صراع الأحلام والأوهام، والآراء والأهواء، والحقائق والأباطيل.

أيها القارئ

تلك صفحات من أعمالي الأدبية، فيها القديم والحديث، فهل تراني تَزَيَّدتُ أو أسرفتُ؟

وأنت مع ذلك تعرف أني وقفتُ لأعداء العروبة والإسلام بالمرصاد: فمزقت أوهام الخوارج على العروبة والإسلام شَرَّ مُمَزَّق، ودَحَرْتُ من سوَّلتْ لهم أنفسهم أن يتطاولوا على ماضي الأمة العربية، وكنتُ دليلَك في التعرف إلى مآثر العرب في المشرقين والمغربين، وعاديت من أجل الحق رجالًا يضرُّون وينفعون، ويقدمون ويؤخرون، فكان اعتصامي بحبل الحق هو أقوى ما تدرعت به لاتقاء مكايد الناس ومكاره الزمان.

ولم أخدعك، أيها القارئ، فيما تعرضتُ لشرحه من الحقائق الأدبية والفلسفية: فلم أتهيَّبْ مساقط غضبك، ولم أَتَلَمَّس مواقع هواك، وإنما صدقتُ كل الصدق فرآني فريقٌ من الملحدين، ورآني فريق من المؤمنين، ونسبني قوم إلى المُجَّان، وعَدَّنِي قوم من الصوفية، وما كنت من أولئك ولا هؤلاء، وإنما أنا سارٍ يبحث عن عَلَم الهداية في بَيْدَاء الوجود، وما بيني وبين الله لا يعرفه عدوٌّ ولا صديق، وإنما عِلْمُهُ عند علَّام الغُيُوب الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفِي الصدور، وأنا أتقرب إليه بالصدق في درس شرائع الهُدَى وذرائع الضلال.

أيها القارئ

أتراني أحسنتُ الدفاع عن نفسي؟

أترى أن الذين يضيِّعون أعمارهم في مناوشتي ومحاربتي لم يستطيعوا حرماني من ودادك؟ كم تألمتُ وتوجعتُ من مكايدة مَن أُعاصر من الرجال، وكنت في أحرج أوقات الضجر والغيظ لا أملك غير التعزِّي بهذه الكلمات: «لي قُرَّاءٌ أوفياءُ في أكثر الأقطار العربية والإسلامية، وهم عوني على مصاولة الدهر، ومكايدة الزمان».

أما بعد: فأنت الصديقُ الحقُّ، أيها القارئ، ولو شئتُ لقلتُ: إنك أعزُّ عليَّ من سائر أصدقائي وأصفيائي؛ لأنك تفهم عني أكثر مما يفهمون، وقد تَفُوقُهُم في رعاية العهد وحفظ الجميل.

أيها القارئ

لم يبق لي بعد الله غير ودادِك وعَطفك، ودُنيا الأدب بدون حبك سرابٌ في سراب.

ولولا الثقةُ بك، أيها القارئ، لكسَّرْتُ قلمي ورجعتُ إلى صحبة الفأس والمحراث في سنتريس، إن كان سهر الليالي من أجلك أبقَى لي من القوة ما أستطيع به الرجوع إلى صحبة الفأس والمحراث.

ويرحم الله الشباب الذي بَدَّدْتُه في صحبة الكتاب والدواة والقلم والقرطاس!

مصر الجديدة في أول نوفمبر ١٩٣٩

شهيد الفاقة والاغتراب

في ربيع سنة ١٩٢٧ كنت في باريس، وكانت لي فيها بَدَوَات وصَبَوَات، بعضها باسمٌ وبعضها حزين، ولكن حادثًا واحدًا لا يزال يعتادني كلما غفوتُ أو تطلعتُ إلى ما مَرَّ من غفلات الشباب، وقد بقي هذا الحادث تَرِنُّ أصداؤه في أجواء قلبي كما تبقى أصداء العاصفة تَرِنُّ في أسماع من شهد أهوالها في لُجَجِ البحر المحيط.

كنت حينذاك أبدأ عهدي بحياة السوربون، وكنت قد أَلِفْتُ في أيام قليلة حياة الشبان في الحيِّ اللاتينيّ، فأخذتُ أقضي ساعات النشاط الذهني في الدرس، وأرصد لحظات الفراغ للعبث الجامح في حديقة لِكْسَمْبُور، وكان أجمل ما يروعني في الحديقة بِركتُها البديعة التي يتجمع حولها الفِتْيان والفتيات لمشاهدة لعب الأسماك الحُمْر والبيض ... والأسماك تُحسن الدُّعابة والغَزَل والمزاح إلى حد بعيد. وليس ذلك قاصرًا على أسماك باريس، فهي كذلك فيما رأيت منذ أعوام بحديقة الأسماك في الجيزة الفيحاء. كانت أسراب الشباب تتجمع حول تلك البِركة[١] الباريسية لمشاهدة ألعاب الأسماك، وكان المنظر يبعث في قلوب المشاهدين أسباب الغزل والتشبيب، وكان حَظِّي من ذلك ضئيلًا جدًّا، ولكني كنتُ به من السعداء، وهل يشقى إنسان عامر القلب بحب الجمال؟

وفي أصيل يوم من أيام الآحاد ذهبت أُزاحم المُتَشَوِّفِين حول تلك الفَسقية، فما راعني إلا فتاة بارعة الحسن، بديعة التقاسيم، ريّا الجسم مِكسال، كأنها من صبايا دمياط، وقد زَجَّجَتْ حاجبيها، وصفَّفَتْ شعرها على الطريقة الغلامية à la garçonne وعلى سيماها

[١] البركة هي اللفظة الصحيحة لما يسمونه في مصر «فسقية» وللبحتري قصيدة مشهورة في وصف البركة: بركة قصر المتوكل.

شمائل النمسويات أو الألمانيات، ولهذا النوع من الفتيات سحر أَخَّاذ، ولا سيما حين يتكلمْنَ الفَرَنسية، فلهنَّ حينذاك لحن هو أبرع وأظرف من الصواب. واللغة الفَرَنسية في أفواه من ينطق بها ملحونةً من حسان النمسا وألمانيا تبدو ظريفة جدًّا، وكأنها بُغام الظباء حين يَمْضُغْنَ الأراك.

ألقيتُ عيني وقلبي على تلك الفتاة، ثم نظرت فإذا بجانبها فتًى أسمر اللون حسبته من أمريكا الجنوبية، وقد فهمتُ أنه لها صديق حميم، فتماسكتُ واعتزمتُ الاكتفاء بالنظر المباح، وصرت أتحوَّل في رفق حيث يتحول الرفيقان، وكنت أقدِّر أنني أَتْبعهما من حيث لا يشعران، ولكن الفتاة كانت قديمة العهد بنضال العيون، وتكاد تدرك وساوس النفوس وخطرات القلوب، ويَظهر أنه سَرَّهَا أن تُسِرَّ إلى رفيقها أن هناك «مسيو» يرمُقها بعينيه ويميل حيث تميل.

وما هي إلا لحظات حتى التفتَ إليَّ ذلك الفتى الأسمر وقال بلغة عربية: حضرتك مصري؟

– نعم، يا سيد، أنا مصري، وأنت؟

– أنا أيضًا مصري من الصعيد.

– من أي بلد؟

– من أسيوط.

– من أسيوط؟ أهلًا وسهلا، بلد الأهل والحبايب.

– تعرف أسيوط حضرتك؟

– ومن الذي يجهل أسيوط؟ إنه ليكفي أن تسمع بعض الباعة في القاهرة يصيحون: «قصب أسيوط يا سُكَّر».

– ولكنك تقول: «بلد الأهل والأحباب» فهل لك فيها أهل وأحباب؟

– كان لي فيها أهل وأحباب ثم تناسَوْني، وكأنما عناهم الشاعر حين قال:

يا أهل أسيوطَ لا زِلْتُمْ بعافيةٍ ... وإن تمرد في وَجْدِي بكم دائي
أسلمتموني لدهري بعدما بَلِيَتْ ... من قسوة الصد والتبريح أحشائي
فلو أتت ظبيةُ «الحمراء» غازيةً ... قلبي لما وَجَدَتْهُ غير أشلاءِ
يا ويح نفسي أتنسوني وأذكركم ... مقرَّح الجَفْن في صُبحٍ وإمساءِ

– وما اسمك يا بلدينا؟

– أنا؟ اسمي زكي، وحضرتك؟
– اسمي محمود.
– تشرفنا، يا سي محمود! ولكن حدثني ما تلك الفتاة بيمينك؟
– هذه صديقة ألمانية.
– شيء جميل. ألا ترى يا سي محمود أنها حلوة العينين؟
– الله يسترك، يا سي زكي، كتَّرْ خيرك، دا من لطفك.
– هل عرفتها من زمن بعيد؟
– نعم، ولكن حذارِ أن تظن أنها خليلة، أو من الساقطات، إنها فتاة متينة الأخلاق، وقد أرسلتها الحكومة الألمانية لإتمام دراسة الفنون في باريس، وقد تفضلت بمصادقتي في شرفٍ ونزاهة بدون أن يصل بيننا الشيطان، ونحن نقضي أكثر الوقت معًا في الاطلاع على روائع الفن الفرنسي، يا سلام يا سي زكي لو رأيتها وهي ترسم! إن عيني لم تَرَ أصنع منها يدًا ولا أخفَّ بنانًا، وإن ريشتها على اللوحة لتَمُرُّ مَرَّ النسيم على وجوه المِلاح!

وما كاد الحديث يصل إلى هذا الحد حتى رأيتُني صرتُ ثالث الرفيقين، واقترحتْ الفتاة أن نذهب إلى أحد مقاعد الحديقة لترسمني، ففرحتُ، وجلستُ في خشوع وهي تنظر إليَّ تارة وإلى مصوَّرها تارة أخرى، وبعد لحظة أعطتني صورتي فرأيتها دون ما أُحبُّ، وكنتُ أنتظر أن أظهر في رسمها شابًّا جميلًا، فتململت وقلت: لعل البرنيطة هي السبب في رداءة الصورة! فتفضلي يا آنسة وارسميني مرة أخرى عاري الرأس!

ثم مرت أيام ونحن نتلاقى صباح مساء، حتى كدت أُشغَل عن الدروس، مع أنه لم يكن لي من تلك الفتاة نصيبٌ غير النظر إلى جسمها الريَّان.

وفي أحد الأَمسية تقدم إليَّ محمود وهو يقول في صوت خافت: «هل تستطيع أن تقرضني مئة فرنك إلى أن يجيء بريد أسيوط؟»

فقلت: لك ذلك، وأعطيتُه ما سأل، ثم اقترحت أن يكون هو ورفيقته في ضيافتي إلى أن يجيء بريد أسيوط، وكذلك ظللت أدعوهما للغداء والعشاء إلى أن نَفِدَ مالي أو كاد، وأنا أنتظر أن يجيء بريد أسيوط لأسترد بعض ما أنفقت على ذَيْنك الرفيقين، وزاد في همي وبلائي أنَّ نفسي تعلقت بتلك الفتاة، وصرت لا أقدر على الفرار من أَسْر وجهها الجميل.

ثم تكشَّفتْ لي الحقيقة فجأة؛ فعرفتُ أن الفتى مَدِين للفتاة بمبلغ عظيم من المال، وهو يعللها بما سيحمل بريد أسيوط من قَيِّمات الصكوك، ولم يكن ذلك الدَّين إلا أكلات

طَعِمَها الفتى على حساب الفتاة، ووعودًا أخرى صارت في حكم الدَّين؛ لأن الفتى كان قد انتهب منها بعض ما يوحي به الغرام … واشتدتْ لجاجة الفتى في الاقتراض، وكان يشجعه على لجاجته ما عَرَفَ من حبي لأهل أسيوط، ورغبتي العاتية في أن أقضي ليلة أو ليلتين في حَيِّ الحمراء.

وما زلت أواسيه حتى أصبحتُ أفقر منه، وحتى وقعت لي معه نوادر يبتسم لها المحزون: من ذلك أني لقيته مرة في حديقة لكسمبور جالسًا كاسف البال، فقدَّرت أنه يُعاني ما أعاني من قسوة الجوع، فقلت: انتظرني هنا يا محمود حتى آتي بغداء، وذهبت إلى أحد المخابز فاشتريتُ رغيفًا وعدت فقسمته بيني وبينه؛ فأخذ نصيبه وقال: «طيب، والله العظيم، دي أول مرة آكل فيها حاف».

فضحكتُ وقلت: «كلْ وأنت ساكت: بلاش أَوَنْطَه، فهذه فيما أعتقد المرة الأولى بعد الألف التي تأكل فيها حاف!»

فتخاذل ورضي بقسمته، والْتَهَمَ نصف الرَّغيف في أقل من لمحة العين!

ثم حالت الفاقة بيننا وبين دعوة الفتاة إلى غداء أو عشاء، وذلك كان أقسى ما مرَّ بنا في تلك الأيام، وأشرتُ إلى محمود أن يواجه بعض مواطنيه بحالته؛ عَلَّهُ يقرضه شيئًا ينقذه من أزمته إلى أن يجيء بريد أسيوط، وحرصتُ على ما بقي من دراهمي حرصًا شديدًا، فكنت لا أعطيه في كل يوم إلا ما يحصل به على الخبز القَفار، وعلمت الفتاة أنني النصير الأوحد لرفيقها المأزوم، فأخذت تتودد إليَّ علَّنِي أتحول إلى رفيق جديد، وكانت ساعات عصيبة اصطرعَ فيها الهوى والشرف صراعًا داميًا عنيفًا، ثم قررت أن أغلق في وجهها بابي حتى لا يمرَّ ببالها أن المصري يغدر برفيقه حين يراه صريع العجز والضيق … فلما شكتْ حالها وعددتْ ما لها من الدَّين في عنق (محمود) صارحتها بالحقيقة، وأنه في مقدوري أن أنفحها كل يوم بما تحصل به على أكلة واحدة، كما اكتفيتُ أنا بأكلة واحدة، إلى أن يأتي الله بفرج من عنده، وهو خير الراحمين.

في تلك الأثناء كان محمود يرسل إلى أبيه كل يوم خطابًا خاليًا من طوابع البريد، وكان يظن أن الخطاب يصل على أي حال، وأن أباه سيطوَّق بالغرامة، وكان يذهب كل يوم ثلاث مرات إلى البعثة المصرية علَّه يجد بارقة من بريد أسيوط، وكان لا يلقى مصريًّا في إدارة البعثة إلا شكا إليه حاله وحدثه عن رسائله اليومية التي لا يجيء عنها جواب، وهو في كل ذلك يستعطف ولا عاطف، ويستغيث ولا مغيث.

وكانت الفاقة تُلحُّ من ناحية، والفتاة تلح من ناحية أخرى، وأنا بينهما مُوزَّع القلب أعطيها رغيفًا وأعطيه لقمة، وأحرم نفسي إلى أن نويتُ الصيام في غير رمضان!

وفي صباح يوم ذهب محمود إلى إدارة البعثة يتلمس بريد أسيوط؛ فسأل وألحَّ؛ فقال له الكاتب: «هل أنت محمود. ف؟»

فتهلل وجه الفتى فرحًا وقال: نعم! أنا محمود. ف.

فقال الكاتب: «إليك عشرين رسالة ردتها إلينا إدارة البريد؛ لأنها خالية من الطوابع».

فأجهش الفتى بالبكاء وقال: تُرَدُّ إليكم رسائلي ولا تخبرونني مع أنني أموت جوعًا منذ أسابيع؟ ممن أقترض؟ وإلى من أتوجه؟ وماذا آكل؟ وكيف أعيش؟ لقد بعت ملابسي كلها ولم يبق على جسمي غير هذه الثياب التي لا تُباع، وطردني صاحب الفندق من غرفتي، وعدت شريدًا طريدًا أهيم على وجهي في شوارع باريس، أدخلْني من فضلك على مدير البعثة أشكو إليه حالي.

وعندئذ تأثَّر الكاتب ودخل على مدير البعثة وأخبره الخبر، فرفض مدير البعثة أن يستقبله، فعاد فألحَّ، وعاد مدير البعثة فرفض، فأخذ الفتى يصرخ صراخ المسعور المجنون، فدق المدير الجرس فدخل عليه حاجبه فقال له: «اطرُدُوا هذا الشريد وأريحونا من عوائه الثقيل»!!

وعاد محمود يبحث عني ثانيًا ويقص عليَّ ما وقع له في دار البعثة المصرية، وكنت قد أفلست إفلاسًا تامًّا ولم يبق عندي ما أواسيه به، فقلت له: يا رفيقي! ليس مدير البعثة هو الممثل الوحيد للحكومة المصرية: فهناك القنصل وهناك السفير، وتستطيع أن تذهب فتستنجد أحد هذين الرجلين.

فابتسم ابتسامة الجزع وقال: هل تحسب أنني لم أفكر فيما فكرت فيه؟ لقد ذهبت ولكني لم أجد أحدًا؛ لأنه لم يسمح واحد منهم باستقبالي.

فقلت: عد إليهم مرة ثانية.

فقال: وإذا لم أفلح؟

قلت: ارجع إليَّ فلن تموت جوعًا وأنا موجود.

فقال: انتظرني إذن في قهوة لاسورس في الساعة التاسعة مساءً لأخبرك عما يتم.

فقلت: لم يبق في جيبي ما أجلس به على قهوة: وأنا منتظرك إن شئت في جُنينة نوتردام.

وقبيل الساعة التاسعة ذهبت أترقب الموعد، ولكن روَّعني وهدَّ من عزمي أن رأيت نهر السين مطوَّقًا بالناس عند قنطرة سانت جنيڤييڤ؛ إذ خطر ببالي أن الغريق في هذه

الساعة لن يكون إنسانًا آخر غير محمود، فقد سمعته غير مرة يتحدث عن فضل السين في ابتلاع البؤساء.

ثم اقتربت من الجمهور، وأخذت أسأل عن الغريق: من هو؟ ومن عسى أن يكون؟

وكانت الصدمة شديدة حين حدثوني أن الغريق شاب أسمر اللون شهدوه منذ ساعة وهو يغالب الأمواج.

ووقفت مأخوذًا بهول ما صُدمت به، وقررت أن أذهب فأُبلغ أحد المراجع المصرية في باريس، ولكنني عدت فقلت: ما الذي يهم ممثلي مصر من خبر شاب مات وقد خذلوه وهو يطلب كسرة من الخبز القفار!

وانتظرت انتشال الجثة، ولكن لم يجدها المنتشلون في ذلك المكان، وكنت قد وقعت صريع الضجر والإِعياء، فعدت إلى منزلي في ضعف شديد، وأخذت أهيئ القلم والقرطاس لأصف تلك الفاجعة، وبعد لحظة طرق الباب طارق فقلت: «من بالباب؟»

– أنا محمود!

أنت محمود؟ الله يلعنك! لو أنك كنت حقًّا غريق السين في هذا المساء لكانت فجيعتك من أجمل ما يُكتب لقراء (البلاغ).

٢٧ نوفمبر سنة ١٩٣١

عمدة ليون

حدثت القراء عن اللحظات التي قضيتها مع المسيو هريو في مؤتمر المسيون لاييك،[١] وأضيف إلى ذلك أن الجاذبية التي تفيض بها أسارير هذا الرجل المِنطيق حملتني على تعقب أخباره في أذهان الفرنسيين، وكان ممن سألتهم عنه المسيو ڤيڤيان Vivien، وهو ورَّاق مثقف بحيّ السوربون.

الكاتب: كيف صار المسيو هريو، يا سيد فيفيان؟

فيفيان: عاد — كما كان — عمدة ليون!

الكاتب: هذا جواب الشامت، أيها الصديق.

فيفيان: وكيف تنتظر مني ثناءً على هريو، وأنا أفضل عليه دالادييه؟

الكاتب: وما وجه التفضيل؟

فيفيان: إن دالادييه وزير يتكلم حين يجب الكلام، ويسكت حين يحسن السكوت.

الكاتب: وهريو؟

فيفيان: هريو رجل ثرثار، يتكلم كثيرًا، ولا يسكت أبدًا.

الكاتب: إنك لمسرف.

[١] إشارة إلى مقال صوَّر به الكاتب ما وقع في مؤتمر المسيون لاييك الذي عقد في باريس في يولية سنة ١٩٣٣، وكان الكاتب حضره ممثلًا لأساتذة اللغة العربية بالليسيه فرانسيه.

فيفيان: أنا أقول الحق بلا تزيُّد ولا إسراف، إن هريو كان أستاذًا للأدب الفرنسي بكلية الآداب في ليون، ويجب أن تعرف أن رجال الأدب لا يحسنون غير تنميق الحديث!

الكاتب: تأدَّبْ يا مسيو فيفيان، فأنت بحضرة أديب عظيم طبق صيته الشرق والغرب!

فيفيان: ألم أقل لك إن رجال الأدب لا يحسنون غير تنميق الحديث؟!

الكاتب: ولكن ما هي، بالتحديد، المؤاخذة التي تصوِّبُها إلى وزارة هريو؟

فيفيان: هي الإسراف في الأماني والوعود. لقد كان الرجل يَنْثُر الآمال على صدور الناس، ثم يَعْجِز عن تحقيق ما يقول، وليتك تذكر ما وعدَنا ومنَّانا وهو ذاهب إلى أمريكا، ثم لم يفعل شيئًا، على حين نرى الوزير دالادييه يتحفَّظ كل التحفُّظ في القول، ولا تقرأ له تصريحًا سياسيًا إلا رأيت له أثرًا إيجابيًّا، وهذا ما يجب أن يتخلق به الوزراء.

الكاتب: لا يرضيني هذا التحامل على هريو، وهو بالإجماع من أجمل صور الذكاء الفرنسي.

فيفيان: هريو من أذكى الناس كأستاذ، لا كوزير.

الكاتب: وما الفرق بين صور الذكاء في شخصية الوزير وشخصية الأستاذ؟

فيفيان: إن الذكاء في الأساتذة من ضروب البراعة واللوذعية، ولكنه في الوزراء خبرة وتجارب وأعمال … إن ماضي هريو كأستاذ يؤكد لنا أنه لا يصلح للأعمال الإدارية، وما ظنك برجل قضى شبابه بين عُنْف العواطف وطغيان الأحاسيس؟ لقد كانت دروسه في جامعة ليون مثالًا للنَّزَق والطيش، فقد كانت ملتقًى لحسان ليون، وكان بإغراقه في تحليل حياة مدام ريكامييه يجذب إليه وإلى درسه خرائد ذلك الوادي الظليل، وكان الشبان يرشُقُون النوافذ مكايدة للأستاذ المتصابي الذي يحدِّث النواهد عن حياة المرح في أندية باريس.

الكاتب: وما خطر ذلك الماضي الطروب في حياة كهل يتولى الوزارة؟

فيفيان: إنَّ خطر ذلك الماضي عظيم جدًّا، فقد يكفي أن تُقَدَّم إليه شفاعة من فتاة حلوة العينين ليصور الباطل عنده بصورة الحق، وتبدَّل الأرض غير الأرض والسموات!

الكاتب: وهذا أيضًا إسراف!

فيفيان: إنك تغيظني بهذه الكلمة، أنا أعرف هريو جيدًا.

الكاتب: وأنا أيضًا أعرفه.

فيفيان: منذ متى؟

الكاتب: سمعته يخطب في حفلة توزيع الجوائز بالسوربون سنة ١٩٢٧، وأقسم ما رأيت أندى منه صوتًا، ولا أملح نادرة، ولا أعذب بيانًا.

فيفيان: نعم، يا سيدي الأديب، عُدْنا لتنميق الأحاديث!

الكاتب: اسمع، يا فيفيان، لقد كان الرجل يومئذ وزيرًا للمعارف، وكان يبدو لي شابًّا غَضَّ الإهاب، فيا ليت شعري كيف يتغير الرجل في نحو سبع سنين فيعلن في المؤتمر أنه وَدَّع الشباب؟!

فيفيان: سبع سنين حِمْلٌ ثقيل.

الكاتب: وتُغَيِّر الرجل إلى هذا الحد؟

فيفيان: اسأل نفسك، ألم تتغير في سبع سنين؟

الكاتب: قليلًا جدًّا!

فيفيان: أنت تخادع نفسك.

الكاتب: وأنتم تضللون أنفسكم يا أعداء الأدب والفكر والخيال.

فيفيان: ما كنت أحسبك تغضب من مثل هذا الحديث.

الكاتب: أنا لا أغضب لنفسي، فإن الرجل لا يغضب لشخصه إلا حين يُهان، ولن يستطيع ألف من أمثالك أن ينالني بضَيْم أو هوان، ولكني أغضب لهذا الضلال الذي أرى صُوره متشابهة في فرنسا وفي مصر، فقد حدث قبل اليوم أن استقدمت الجامعة المصرية المسيو لوبرتون لتدريس الأدب الفرنسي بكلية الآداب، فأخذ الرجل يدرس مؤلفات ألفريد دي ميسيه، واتفق له في القاهرة ما اتفق للمسيو هريو في ليون، فكانت محاضرات لوبرتون في الجمعية الجغرافية ملتقًى لعرائس النيل، وسمع بذلك رجل متحذلق من أدعياء الأدب والوقار فحضر بعض المحاضرات، ثم خرج يدمدم بهذه الكلمات: «كنت أحسب هذا الرجل جادًّا، ولكني رأيته من الهازلين».

وكانت نتيجة هذا التجمل المبرقع أن عدَلَت الجامعة المصرية عن تجديد عقد المسيو لوبرتون، وحُرم الطلبة من أستاذ عظيم كان يحتل كرسي فيكتور هيجو في السوربون.

فيفيان: أنا لا أقول بإقصاء الأدباء عن مناصب التدريس، ولكني أرى أنهم لا يصلحون للمناصب الوزارية التي تعتمد على ضوء الخبرة ولا ينفع فيها بريق الخيال.

الكاتب: وهذا أيضًا ضلال ... إن خصوم الأدباء يصبغون خصومتهم بصبغة المنطق والعقل، وهذا لؤم في الخصومة يتورع عنه نُبَلَاءُ الرجال، أفتظن الأعمال الإدارية، والمناصب الوزارية، لا تصلح إلا برعاية الغَفَلَة المفحَمين الذين يُعْيِيهم إنشاء مقال؟

إن أولئك الصُمَّ المشاعرِ والقلوبِ يُذِيعُون في الناس أن الأدب يفسد موازين العقول، وقد أفلحوا في إذاعة هذه الأراجيف حتى أصبح الأديب يشعر في وطنه بوحشة الاغتراب، وصارت الأمور إلى طوائف من أدعياء الحكمة والسداد لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، وقد تمضي الأجيال والدنيا تحت أذهانهم الكليلة لا تتفتح عن جديد ولا طريف ... وليت حملات المتزمِّتين وقفت عند غَمْز أهل الأدب حين يتطلعون إلى المناصب الوزارية، فقد انتقلت إلى ميدان الأدب نفسه: في الصحافة والتدريس، وإني لأذكر أن كلية الآداب بالجامعة المصرية أعلنت عن بعض المناصب؛ فتقدم إليها فريق من الأدباء، وخطر لأحدهم أن يزكي نفسه تزكية أدبية؛ فأرسل إلى مجلس الكلية مجموعة من شعره، فابتسم الأساتذة وهزوا رءوسهم على الطريقة العربية، وهز أحدهم كتفيه على الطريقة الفرنسية، ثم قرروا بالإجماع رفض الطلب المصحوب بتزكية شعرية! ... ولو أن ذلك الأديب شفع طلبه بكتاب مطبوع أو مخطوط بَيَّنَ فيه أن (ميزان) أصلها (موزان) وأن الألف في ساج وعاج مجهولة الأصل لرحبوا به وعدوه خليفة سيبويه والخليل!

فيفيان: هذا الكلام يقنعني بأنكم أهل شغب وجدال!

الكاتب: أهذا كل ما تفهمون من الأدب وأعمال الأدباء؟

فيفيان: وهل للأدباء أعمال؟

الكاتب: إن الأدباء هم أصحاب الفضل في جميع الأعمال، وبهم يزدان هذا الوجود.

فيفيان: أتسمح أن أستعير تعبيرك فأقول: هذا إسراف؟!

الكاتب: وأين الإسراف يا مسيو فيفيان؟ أتستطيع أن تتصور دنياك هذه خالية من أعمال الأدباء؟ أتستطيع أن تمحو من الدنيا أثر الدراسات الأدبية والفلسفية والفنية والاجتماعية والتاريخية والتشريعية التي يضطلع بأعبائها فحول الأدب من الواقفين على أسرار النفوس والقلوب والعقول؟ والصحافة يا مسيو فيفيان؟ أتستطيع أن تنكر أن الصحافة في العالم مدينة لرجال الأدب؟ وهل تستطيع اليوم أن تستغني عن هذه القوة الخطيرة التي ترفع وتضع، وتحيي وتميت؟ إن أدباء اليوم هم المسيطرون. والوزراء

الذين تتغنى بصمتهم الرزين لا يمشون إلا بوحي من ثرثرة أهل الأدب، ولو وجدتُّ تعبيرًا غير الثرثرة لقدمته إليك، ولكن شاء الله أن نتحكم، وأن نعلن سيادتنا عليكم، ولو بأسوأ الفروض.

فيفيان: تَحَكَّمُوا، إن استطعتم إلى ذلك سبيلًا!

الكاتب: وكيف لا نستطيع؟ هل زرت لونابارك، يا مسيو فيفيان؟

فيفيان: زرته مرات.

الكاتب: وهل رأيت الجيبون؟

فيفيان: رأيته.

الكاتب: ورأيت كيف يلعب على الطريقة الإنسانية؟

فيفيان: الآن فهمت، يا سيد مبارك، أنك رجل خبيث!

الكاتب: انتظر، يا حبيبي، إن الله مع الصابرين، إن أدعياء التجمل والوقار من أعداء الأدب والفكر والخيال يعملون ما يعمل الجيبون، يقفون أولًا موقف الحيرة والذهول أمام أعمال الأدباء، ثم يمضون فيطبِّقونها حرفًا بحرف، وعند انتهاء «اللعبة» يصفقون ليشعروا الجمهور بأنهم من أهل الإبداع، لا من أهل التقليد!

فيفيان: أنتم إذن مروِّضون؟

الكاتب: ليكن ذلك، فالفرق ليس ببعيد بين القِرْد والإنسان، وهما أبناء عمٍّ وخال، فيما يقول أصحاب نظرية التطور من العارفين بأسرار الحيوان.

فيفيان: أخشى أن ننتهي إلى شر، إذا مضينا في هذا الحوار العنيف.

الكاتب: لن يكون إلا الخير، وإن إقناع رجل مثلك لَغُنْمٌ عظيم.

فيفيان: أتحسبني اقتنعتُ؟

الكاتب: تصور أنك اقتنعتَ!

فيفيان: لقد أضجرتَنِي، يا سيد مبارك.

الكاتب: وذلك بعض ما أريد، يا سيد فيفيان!

فيفيان: أنتم إذن محنة لهذا العالم؟

الكاتب: وهل تقبلتم هذه المحنة؟

فيفيان: لم نتقبلها، وإنما احتملناها كارهين.

الكاتب: عرفتَ الآن أننا نتحكم، وأن لنا السيادة عليكم، يا أصحاب الجدِّ الرزين!

فيفيان: كفى، يا سيد مبارك، فقد حان وقت الغداء، وتستطيع أن تذهب فتكمل محاضرتك في حديقة لكسمبور، فهناك بنات ملاح ...

الكاتب: بنات في عينك! أمَا لكم شغل إلا تعقب أخبار الأدباء؟

فيفيان: اذكُرني بخير عند صاحبك هريو، أرجوك.

الكاتب: وأنت، اذكرني بشر عند خصوم ذلك الوزير الأديب.

١١ أغسطس سنة ١٩٣٣

أصدقاء الجامعة المصرية

علمت أن جماعة من أهل الغيرة على العلم والأدب شرعوا في تأليف جمعية أدبية باسم «أصدقاء الجامعة المصرية» على نمط جمعية «أصدقاء السوربون» في باريس، فبدا لي أن أقدم إليهم هذه الملاحظات.

أولًا: الجامعة المصرية مجهولة أو كالمجهولة بين أمم الشرق، ولا أعرف أن كلية من كليات الجامعة المصرية اهتمت بإرسال بيان عن مناهجها في البحث والدرس إلى المعاهد والصحف في الأقطار الشرقية، مع أني أعرف أن من شبان تونس والجزائر ومراكش واليمن والعراق والشام والحجاز من يودُّ أن يتم دراسته في الجامعة المصرية، ولكنه لا يجد من يرشده أو يشجعه على ورود جامعة القاهرة، هذا مع أن كليات الجامعة تطبع تقارير سنوية، ثم تحفظ تلك التقارير في غاية من الصيانة بعيدة عن الأرَضة والعنكبوت إلى أن يطلبها أحد المدرسين!! ولو أن كليات الجامعة فكرت في الاتصال بالصحافة والأندية والمعاهد في الأقطار الشرقية لكان عندنا اليوم جاليات مهذبة من طلاب العلم والأدب والطب والقانون، ولهذا أهمية عظيمة في نشر الثقافة المصرية، وتعويد أهل الشرق على إعزاز وادي النيل.

ثانيًا: سمعت أن أربعة من شباب ألبانيا سيحضرون هذا العام للانتساب إلى كلية الآداب، أفلا يكون من الخير أن يفكر «أصدقاء الجامعة المصرية» في الترحيب بهؤلاء الطلاب ومساعدتهم على الإقامة الطيبة في هذه المدينة؟ إن الشبَّان الوافدين على مصر لطلب العلم يسكنون أول الأمر في الفنادق والبنسيونات، وهذا يعرضهم للتعرف إلى بيئات غير مصرية، ويروضهم على عِيشة محوطة بأسباب النَّزَق والطيش، ويعرضهم أحيانًا إلى الاقتناع بأن القاهرة مدينة ينقصها نبل الأخلاق.

ولو أن طالبًا أجنبيًّا ذهب إلى كلية من كليات الجامعة المصرية يسأل عن مسكن لقوبل بالدهشة والاستغراب؛ لأن أساتذة الجامعة المصرية ومدرسيها لا يتميزون عن سائر الموظفين بشيء، والموظف المصري في الأغلب لا يَعْنيه غير عمله المحدود، ولا يفهم كيف يتطوع بقضاء ساعة أو ساعتين في إرشاد طالب غريب، وأكاد أجزم بأن أساتذة الجامعة المصرية لا يعرفون الطلبة الأجانب إلا في قاعة الدرس، وقد تمرُّ الأعياد فلا يُفكر أحد منهم، حتى العمداء، في دعوةٍ كريمة إلى الطلبة الغرباء.

ثالثًا: أكثر الطلبة الأجانب يُحرَمون من الانتساب الصحيح إلى كليات الجامعة؛ لأن البكالوريا المصرية هي أساس الانتساب، وقد يندر أن تعترف الحكومة المصرية بالبكالوريا الأجنبية، أفلا يكون من الواجب أن ينظم «أصدقاء الجامعة المصرية» دراسات يستطيع بها الطلبة الوافدون على مصر أن يؤدوا امتحان المعادلة إذا طُلب منهم؟ إن أصدقاء الجامعات في الأقطار الأوربية والأمريكية ينظمون أمثال هذه الدراسات، ويمكنون الطلبة الأجانب من التقدم لامتحان القبول في الجامعات.

أنكون نحن أغنى عن التودد إلى الناس من فرنسا وإنجلترا وألمانيا؟ إن الطالب الأجنبي حين ينزل لندن أو برلين أو باريس يجد من أصدقاء الجامعات هناك من يرشده كيف يستعد لامتحان القبول، ومن يَهْدِيه إلى الأندية الأدبية والعلمية، ومن يُعَلِّمه كيف يعيش وإن قلَّ ما يحمل من المال.

أما نحن فنستهين بكل هذه الحقائق، ونَدَع الطلبة الأجانب للمصادفات بحيث لا ندينهم بظل من ظلال المعروف، ومع ذلك لا يزال ناس يحسنون الظن فيأتون من بعيد للالتحاق بالأزهر ودار العلوم وكلية الآداب ... فيا أصدقاء الجامعة المصرية، اعرفوا واجبكم، واحذروا أن تبددوا بتغافلكم ذلك الظن الجميل.

٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٣

أصدقاء الجامعة المصرية

عند المدير السابق[1]

تمهيد

في باريس جمعية كبيرة تُسمى «أصدقاء السوربون» أشار إليها أحد محرري البلاغ منذ يومين، وهي جمعية عظيمة تُخلص للعلم كل الإخلاص، ولها مآثر عديدة أظهرُها الدراساتُ المنظمة التي تقيمها في فصل الصيف والخريف باسم «الحضارة الفرنسية»، وهي دراسات تشمل جميع فروع الثقافة العقلية من أدب وفن وفلسفة وتاريخ، دراسات جدية يؤديها أقطاب جامعة باريس، ويُجْزَون عليها بمكافآت مالية تقدمها إليهم تلك الجمعية، والطلبة الذين يُواظِبُون على تلك الدروس يُؤدون امتحانات وينالون ألقابًا تشهد بتفوقهم فيما درسوا من الآداب والفنون.

وقد رأيت أن أكون من السابقين إلى التفكير في إنشاء جمعية من هذا الطراز باسم «أصدقاء الجامعة المصرية»، فوصلت بعد الجهد إلى اختطاط الأساس، والله بالتوفيق كفيل.

[1] كان لطفي باشا السيد استقال لأزمة جامعية نشأت عن نقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب يومئذ إلى وزارة المعارف بقرار من حلمي باشا عيسى.

رأي الدكتور طه حسين

وكان أول من فكرت في الاستفادة من معاونته الأستاذ الدكتور طه حسين؛ لأن التقاليد تفرض ذلك؛ إذ كان من أقدم طلبة الجامعة المصرية، وكان فيما أذكر أول أستاذ من بين الطلبة القدماء، وأصدقاء الجامعات يُخْتارون عادةً من بين قدماء الطلبة، وهم يسمَّون في الأغلب عادة بهذا الاسم الشريف.

عرضت المشروع على الدكتور طه؛ فابتسم ابتسامة الاستخفاف وقال: «ماذا تريد يا زكي؟ أتحسبنا نستطيع أن نعمل عملًا جدِّيًّا في هذه الأيام، إن السياسة شغلت الناس عن كل شيء، فانتظر حتى تنكشف هذه الغمة، ثم عُدْ إليَّ واقترح ما تشاء، أما الآن فأنا من المتشائمين، ومع ذلك فما الذي يُغريني بمطاوعتك؟! لقد أرادت الأمة أن تنشئ الجامعة بصفة جدية فلم تفلح، وأرادت الحكومة أن تنشئ الجامعة بصفة جدية فلم تفلح، وأردنا نحن أن نعمل بصفة جِدية فلم نفلح، فماذا تريد اليوم؟ وما الذي جدَّ حتى نعود إلى الشؤون الجامعية من جديد؟؟»

ولكني استطعتُ بعد إلحاح أن أقنعه بأنها محاولة قد تنفع، فقَبِلَ، وعاد من المتفائلين …

رأي الدكتور أحمد ضيف

وعرضت المشروع على الدكتور أحمد ضيف فرفض كل الرفض، وقال: «لقد نفضتُ يدي من الجامعة المصرية، وعدتُ لا أعرف غير دروسي في دار العلوم، وحسبي ما لقيت في الجامعة من عناء، أنا الآن لا أفكر إلا في تلاميذي وأطفالي، وفيما عدا ذلك يكفيني صفحات أقرؤها من الأغاني أو مؤلفات أناطول فرانس».

وكنت شديد الرغبة في معاونة الدكتور ضيف؛ فألححت عليه أشد الإلحاح؛ فانفجر الرجل وقال: «لا أريد، لا أريد، أنا والله أشتهي أن ينساني الناس، وإني لعاتبٌ عليك أمرَّ العتب، فإنك تُجري اسمي من حين إلى حين في جريدة البلاغ، فإن كنت يا صديقي ممن يذكرون قديم العهد، ويرعَوْن حرمة الوداد، فاطوِ اسمي من ذاكرتك أو امحُه مرةً واحدةً، ولا تُزعجني بإِثارة اسمي في جريدة أو مجلة، فقد صممت على العُزلة كلَّ التصميم، وفي طلاب الشهرة غَنَاءٌ لك عني، فابحث عنهم لتكوين ما تشاء من الجمعيات … أنا أشترك في جمعية جديدة؟؟ هذا والله ما لا يكون!»

رأي الدكتور العناني

وكان من سوء الحظ أن خرجت فتوجهت على الفور لمقابلة الدكتور علي العناني، وكان يعاني ثورة نفسية، فلم أكد أفاتحه حتى اضطرم وقال: «إن هذه الجمعية بطبيعةِ ما تؤلَّف من أجله سيكون من أعضائها فلان وفلان وكلاهما «ديماجوج» وأنا رجل وقفت حياتي على حرب الديماجوجية، فكيف تنتظر أن نتفق؟ إن كان ولا بد فسنستعمل البوكس!»

وكانت مباغتة مزعجة اضطرتني إلى الخروج قبل تناول القهوة ... وما كان يغيب عني أن الدكتور العناني سيرفض، ولكني أردت أن أبرئ ذمتي، فإنه من أقدم من عُنِيت بهم الجامعة المصرية؛ فأنفقَت عليه في ألمانيا بضع سنين وعينته بعد عودته أستاذًا للعبرية والفلسفة الإسلامية.

رأي الدكتور منصور فهمي

ثم ذهبت إلى الرجل الحكيم الدكتور منصور فهمي فقابلني بعطف ورفق، وسألني عن حالي، كعادته حين يتلطف بتلامذته وأصدقائه ... وابتدأت فقلت: يا سيدي الدكتور، أنا أفكر في إنشاء جمعية باسم «أصدقاء الجامعة المصرية»، وأبادر فأخبرك أن الدكتور طه كان أول من فاتحته.

فابتسم الدكتور منصور وقال: وهل تظن يا زكي أن اشتراك الدكتور طه في هذه الجمعية يحملني على التردد، لقد ذهبت في مجاملة الدكتور طه إلى أبعد حدود المجاملة، وواسيته يوم كانت تجب المواساة، ولم أُلْقِ بالًا للاعتبارات الرسمية، فَثِقْ كل الثقة بأن قلبي معكم، ولكن لا تسرفوا في الأماني، وابدأوا متواضعين لتُكتَب لعملكم الحياة، فإني أرى الناس في مصر يكثرون من القول، فتضيع الثقة في حياتهم العملية.

ثم سكت لحظة وقال: هل دعوتم الشيخ مصطفى عبد الرازق؟ وهل فكرتم في أخينا ضيف وأخينا العناني؟ والشيخ أحمد أمين لا تنسوه؛ فإنه رجل مفضال.

رأي الأستاذ مصطفى عبد الرازق

وعرضت المشروع على الرجل المهذّب الشيخ مصطفى عبد الرازق فقال: والله فكرة طيبة!

وكان بالمجلس الأستاذ علي عبد الرازق، فقال: أنا أذكر تمامًا المحاضرات التي تنظمها جماعة أصدقاء السوربون، وكنت أحب أن أواظب عليها، ولكنها مع الأسف كانت تبدأ في وقت مبكر فكان يضيع مني الدرس الأول.

فقلت: إن الدرس الأول يبتدئ في التاسعة صباحًا.

فأجاب: والتاسعة صباحًا في باريس شيء ثقيل!

وأردت أن أظهر بمظهر الباريسي المفتون فقلت: هذا صحيح!

رأي الأستاذ أحمد أمين

واتفق أن صادفت الأستاذ أحمد أمين في المترو، حيث نلتقي من حين إلى حين، فعرضت عليه المشروع فرحب به وقال: إن الفكرة جميلة، وهي تمكننا من نشر الثقافة العالية خارج المدينة الجامعية، ويحسن أن تكون مجلة «الرسالة» لسان تلك الجمعية …

فابتسمت وقلت: انتظر، إن الله مع الصابرين!

في بيت لطفي السيد بك

لم أر من الذوق أن أستشير أستاذنا لطفي بك في موضوع سيكون بطبيعة تكوينه تحت رعايته، فحادثته تليفونيًّا، وأخبرته أن جماعة من أصدقاء الجامعة المصرية سيتشرفون بزيارته؛ فتفضل وحدد الساعة الخامسة بعد ظهر الاثنين الماضي بمنزله العامر بمصر الجديدة.

جلسة التعارف

وجلسة التعارف من المصطلحات الحديثة، وإلا فقد تعارفنا من قبل، وتساقينا كؤوس الود والعَتْب، وجمعت بين قلوبنا ألوف من الذكريات فيها الشهد والصاب، وقد كاد قلبي يَثِبُ حين صافحت الأستاذ لطفي بك، الرجل العالم الفيلسوف الذي أعزني في مطلع حياتي الأدبية إعزازًا لن أنساه … وما هي إلا لحظات حتى رُفع بيننا التكليف فصار

الأستاذ لطفي بك يخاطبني بعبارة «يا سي زكي»، والدكتور طه يخاطبني بعبارة «يا سيدنا الشيخ»! فإن لطفي بك لا يقول «يا دكتور زكي» إلا إذا كان عاتبًا أو غضبان، والدكتور طه لا يقول: «يا دكتور زكي» إلا إذا أحرجته، أو كنا بمشهد من الناس، وأنا عنده فيما عدا ذلك «سيدنا الشيخ»، وهي علامة مودة حين يطيب بيننا الحديث، والدكتور طه محدِّث بارع ظريف.

الأستاذ لطفي بك: أشكر لكم هذه الزيارة الكريمة، ولا تؤاخذْني يا دكتور منصور، فإني لم أهنئك على عمادة كلية الآداب، وسبب هذا التقصير أني لم أسمع الخبر إلا بعد مضي ثلاثة أشهر، فقد انصرفت عن قراءة الصحف واعتزلت الناس.

الدكتور منصور: وأنا أشكر لرئيسنا وشيخنا هذا اللطف، وقد سرَّني أن يوفِّق الله ولدنا البار الأستاذ زكي مبارك إلى إنشاء جمعية تصل بين قلوب المخلصين من أصدقاء الجامعة، وستكثر الفرص التي نتوادّ فيها ونتحابّ، إن شاء الله.

الأستاذ لطفي بك: كان رأيي دائمًا في زكي مبارك أنه شاب يجيء منه، ولكني لاحظت منذ عرفته أنه غير Raffiné «غير مصقول».

الدكتور منصور: قد يكون شيء من هذا صحيحًا غير أنه مخلص كل الإخلاص.

الدكتور طه: زكي مبارك مخلص؟؟ لا وحياتك!

الدكتور منصور: إنه تمثال إخلاص.

الدكتور طه (وهو يبتسم)**:** مخلص إيه، سيبك من الكلام ده! زكي كان مخلصًا فيما سلف، ولكنه الآن تمثال أَثَرَةٍ لا تمثال إخلاص، والشاهد هو مجلس اليوم. أتحسبه دعانا لنخدم الجامعة المصرية، أو الثقافة الجامعية، على حَدِّ تعبيره في رقعة الدعوة؟ لا، يا سيدي، إنه دعانا ليتخذ من أحاديثنا مادة لمقالاته في «البلاغ».

زكي مبارك: أحب أن أحدد الغرض …

الدكتور طه: اسمع، يا سيدنا الشيخ، أتظن أنك خدعتني؟ لا، والله، وإنما انخدعتُ لك، ومن خادعك فانخدعتَ له فقد خدعتَه! وأنا مضطر لإعلان هذا في أول جلسة؛ ليعرف أستاذنا لطفي بك فيما بعد أني لم أكن من المخدوعين.

الدكتور منصور (موجهًا كلامه إلى زكي مبارك)**:** قلت لك يا زكي، غير مرة، إنك تسرف بعض الإسراف، وينبغي أن تستفيد من دعابة الدكتور طه فتعدل أسلوبك في الكتابة بعض التعديل.

الدكتور طه: لا تتعب نفسك يا دكتور منصور، فقد نصحته من قبل ولم يُغنِ النصح.

زكي مبارك: وماذا تريدون مني؟

الأستاذ لطفي بك: نريد أن تتلطف في القول وتحسن مسايرة الناس، فإنك لا تعيش وحدك.

زكي مبارك: وأنا لا أبيع حريتي الأدبية لأشتري بثمنها علاقات ومودَّات!! وهبوني صَدَعت بما توصون به، أيجزيني الناس على التلطف خير الجزاء؟ هيهات، إن المهذب عندهم مغبون!

الدكتور منصور: أنت تدين نفسك يا زكي من حيث لا تشعر، وتعترف بأن أسلوبك ينقصه التهذيب.

زكي مبارك: التهذيب في عرف الكُتَّاب معناه المسالمة التي يستذئب في ظلها الضعفاء.

الدكتور طه: أنت تعرف ما نعني، ولعلك لا تجهل أن بعض ما أَثَرْتَ من المعارك الأدبية كان …

الأستاذ أحمد أمين: نحن مدينون للدكتور زكي بكشف بعض الخلائق التي سترها النفاق، فقد استطاع بسِنان قلمه أن يُنطق شخصيات كثيرة بحقائق كانت مجهولة، وكم ناسٍ سحبوا ذيول التقوى والخشوع تصنعًا ورياءً، وما زالوا مستورين حتى جاء صاحبنا فرفع عن وجوههم ستائر الخداع.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: لم أفهم جيدًا ما تريد.

الأستاذ أحمد أمين: راجع ما أثار من المعارك الأدبية، وما مزق من أشلاء الأدعياء.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: الآن فهمتُ ما تُريد!

الدكتور منصور: لا تنسوا بجانب هذا أنه أبدع فنًّا أدبيًّا.

الدكتور طه: أي فن؟ لعلك تريد نظم الأسمار والأحاديث.

الأستاذ أحمد أمين: هذا في الواقع فنٌّ جديد، لم يعرفه العرب، لا في فجر الإسلام ولا في ضحى الإسلام.

الأستاذ لطفي بك: ولكن عرفه اليونان، وكلكم يذكر أحاديث بلاتون على لسان سوكراتيس.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: أذكر أني رأيت نماذج من هذا النوع عند أبي حيان التوحيدي.

الدكتور طه: كان يمكن أن يكون صاحبنا زكي مبدعًا لو رُزق حظًّا من الخيال، ولكنه لا يزيد على أن ينقل ما يسمع ... النهارده إيه؟ الاثنين؟ اقرأوا (البلاغ) يوم الجمعة فسترونه نقل هذه الأحاديث نقلًا حرفيًّا، وسترونه عجز عن توشيتها برأي جديد أو خيال طريف!

زكي مبارك: ألا يعجبكم غير الافتراء؟

الدكتور طه: اسمع يا دكتور منصور، هكذا يخاطب الأبناء آباءهم في هذا الجيل!

الدكتور منصور: هذه دعابة مغفورة.

الدكتور طه: نعم مغفورة، ولكن هل يليق أن يهاجمني في البلاغ باسم غير صريح؟

زكي مبارك: معاذ الله أن أفعل ذلك.

الدكتور طه: ألستَ «صديق البلاغ» الذي هاجمني منذ أسبوعين؟

زكي مبارك: لا، وربي، لست إياه، وإن ظن ذلك بعض القراء.

الدكتور طه: ومن هو إذن؟

زكي مبارك: لا أعرفه، فأصدقاء البلاغ كثير «وما يعلم جنود ربك إلا هو».

الأستاذ لطفي بك: وبأي مناسبة هاجمك البلاغ؟

الدكتور طه: حكاية العرب والمصريين.

الدكتور منصور : هذه مسألة شائكة تثار من حين إلى حين، وإني أسمع بعض الناس يتكلم كثيرًا عن القومية المصرية، ويريد بذلك أن تنفصل مصر عن أمم الشرق، وذلك خطأ مبين، وقد كنت — ولا أزال — من أنصار الرابطة الشرقية؛ لعلمي أن الأمم التي ترتبط برباطة اللغة والدين يقترب بعضها من بعض وتكوِّن وحدة لغوية وفكرية وعقلية وروحية، هي أسمى ما يفكر فيه الرجل الحريص على ربط الأواصر الإنسانية. ومن العجيب أن ناسًا في مصر يكثرون من الكلام عن الإنسانية وروابطها الأدبية والعلمية، ثم ينسون ذلك كله حين يجري ذكر العرب والمسلمين، فهل أصبح العرب والمسلمون شعبة أخرى لا يصح أن يرتبط بها المصريون؟!

الأستاذ لطفي بك: أنا لا أزال عند رأيي الذي أعلنته منذ سنين.

زكي مبارك: ذكِّرنا فقد نسينا!

الأستاذ لطفي بك: رأيي أنه يجب أن تُحصر جهود الأمم العربية في شؤونها الذاتية، ولا ينبغي أن يفكروا في تنظيم جبهة موحدة إلا بعد أن يكون لهم وجود محسوس، أما الآن فإضافة الأصفار إلى الأصفار لا تغني شيئًا، إن الصفر قد ينفع حين يضاف إلى الرقم، ولكنه لا يدل على شيء حين يقف وحده أو يُضاف إلى صفر مثله، وهذا الكلام على وضوحه لم أجد من يفهمه على الوجه الصحيح.

الدكتور طه (وقد استوى على كرسيه ولبس ثوب الجد الرزين)**:** اسمعوا أصل الحكاية: أنا أكتب في جريدة يومية، ولسوء الحظ أكتب كل يوم، وأنتم تعرفون ما معنى أن يكتب الرجل كل يوم.

الأستاذ أحمد أمين: معناه أنه يكتب كل يوم!

الدكتور طه: كويس، لحد هنا مفهوم، والرجل حين يكتب كل يوم قد يكتب غير ما يعني، ويعني غير ما يكتب، وهذا هو الذي وقع بالفعل، فقد قلت: إن العرب ظلموا المصريين، ولم يكن ذلك عن رأي مبيَّت، وإنما هي كلمة وقعت في مقالة يومية، وقعت عفوًا بلا قصد، وليس وراءها غرض مدفون، ولولا أن الأستاذ عبد الرحمن عزام علق عليها في البلاغ لمرَّت كسائر ما يُكتب من المقالات اليومية …

أفتدرون كيف كانت عاقبة ذلك؟ هاج الصحفيون في فلسطين وسورية ولبنان، وقال الشبان هناك بإحراق كتب طه حسين، والسخط على طه حسين، وتوعدوا المصريين جميعًا بإحراق مؤلفاتهم إن قالوا بالشعوبية، وهل قلت بالشعوبية يا ناس؟ وهؤلاء الذين يغضبون أقبح الغضب لكلمة صغيرة تقع في مقالة يومية هم الذين يدعوننا إلى تكوين وحدة سياسية، فكيف بالله نتفق مع ناس لا يعرفون ضبط النفس ولا أدب الخطاب؟

زكي مبارك: هل قرأت يا دكتور ما كتبته جريدة العاصفة؟

الدكتور طه: قرأته، يا سيدي، والحمد لله الذي لا يُحْمَد على المكروه سواه!

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: وماذا قالت جريدة العاصفة؟

زكي مبارك: لقد شتمت المصريين جميعًا وقالت: إنهم في العلم والأدب أدعياء!

الدكتور طه: وكيف يكون الحال لو قابلنا الشر بالشر والعدوان بالعدوان؟ كيف يكون الحال لو عملنا بنصائح الأستاذ محمد عبد الله عنان ودعونا المصريين إلى مقاطعة مصايف سورية ولبنان؟

الدكتور منصور: تكون رواية جميلة يوزع إعلاناتها المستعمرون، ويقرظها الشامتون!

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: الواقع أن الشرق لا يزال في طفولته، ولم ينضج.

الدكتور طه: للسياسيين أن يتملقوا العواطف، أما العلماء فلا ينبغي لهم أن يعرفوا غير الحق.

الأستاذ أحمد أمين: لقد واجهت مثل هذه المشكلة حين زرت العراق، فقد عاتبوني على عبارات وردت في كتاب فجر الإسلام، فكأن المؤلف المصري مسئول عن مراعاة جميع العواطف المتباينة حين يشرع في التأليف! وقد اضطررت عند زيارتي العراق إلى التلطف في مسايرة الشيعة حتى لا يقاطعوا مؤلفاتي.

لطفي بك: وأنا حين زرت فلسطين للاشتراك في حفلة افتتاح الجامعة العبرية رأيت من المناسب أن أزور المدارس العربية دفعًا لكواذب الظنون في اتهامنا بمؤازرة اليهود.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: إن مراعاة العواطف والميول كانت المقتل الذي طاحت به الفلسفة الإسلامية. إن رجال الرأي يجب أن يكونوا أصلب من أن يتملقوا شهوات الجماهير، وإلا ضاعوا مع الضائعين.

الدكتور منصور: ما رأيك، يا زكي، في هذا الكلام؟

زكي مبارك: أنا على الحياد!

الأستاذ لطفي بك: يظهر أنك تخشى أن يحرقوا كتبك هناك!

زكي مبارك: لست من هذا أخاف، وإنما أخشى أن يصح ما تخيله أستاذنا الدكتور منصور، أخشى أن تكون هذه المناوشات رواية تمثيلية يُسدَل فيها الستار على اندحار الشرق.

الدكتور طه: ولن أشترك في تأليف هذه الرواية.

الدكتور منصور: لم يبق إلا أن تراعي عواطف الناس حين تكتب.

الدكتور طه: وهل يراعي الناس عاطفتي حين يكتبون؟

الأستاذ لطفي بك: هذا عناد، والعناد ينافي الأخلاق الجامعية.

الدكتور منصور: الآن تذكرت أننا حضرنا لتأسيس جمعية باسم «أصدقاء الجامعة المصرية»، فلنبادر إلى وضع القانون، وليقم أصغر الحاضرين سنًّا بكتابة محضر الجلسة، ولعله ولدنا العزيز زكي مبارك.

أول أكتوبر سنة ١٩٣٣

صور طريفة لأحاديث الناس

أَجْرَتْ وزارة المواصلات طائفة من السيارات بين القاهرة والباجور، فإذا زرت ميدان الخازندار صباحًا وجدت أفواجًا من الناس ينتظرون السيارات ليذهبوا إلى شطنوف أو النعناعية أو سنتريس.

وللنظرة الأولى يفهم المسافر أن تلك السيارات ليس فيها إلا درجة واحدة، وقد سمعنا أن في بعض السيارات درجتين أولى وثانية، ولكن لم يتفق لنا أن نشهد غير السيارات التي تحشر الركاب حشرًا ديموقراطيًّا يسوِّي بين الغني والفقير، والرفيع والوضيع، وفي تلك السيارات مسحة خفيفة جدًّا من النظافة، ويغلب أن تخلو نوافذها من الزجاج: ليتمكن المسافرون من استنشاق الغبار اللطيف الذي يثور من جانبي الطريق، وهي حكمة ظاهرة من وزارة المواصلات أو من مصلحة السكة الحديد: فقد فطنتْ إلى قول المرحوم حافظ إبراهيم:

أيشتكي الفقرَ غادينا ورائحُنا ونحن نمشي على أرض من الذهبِ

فإنه إن عَزَّ علينا أن نملأ جيوبنا من السبائك التي تخرجها تلك الأرض الذهبية فلا أقل من أن نكحل عيوننا ونمسح وجوهنا بغبارها التِّبْرِيِّ النفيس!

وليس من الضروري أن ننتظر التِّبْر المسبوك ما دمنا نملك التبر المسحوق!

والترب والتبر كلمتان متقاربتان لفظًا ومعنًى، وليس فيهما إلا القلب المكاني الذي شرحه الصرفيون، والذي نجد شواهده في لغة العامة من المصريين حين يقولون مثلًا «الجواز» وهم يريدون الزواج!

في تلك السيارات المفتوحة النوافذ والأبواب فتحًا أبديًّا وفوق مقاعدها الخشبية يجلس المسافرون وقد ارتفع بينهم التكليف: فهذا أفندي أصلح من هندامه وكوى طربوشه ولَمَّع حذاءه ليحلو في عين عَيُّوشة بنت خالته في الباجور، وذاك شيخ كوَّر عمامته ولبس قفطانه الجديد ليصلي بأهل بلده وقد أخذ زينته عند كل مسجد كما يوصي القرآن المجيد، وذلك فلاح متقاعد رأى إخوتُه أن يكون رب الدار بعد وفاة أبيه، فلزم المصطبة وأخذ يفد إلى القاهرة يومًا بعد يوم لتتم له أُبَّهة الأعيان، وهذه سيدة متأنقة تريد أن تزور أقاربها في الريف ومعها سَفَط فيه من حلوى القاهرة ما يدهش له الريفيون، وتلك عجوز حَيْزَبُون تعود إلى بلدها بعد أن قضت يومين في القاهرة لزيارة ابنها (الفالح) المستخدَم بالديوان!

يجلس المسافرون وقد شُغل أحدهم بمحادثة جاره، أو بقراءة صحف الصباح، أو بالتطلع إلى المزارع الخضراء، ويظلون كذلك حتى يصلوا إلى ما يقصدون، ولكن يوم الأربعاء (٣ أغسطس سنة ١٩٣٢) كان يومًا مشهودًا بإحدى تلك السيارات: فقد حَمِيَ وطيس الجدال بين الركاب، وظلوا في صَخَب ولَجَب ساعةً ونصف ساعة، وكان كاتب هذه السطور من المشتركين في الحديث.

وإلى القارئ بعض الشخصيات:

الشخصية الأولى: شخصية التذكريّ (موزع التذاكر: الكمساري)، وهذا التذكريّ من المنوفية وأهله فلاحون، ومن عادته أن يجلس على كرسي صغير بجانب الباب ويأخذ في محادثة الركاب، وأحاديثه لا تخرج عن الفلاحة وأحوالها؛ لأن أباه — فيما حدثني — من كبار الفلاحين، وأبوه هو الذي اخترع عَزْق الذُّرة مرتين، والفدان في مزارعهم ينتج عشرين قنطارًا فيما قال، وهو يحادثني كلما رآني؛ لأنه يرى في شخصي فلاحًا قديمًا طال عهده بصحبة الفأس والمحراث، ومن وصاياه أن النَّجِيل لا تُستأصل جذوره إلا إن غزاه المحراث في بَؤُونة، وقد استكثرت ذلك؛ لأن المحراث فيما كنت أعرف لا يشقُّ الأرض إلا بعد أن يغمرها الماء بأيام، وهو يرى أن تحرث الأرض المنجلة بعد حصد القمح، فلما راجعته غضب وقال: أنت يا أفندي لا تعرف! ومن الجائز أن تكون الأرض تطورت تبعًا لما جد في العالم من مختلف التغيرات، وأنا تركت الفِلاحة منذ عشرين عامًا فلا يبعد أن يكون صاحبنا على حق، وأن تكون الأرض عادت فلانت بحيث تُحرث عقب الحصاد!

والشخصية الثانية: شخصية القاضي الشرعي (بلام التعريف)، وهو من قضاة القاهرة، وأهله من المنوفية، وقد صاحَبَنا في الطريق، وهو رجل ضخم الهامة قويُّ الجسم يدخن السجائر الفاخرة ويرى من حقه أن يسيطر بآرائه على الركاب أجمعين، وقد جلس في الكرسي الأول وقال حين احتدت المناقشة: أرجو أن لا نقرأ شيئًا عن هذه المنافرات في جريدة «البلاغ»، فسأله أحد الركاب: وكيف تخشى ذلك؟ فأجاب: ألا ترون هذا الرجل الجالس هناك؟ إنه زكي مبارك الذي لا ينسى شيئًا مما يسمع، ويستطيع تدوين كل ما يصل إلى أذنيه من شجون الحديث. فالتفتُّ فرأيت رجلًا يعرفني ولا أعرفه: ولم أر من الذوق أن أسأله عن اسمه بعد أن عرَّفني إلى الركاب وكأنه صديق حميم، ومن غرائب هذا القاضي أنه كان يمد يده في عنف متطاولًا على سيدة كانت تقارعه وترميه بحجج أصلب من حججه حتى خشينا أن نُضْطَرّ إلى مهاجمته وردِّه إلى أدب الخطاب.

والشخصية الثالثة: شخصية المهندس، وهو رجل لا يعرفنا ولا نعرفه، ويظهر أنه لا يعرف المنوفية قبل هذه المرة؛ فقد كان يسألنا عما نمرُّ به من البلاد سؤال من لا يعرف من تقويمها شيئًا، وفي طباعه هدوء، وفي رأسه عقل، وفي أدبه رفقٌ ولين.

والشخصية الرابعة: شخصية المرأة الجديدة: وهي سيدة سافرة، جميلة الوجه، حلوة التقاسيم، عذبة الحديث، وإلى جانبها طفلة صافية الأديم تنظر إلينا وإلى الوادي الأخضر بعيني الظبي الأَلُوف، وعلى وجه تلك السيدة طِلاء خفيف جدًّا من الزينة يذكِّر بما كان من صباحة وجهها يوم كانت في سن بُنَيَّتِها، وهي سيدة قبطية وإن أخفت أصلها وزعمت في سياق الحديث أن أهلها مشايخ لتصرف القاضي عما تورط فيه من العناد!

أحد الركاب: الله يقطع الأولاد وخَلَفهم!

التذكري: ما الذي جرى لك حتى تكره خِلفة الأولاد؟

– ما الذي جرى لي؟! جرى شيء بطَّال يا سيدنا الأفندي، لي ولد دفعت له دم قلبي حتى خلصته ونجيته من الجهادية، وبعد ذلك كان جزائي أن سرق لبة أمه وهرب.[١]

---

[١] اللبة حلية ذهبية يطوق بها العنق.

وأنا أبحث بنفسي عنه من بلد إلى بلد على غير جدوى، وأمه — عدوك — قلبها تقطَّع من البكاء والنوح.

التذكري: سرق لبة أمه وهرب؟! أعوذ بالله! لك حق في كره خلفة الأولاد (ثم التفت إلى الركاب) وقال: ألم أقل لكم إن البنت أفضل من الولد؟ والله يا إخواني — وما لكم عليَّ يمين — أنا عندي بنتان أحلا من السكر، وما شكوت منهما يومًا منذ رزقني بهما الله، الحمد لله على خلفة البنات! البنات نعمة ولكن الناس لا يعرفون.

القاضي الشرعي: البنت أفضل من الولد؟ ما هذا الذي تقوله يا شيخ؟ إن الله فضل البنين على البنات، وهو سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، فكيف ترى غير ما يراه الشرع الشريف؟

السيدة: البنت أفضل من الولد ألف مرة، ولا يقول بغير ذلك إلا الغافلون؟

القاضي: يا ولية اسكتي، بلاش هذيان!

التذكري: معلوم، البنت أفضل من الولد ألف مرة، الولد يسرق لبة أمه ويهرب، ويأخذ مال أبيه ويهرب، في حين أن البنت تتعلق بوالديها وتنفع أباها يوم المرض، فتغسل هدومه، وتمسح جسمه، البنت حُنَيِّنة يا سيدنا الشيخ، وليس لعطفها مثيل.

القاضي: ولكن البنات لا تتزوج في هذه الأيام، ووجودهن بالغاتٍ بدون زواج خطرٌ شديد، وهنَّ بعد الزواج أخطر؛ لأن البنت تظل دائمًا متعلقة بأهلها ولا تنقطع مطالبها، بل ربما زادت بعد الزواج، بنات إيه وزِفْت إيه؟ دا شيء يطلع الروح!

السيدة: من قال لك يا سيدنا الشيخ إن البنات لا تتزوج، أنا زوجت إحدى بناتي هذين اليومين، وبسلامتها في غاية الهناء، وزوجها على كيفك غني وابن حلال.

القاضي: وكيف زوَّجْتِها؟ قولي الحق! ألم يَحْفَ قدمك في البحث عن عريس؟

السيدة: فَشَر! والله إن ما كان يحضر ورجله فوق رقبته ما يطول ظفرها!

القاضي: كان زمان! أمّا في هذه الأيام فالأم هي التي تبحث لبنتها عن زوج، وهي التي تدفع المهر وتُعِدُّ الجهاز، وتعمل كل شيء للوصول إلى خاطب مهما كان حاله، وأنا بذلك عليم!

السيدة: نحن السيدات نعرف ما لا تعرف من يُسْر الزواج، يا سيدنا الشيخ!

القاضي: أنا الذي أعرف؛ أنا قاضي والنساء أمامي كل يوم بالعشرات، وشكواهن من أزمة الزواج تزلزل الأرض وتَدُكُّ الجبال.

السيدة: لا، يا سيدي!

القاضي: لا، يا ستّي!

السيدة: قلت لك: لا.

القاضي: وأنا قلت لك: لا، ثم لا، ثم لا، سبحان الله! أما تَعْقِلِين؟

الكاتب: الحق مع السيدة يا فضيلة الأستاذ.

القاضي: آراؤك معروفة يا دكتور، أنت من تلامذة قاسم أمين، هل يرضيك أن تخرج النساء عاريات الأذرع والمعاصم والسيقان.

الكاتب: الله يبشّرك بالخير!

السيدة: وما ضرر ذلك؟ العفة في النفس ولا قيمة للمظاهر، فقد تَخدع في أكثر الأحيان.

القاضي: ومن أجل هذا أَضْرَبَ الشبانُ عن الزواج، وصارت البنت تقعد بايرة إلى أن تشيخ وتصبح كالبَيْض المسوس، فُضِّيها يا ستي، أنا أعرف أربعين بنتًا طال بهن التعنيس، ولم يبق في زواجهن رجاء.

الكاتب: دلني على واحدة، أصلحك الله!

السيدة: أزوجك هذه الصبية.

الكاتب: يا ستي، أنا محسوب.

القاضي: نحن نتكلم جادين، وما كنت أحسب أننا سننتقل إلى (مدامع العشاق).

السيدة: ونحن أيضًا نتكلم جادين، ولكنك غاير يا سيدنا الشيخ!

القاضي: لا يعجبك الشيخ؟

السيدة: العفو، أنا أهلي كلهم مشايخ ومن أجلهم أحترم المشايخ أجمعين.

الكاتب: أهلك ليسوا مشايخ تمامًا، يا هانم إلا أن يكون فيهم قسيسون، فإن شكل العمامة واحد، وإن اختلف السواد والبياض!

القاضي: هذه إهانة للعمامة الإسلامية.

الكاتب: ليس هناك عمامة إسلامية، وإنما كانت عند المسلمين عمامات إقليمية أو محلية، كما يشاء لك التعبير، فالمسلمون في جزيرة العرب كانت لهم عمامة عربية أخذها عنهم كثير من المسلمين، ولا تزال موجودة عند الهنود، وهي العمامة ذات العذبة التي يحرص عليها الشيخ محمود خطاب ظنًّا منه أن فيها شعارًا إسلاميًّا، وكان للمسلمين في غير الجزيرة عمامات تشبه العمامات الأهلية في البلاد التي افتتحوها، وكان لهم في مصر هذه العمائم القبطية التي يلبسها القسيسون سوداء، ويلبسها المشايخ بيضاء، ويلبسها الأشراف خضراء، والوضع واحد وإن اختلفت الألوان.

القاضي: ما هذه الفلسفة؟

الكاتب: لا فلسفة ولا سفسطة يا سيدنا الشيخ! المسألة هينة، ولكنكم تظنون كل سمات المسلمين ترجع إلى أصول إسلامية، في حين أن الإسلام في جوهره لم يكن يرمي إلى غير إصلاح النفوس، وتطهير القلوب، وسلامة العقائد من أوضار الريب والشِّرك، وما عدا ذلك من المظاهر الاجتماعية أخذه المسلمون عن الأمم التي عرفوها بعد الفتح.

المهندس: خرجتم عن الموضوع.

الكاتب: أعرف ذلك، ولكن الحديث ذو شجون.

القاضي: هذا ما أخشاه، وإني لأتوقع كارهًا أن ينشر شيء من حديثنا في «البلاغ».

الكاتب: اطمئنَّ يا فضيلة الأستاذ! فليس من شأننا تدوين مثل هذه المحادثات، إنها لحظة وتنقضي، ويذهب كل منا إلى أهله علَّه يظفر بفطيرة أو دجاجة محمَّرة في الفرن.

القاضي: الله أكبر، هذه هي الحياة، لقد اشتقنا إلى جلسة المصطبة وأكل الفطير!

السيدة: والفطيرةُ مَن يُسَوِّيها؟ البنت أم الولد؟

القاضي: يا وليه اسكتي؟ انتظري حتى يفرغ الرجال من الكلام.

السيدة: ولية؟ أتظن كل النساء ولايا حتى تجابههن بهذا التعبير الغليظ؟

القاضي: لقد كانت المرأة محترمة يوم كانت (ولية)، ثم عادت مبغوضة منذ أصبحت (هانم). أنا لا أحب الفَرْنَجَةَ، ولكم أن تسألوا موظفي المحكمة عن قسوتي في معاملة النسوان المتبرجات؟

المهندس: ألا يتفضل أحدكم فيدلنا على المسئولين عن بلايا التبرج؟

الكاتب: المسئولون عن التبرج هم الشبان.

القاضي: ما معنى ذلك؟

الكاتب: معناه أن الفتاة لا تتبرج — حين تتبرج — إلا طاعةً لنزعة خفية أو ظاهرة عند الشبان، فالشباب العصري يُؤْثِرُ المرأة المتبرجة على المرأة المحتشمة، والفتاة تشعر بذلك، فهي تتزين لتستأثر بهواه، ولو انصرفت رغبة الشبان إلى زينةِ أشرف من زينة التبرج لسارعت الفتيات إلى التحلي بالعلوم والآداب والفنون؛ لأن الفتاة بطبيعة أنوثتها تتودد إلى الفتى عن طريق ميوله وأهوائه: إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؛ ومن هنا تعرفون أن تبرج النساء ظاهرة اجتماعية خبيثة؛ لأنها تُخفي في ثناياها معنًى خَطِرًا هو ميل الرجال إلى النعومة والانحلال.

السيدة: والشبان أيضًا متبرجون.

القاضي: يا ولية اسكتي حتى يفرغ الرجال من الكلام.

المهندس: لقد سرني هذا التعليل، ويؤلمني أن يكون هذا هو الواقع، فإن شباننا يتطلبون من المرأة أن تساير آخر ما جد من البدع في باريس، والفتاة المحتشمة في نظرهم غشيمة مغفلة لا تصلُح زوجة ولا رفيقة، أما الفتاة المتبرجة الخليعة فهي صاحبة الحَوْل والطَّوْل في هذه الأيام.

القاضي: أتريدون الحق؟

المهندس: إنه غاية ما نبتغيه.

القاضي: الحق أن الشبان والبنات كلهم زفت في زفت، وقد ظهر الفساد في البر والبحر، ولم يبق إلا أن تقوم القيامة، فقد ظهرت أشراطها منذ زمن بعيد.

الكاتب: القيامة؟ انتظر قليلًا، إن الله مع الصابرين!

القاضي: ماذا أنتظر، ولم يبق في الدنيا خير يُرتجَى ولا بِرٌّ يُرْتَقَب! لقد فسد العالم؛ فاقضِ فيه بعدلك لا برحمتك، فإنك فعالٌ لما تريد!

الكاتب: يا أخي! ولماذا تستكثر علينا رحمة الله؟

السيدة: ربنا يلطف!

القاضي: إلى متى يلطف، يا ستي؟

الكاتب: بقيتْ كلمة أحب أن لا تضيع.

المهندس: تفضل!

الكاتب: تحدثتم عن أزمة الزواج، وذكرتم أن من أسبابها تبرج الفتيات، فهلا ذكرتم جبن الشبان؟

المهندس: أوضِحْ.

الكاتب: إن الشاب حين يُعْرِض عن الزواج لا يتأثر فقط بتبرج البنات، فهناك ألوف غير متبرجات.

القاضي: كل البنات متبرجات، وأنا أعرف ذلك.

المهندس: صبرك، يا فضيلة الأستاذ!

الكاتب: ليس التبرج وحده سبب أزمة الزواج، ولكن هناك جبن فريق من الشبان عن مواجهة الحياة العائلية، فإن الشاب حين يتزوج ينصرف طوعًا أو كرهًا إلى ملاحظة بيته والبر بأهله؛ وهذا يتطلب تضحيةً من شبان اليوم الذين ألفوا السهرات الطوال في الملاهي والمشارب والقهوات، وهي تضحية هينة، ولكنها تبدو شاقة جدًّا على من ألف حياة اللهو واللعب، واستطاب مرافقة البنات السارحات.

القاضي: تعجبني كلمة (السارحات) في هذا الموضع.

السيدة: قيِّدها عندك!

المهندس: والأزمة الاقتصادية لها دَخْلٌ أيضًا.

الكاتب: لنفرض ذلك، ولكني أعرف كثيرًا من الشبان الموسرين الذين يتجاوزون الثلاثين وهم عزاب، وليس لهم عذر مقبول، ومن هؤلاء من أصبح زاهدًا أشنع الزهد في الزواج، ولهم فلسفة سخيفة يبررون بها هربهم من تكاليف الحياة العائلية التي لا يعرف قيمتها غير الفتيان الشجعان.

المهندس: الزواج يحتاج حقًّا إلى شجاعة.

الكاتب: إلى شجاعة عظيمة؛ لأن حبس النفس عن الشهوات المحرمة يحتاج إلى عزيمة دونها عزيمة الأبطال في ميدان القتال، فإن رأيتم شابًّا موسرًا يجنح إلى العزوبة فاعلموا أنه ضعيف أو فاجر أو جبان.

السيدة: هذا هو الكلام.

القاضي: نعم؛ لأنه لا يُرضي الهوانم إلا براءة النساء وإدانة الرجال.

التذكري: هذا هو البلد الذي زاره المتنبي حين قدم مصر وقال فيه نونيتين هما خير ما في ديوانه من القصيد الرنان.

عندئذ التفتُّ وقد خفق قلبي فرأيتني أمام سنتريس.

في ظلال الذكريات

في أوائل يوليه الماضي طلبت مني إدارة الليسيه فرانسيه بالقاهرة أن أرافق الطلبة إلى باريس لزيارة المعرض الاستعماري الدولي؛ فانشرح صدري لذلك، ورحبت بالرجوع إلى باريس، ولم يكن مضى على رحيلي عنها غير أسابيع، ثم طلبت تفاصيل تلك الرحلة لأكون على بينة من المصاعب التي يعانيها المدرس حين يراقب الطلبة في بلد زاخر مائج مثل باريس، فهالني أن رأيت نحو ثمانين فتى وأربعين فتاة يستعدون للسفر إلى عروس السين، ورأيت «جدولًا» معقدًا أشد التعقيد عن تفاصيل السياحة وما يتبعها من زيارات رسمية وغير رسمية، فتذكرت أن الطلبة «أشقياء» وأنني لا أراقبهم في الفصل إلا بجهد جهيد، فكيف أروضهم على النظام في باريس وهم كغنم الراعي نجمعهم من هنا فيتفرقون من هناك؟!

عندئذ اعتذرت واكتفيت بحرِّ مصر، ورأيته في هدوئه أجدى عليَّ من مراقبة الطلبة في نسيم باريس.

ثم مضى وفد الليسيه فرانسيه إلى تلك الديار، وبقيت في القاهرة أناضل الشيخ عبد المطلب والشيخ الصعيدي، فما أشنع ما جنيت على نفسي حين جانبت الذاهبين إلى وادي الحياة واكتفيت بمناقشة من يرون أن القرآن ليس من شواهد النثر الجاهلي، أو أن لغة قحطان لا تغاير لغة عدنان، إلى آخر ما أطفأنا ببرده جمرات الصيف!

يا زمان الخَيْف هل من عودةٍ يسمح الدهر بها من بعد ضَنِّ
أرَضِـيـنـا بـثَـنِـيَّـات الـلـوى عن زَرود؟ يا لها صفقة غبنِ!
سل أراك الجزع هل جادت بِهِ مزنةٌ رَوَّتْ ثراها مثل جفني

وأحاديث الغَضَى هل علمت — أنها تملك قلبي قبل أُذْنِي
لست أرتاعُ لخَطْبٍ نازلٍ — إنما الخوف لقلب مطمئنِّ

وتلك أبيات تصور لوعة صاحبها على الخَيْف والغَضَى وزَرُود، وهي ديار كانت أعز على أصحابها من باريس عند عشاق باريس؛ لأنها كانت كذلك مراتع ظباء، ومعالم صبابة، ومعاهد فتون، وكل ماء مع الهوى صدَّاء، وكل أرضٍ مع المها باريس!

وبالأمس ذهبت إلى الليسيه فرانسيه فوجدت الطلبة وقد عادوا فرحين جذِلين، فتذكرت أنهم ظفروا بالحظ الأكبر حظّ من يرى باريس لأول مرة، وهي لأول نظرة من أفتن ما ترى العيون، وبخاصة حي الشانزليزيه وميدان الأنڤاليد وما يحيط ببرج إيفل والتروكاديرو والمدرسة الحربية.

أقبل الطلبة يحيونني، فنظرت إليهم ولسان حالي يقول:

كُرُّوا الأحاديث عن ليلى إذا بعدتْ — إن الأحاديث عن ليلى لتلهيني

وليلاي هي مدينة السوربون والكولليج دي فرانس ومدرسة اللغات الشرقية وطن أساتذتي وأهلي، حيث عرفت من عرفت من كرام الرجال وكرائم النساء.

ومن بينات الحب أن كان أهلها — أحبَّ إلى قلبي وعينيَّ من أهلي

ثم أقبلت على الطلبة أحاورهم لأعرف ماذا استفادوا من زيارة باريس.

وهنا تقدمت إحدى الطالبات وقالت: إن أهم ما راعني في باريس هو عدم الفضول، فالفتاة أو المرأة لا يُنظر إليها في باريس نظرة تُشعر بالفرق بين جنس وجنس، إنما هي «إنسان» عليه ما عليه من واجبات وله ما له من حقوق، وليس بين الفتى والفتاة أدنى فرق في مواجهة الحياة، فالفتاة تعرف هناك أنها مسئولة عن نفسها في كل شيء، فعليها أن تتعلم وأن تتهذب لتستعد للنضال في ميادين الكسب الشريف، وقلما يخطر للفتاة أن تفكر في حماية أخيها أو ابن عمها أو أحد من ذوي قرابتها، كما يقل أن تعتمد على زوجها في حمل هموم المَعَاش، فالمرأة هناك عضو حي لا عضو مشلول، والأسرة تتكاتف وتتعاون بعملها وجِدِّها في حمل أعباء البيت، وكل فرد في الأسرة يعود عليها بشيء من النفع، جزيل أو قليل، وهذا فيما رأيت هو سِرُّ ما عُرف عن فرنسا من الغنى الذي

يعصمها من الاستهداف للكوارث الاقتصادية، فإن الفرنسيين يمتازون بميزتين: العمل والادِّخار، فكل فرنسي يعمل، وكل فرنسي يَدَّخِر جزءًا مما يكسب، وبهذا لا يصل الرجل أو المرأة إلى سن الأربعين إلا وقد جمع ثروة قيمة تنفعه في شيخوخته وتقيه شر السؤال والاعتماد على الأهل والأصدقاء، ولو أننا في مصر فهمنا الحياة كما يفهمها الفرنسيون لكُنَّا من أغنى الناس؛ لأننا نملك أخصب أرض، وأعذب نهر، وأصفى سماء، ولكننا مع الأسف نترك في الأغلب هموم العيش فوق كواهل عضو واحد من أعضاء الأسرة، ثم ينصرف سائر الأعضاء عن العمل، فهذا كهل يرى الشغل مما ينافي الوقار، وتلك سيدة ترى من حقها أن تنفق بلا حساب، وذلك شاب لا يرى غضاضة في أن يتجاوز الثلاثين في الحياة المدرسية وهو يثقل كاهل والديه بلا حياء. ولا كذلك الفرنسيون فإنهم مع شح أرضهم، وقسوة جوهم، وعبوس سمائهم، يتمتعون بثروة عظيمة، وحسبنا أن نعرف أنهم اليوم لا يعرفون ما الأزمة ولا يعرف عمالهم ما العطلة، وإنما ينظرون إلى أزمات العالم نظر المتفرج؛ لأنهم مولعون بالكسب والادِّخار، وهذا أساس القوة؛ لأن الغنى له المقام الأول في حياة الشعوب.

ثم تقدم أحد الطلبة فقال: ولو سمحتْ زميلتي لأضفت إلى كلامها أنني لم أَرَ الناس في باريس يتجمعون على القهوات في أوقات الفراغ، فالصباح كله وقت عمل من صدر النهار إلى الظهر، ثم يُرَى الناس في المطاعم وفي القهوات، فإذا كانت الساعة الثانية عاد الناس إلى أعمالهم وأقفرت المشارب إلى المساء؛ لأن الفرنسي لا يتخذ القهوة «محلًّا مختارًا» إلا في أوقات المسكنة والذلة، وهي الأوقات التي يُقضَى فيها عليه أن لا يجد ما يعمله، وهو يشعر حين تخلو يده من العمل أنه ذليل، وليس في باريس ناس تجدهم حين تشاء في هذا المشرب أو ذاك، كما يقع كثيرًا لأهل القاهرة الذين يُغْرُون إخوانهم بالكسل، ويحبِّبُون إليهم التقاعد والخمول.

عندئذ ابتسمت وقلت: ولكني أعرف يا بني قهوات لا تخلو من «زبائن» دائمين، فيحسن أن لا تعمم الحكم بنشاط أهل باريس.

وهنا تردد الطالب قليلًا ثم قال: نعم هناك قهوات معمورة بزائريها في جميع الأوقات، ولكنها لا تقع أبدًا في الأحياء الشعبية التي لا يوجد بها إلا الباريسيون، إنما تقع تلك القهوات في الأحياء التي يكثر فيها الأجانب مثل حي الأوبرا وحي الشانزليزيه والحي اللاتيني، والأجانب كما تعرف يذهبون إلى باريس في الأغلب حبًّا في لذات البطالة والفراغ: فهم وحدهم رواد المشارب والقهوات، وهم مظهر الكسل والخمول في تلك

البقاع، والباريسيون ينظرون إليهم كما ينظرون إلى أصحاب التيجان؛ لأنهم يتوهمون أنهم مغمورون بالسعة والثراء، وأنهم ليسوا في حاجة إلى السعي في طلب الرزق؛ لأن كل أجنبي فارغ يتمثل لدى جماهيرهم من ورثة الكنوز القديمة في الشرق أو من أغنياء الأمريكان.

وبعد لحظات سألتهم عما رأوه في المتاحف من آيات المجد والفن، فتقدم أحدهم وقال: إن أجمل ما رأيته وأبقاه أثرًا في نفسي هو تلك اللوحة التي قرأتها في البانتيون (مدفن العظماء).

النصر أو الموت Vaincre ou mourir

وهي شعار الفرنسيين الذين يغلو الدم في رءوسهم كلما أحسوا بضَيْم أو توقعوا أن ينالهم أحد بهوان.

وقد صحت عزيمتنا على أن يكون شعارنا كذلك: «النصر أو الموت»؛ فإنه لا حياة بلا كرامة، ولا كرامة بلا حياة، وقد تلقينا في دروس اللغة العربية أن علي بن أبي طالب قال: «الناس من خوف الذل في ذل، ومن خوف الفقر في فقر.»

فمن واجب المصري أن لا يرى للموت درجات بعضها محتَمَل وبعضها بغيض، فإن هذه سياسة لا تليق بغير العبيد، وإنما يجب على الرجل الحر أن يفهم أنه ليس بعد الحياة إلا الموت، والحياة التي تليق بالمصري الحر هي حياة الكرامة والإعزاز، وما عداها موتٌ ذريع لا يفاوت بين طبقاته إلا الأذلون، ورحم الله أبا فراس؛ إذ قال:

ونحن أناس لا تفاوت بيننا　　لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القبرُ

فإن سألتني ماذا رأيت في المتاحف والمزارات فلن أقدم غير هذه الكلمة «النصر أو الموت»، وليتك تختارها موضوع إنشاء؛ ليتمكن رفاقي من شرح ما فيها من معانٍ وأسرار.

– ثم ماذا يا أطفالي؟ هاتوا ما عندكم من طيبات الأحاديث!

عندئذ تقدم أحد الطلاب وقال: لقد استقبلَنا رئيس الجمهورية في قصره، وتقبلْنا تحيته بأحسن قبول.

قلت: وكيف كان شعوركم يومذاك؟

فأجاب: شعرنا بالعزة والكرامة، أدركنا أننا نُكرَم من أجل مصر، فلو كانت مصر بلدًا مهينًا لما استطعنا أن ندخل قصر رئيس الجمهورية مُكرَمين، وقد اتخذنا من تلك الحفاوة درسًا وطنيًّا لن ننساه على الأيام؛ فإن رئيس الجمهورية لا يرى في طلبة الليسيه فرانسيه إلا شبانًا يتعلمون لغته في بلادهم ويُؤْثِرُونها على غيرها من اللغات الحية، وفي ذلك عبرة لنا؛ لأن الذي يتعلم لغة قوم ينتقل جزء من قلبه إليهم، ومن أجل هذا قَدَرْنَا أساتذتنا الذين يبذلون من الجهد ما يبذلون ليجعلوا حظ اللغة العربية في الليسيه أعلا من حظ اللغة الفَرَنسية. فنحن يجب أن نكون لأنفسنا قبل أن نكون لأحد من الناس، والفرنسيون لا يطمعون منا في غير ذلك حين نتعلم في معاهدهم العلمية، ونحن جديرون بأن نفرض احترامنا على الأجانب بما نريهم من حرصنا على قوميتنا وضننا بالاندماج في أية هيئة أجنبية؛ لأن الذي لا يحترم نفسه ولا يضن بكرامته خليق بأن يسومه الناس سوء الهوان.

قلت: هناك معانٍ أخرى وددت لو تنبهتم إليها.

فتقدمت إحدى الطالبات وقالت: لعلك تريد الديموقراطية، فقد شعرنا بأنس بالغ حين صافَحَنَا رئيس الجمهورية وسأَلَنَا عما لقينا في سفرنا من تعب وما لقينا في باريس من ارتياح، فإن من المؤنس حقًّا أن يصافحك مصافحة المؤاساة والرفق رجلٌ يملك كل شيء في فرنسا ولا يمنعه مركزه من التنازل باستقبال فريق من الشبان المصريين.

قلت: كل هذا جميل، ولكن اسمحي لي يا بنيتي أن أقدم لك بعض التصحيح، فإن رئيس الجمهورية الفرنسية لا يملك شيئًا في فرنسا، والأمر كله للشعب، فليس هناك سيد ولا مسود؛ لأن أمرهم شورى بينهم، ولأن الفرنسي أصلب عودًا وأقوى نفسًا من أن يترك أمره لرجل فرد يسوسه كيف شاء، في زمن لا سلطان فيه لغير الشورى والقانون، فإن سمعتم أن هذا العصر من أزهى العصور في تاريخ الإنسانية فاذكروا أن ذلك بفضل الحرية المدنية التي جعلت كل امرئ سيد نفسه، ومكنته من تمرين ملكاته الفنية والأدبية والإدارية، وأعانته على استغلال مواهبه لمصلحته ومصلحة المجتمع، لا لمصلحة الملوك المستبدين كما كان الحال في الزمن القديم؛ فتلك عهود كان الناس يعملون فيها لفرد واحد، فكان نشاطهم مشلولًا؛ لأنهم كانوا مُسَخَّرِين، وكانت مُتَع الحياة لديهم لا تزيد عما يجده الأرقاء من لذة الخضوع، فإن الذليل يجد لذة في خضوعه لسيده، ولكنها لذة منحطة تذكِّر بما يجد الكلاب من لذة الطاعة والامتثال، والنعيم درجات فبعضه للضعفاء، وبعضه للأقوياء، وفي هذا تفسير لرأي المتنبي؛ إذ قال:

ذلَّ من يغبط الذليلَ بعيشٍ　　　رب عيشٍ ألذُّ منه الحِمامُ

فقد يكون الذليل أسعد الناس بِذُلِّه؛ لأنه لا يستطيب العيش إلا في حمى من يملك رقه من الأقوياء الغالبين، ولكن كرام النفوس يرون بعض السعادة أَمَرَّ من الصَّاب، ويرون بعض الشقاء لونًا من النعيم، وليس للسعادة ولا للشقاء رسوم وحدود، وإنما نشقى ونسعد حسبما تشاء أنفسنا من قناعة أو طموح، وتلك المشيئة تُربَّى في الأمم وفي الأفراد، وتحتاج في تربيتها إلى رياضة شديدة؛ لأن أكثر الناس مفطورون على الدَّعة والخمول ... ألم يُخلقوا من التراب؟!

عند ذلك ابتسم أحد الطلبة وقال: هذا يناقض ما تَرَوَّضْنَا عليه من النظام، وفي هذا دعوة إلى الثورة على طمأنينة التقاليد.

فأجبت: أنا أروِّضُكم على النظام على شرط أن يكون من صنع أيديكم، وأن تكون لكم إرادة في إقراره والدعوة إليه، ولست أدعوكم إلى الثورة على طمأنينة التقاليد، وإنما أحارب «بلادة» التقاليد؛ لأن هذه اللفظة تتضمن معنى القرار والسكون، والرضا بما كان، والزهد في تعديل ما سيكون، والرضا والبلادة كلمتان متقاربتان؛ لأن الحياة في طبيعتها ثورة على القبح، وشوق إلى الحُسن. وكل راضٍ بحظه ميت نوعًا من الموت؛ لأن الرضا سلبٌ والحياة إيجاب، وكل شيء في الدنيا يمثل الحرب القائمة بين الحركة والسكون، والعدم والوجود، فتخيروا لأنفسكم ما تشاءون، ولا تنسوا أن الحركة بشير الحياة، وأن الجمود نذير الفناء.

وهنا تقدم أحد طلبة الفلسفة وقال: لا أفهم كيف يكون السكون قوةً تحارِب الحركة، ولا كيف يكون العدم قوة تجاهد الوجود.

فقلت: ستفهم على الأيام أن العدم والسكون من الكائنات ذوات الوجود؛ فإن الذي يجده بعض الناس من لذة الراحة والفراغ والاستكانة والخضوع، وما إلى ذلك من اللذات السلبية، كل ذلك دليل على أن هناك حيوية في نواحي العدم والسكون، وهي حيوية تجتذب إليها النفوس التي لا يستهويها من متاع الحياة إلا الجانب السلبيُّ الخسيسُ!

أيها القارئ!

تلك شذرات من محاورة كانت بيني وبين طلبة الليسيه فرانسيه العائدين من باريس بعد زيارة المعرض الاستعماري الدولي، فاقرأْ إن شئت هذه الكلمات وتأمَّلْها، فقد تعود عليك بأجزل النفع.

أول أكتوبر سنة ١٩٣١

المدرسون والطلاب

في شهر إبريل

لست أدري كيف يُفْرض علينا ألا نقرأ في الصحف المصرية إلا أخبارًا جِدّية صِرفة يغلب عليها الجفاف، مع أن في الحياة جوانب فكهة لا تخلو من الدعابات الفطرية التي يساق إليها الناس من حيث لا يشعرون، وقد مرت أسابيع والصحف تطالعنا كل يوم بأزمات جديدة حتى خفنا نتائج الاقتناع بأن الحياة كلها جدٌّ عابس أو شَرٌّ مستطير، فليسمح لي القراء هذه المرة بمخالفة ما درجتُ عليه مع سائر الكتاب من إيثار الجد الصُّراح، ولكن ليعلموا أني لا أمزح ابتغاء الترفيه عنهم، وإنما أنقل بعض الصور الحية لحياة المدارس المصرية في شهر إبريل، وهي صور واقعية تثير الضحك عند من يفكر فيها، وبخاصة طلبة المدارس والمدرسون، وكل من قاده حسن الحظ أو نكد الطالع إلى أن يدخل مدرسة مصرية ويشاهد أحوال الدراسة في شهر إبريل.

أساس البحث

هناك قاعدة وضعها أحد أساتذة الأزهر القدماء وهي: «في أول العام الدراسي يوجد طلبة ومدرسون، وفي وسط العام يوجد مدرسون ولكن لا يوجد طلبة، وفي آخر العام لا يوجد طلبة ولا مدرسون!»

وهذه القاعدة تنطبق تمام الانطباق على المدارس المصرية، فشهر إبريل هو شهر الخمود، بالرغم من صياح النظار والمدرسين، ولكنه خمود مزيف في حياة مزيفة، فالطلبة

والأساتذة يتكلفون النشاط أو يتكلفون الخمود، كل ذلك يجري بطريقة آلية لا تدري أَتَصْدُرُ عن قوم أحياء أم أموات، وكل ما في الأمر أن المدارس فيها مواظبة ومراقبة وامتحانات شهرية وفسحة وغداء!!

المدرس الحيران

في وسط هذا الجو يوجد مدرس يشبه أُمَّ العروسة «فاضية وملخومة»، وهو جدير بأن يُلَقَّب بالمدرس الحيران، ذلك المدرس هو الإنسان المسكين الذي تثق به إدارة المدرسة فتعطيه الفِرَق التي ستتقدم إلى الامتحانات العمومية في وزارة المعارف «العمومية أيضًا!»، وهذا المدرس أنا أعرفه كل المعرفة، وعهدي به يحرص على أن يعيش عيشة منظمة ليحتفظ بنشاطه وليستطيع إعداد تلامذته للامتحان، وإلى القارئ بعض ما يقاسي ذلك المدرس الحيران: يدخل الفصل وهو مملوء بالنشاط أو تكلف النشاط، ثم يصيح في الطلبة أن اسمعوا وعُوا، وإذا وَعَيْتُم فانتفعوا، ثم يقصد إلى أشد الطلبة تكاسلًا فيدعوه إلى السبورة، فيقوم الطالب يجرُّ رجليه في تباطؤ وخمول، فيأمره الأستاذ بكتابة سؤال، ثم يدعو الطلبة إلى الاشتراك في الجواب.

ثم تمرُّ لحظات يشعر فيها حضرة المدرس الحيران بأن الحالة على ما يرام، ولكنه يفاجأ بعد بضع دقائق بتلميذ يطلب الإذن بالخروج، فإذا سأل عن السبب أجاب الطالب بأنه سيستأذن الناظر ويذهب إلى البيت؛ لأنه يشعر بصداع، ثم يفاجأ حضرة المدرس الحيران مرة ثانية بتلميذ اتكأ على مكتبه ونام، فإذا سأل ما خَطْبه أجاب التلميذ بأنه قضى الليل إلا أقله في مراجعة المقرر، وأنه لذلك لا يستطيع أن يتماسك!!

عندئذ يأخذ المدرس الحيران في إسداء النصيحة للطلبة بأن ينظموا أوقات المذاكرة، وألا يسرفوا في السهر؛ لأن ذلك قد يجني على صحتهم، ويفوِّت عليهم الغرض المنشود. يقول ذلك بلهجة حازمة ليظهر بمظهر المطمئن إلى أن تلامذته مشغولون بأنفسهم، مَعْنِيُّون بواجباتهم، ويعز عليه أن يصارحهم بأن فريقًا منهم قد يسهر الليل في غير الدرس والتحصيل كما يفعل أكثر تلامذة القرن العشرين!

أعذر من أنذر

ولحضرة المدرس طُرُقٌ عديدة في توجيه أذهان الطلبة إلى الوَعْي والحفظ، منها أنه يقف حين المراجعة وقفة التثبت عند كل نقطة ويقول: «هذه مسألة مهمة جدًّا جدًّا، وأترقب أن تجيء في الامتحان» ثم يأخذ في الشرح والتوضيح والإعادة، ولكنه — مع الأسف — لا ينفك ينصح ويحذر حتى يدرك الطلبة — وأكثرهم أذكياء — أن هذا التشدد ليس إلا وسيلة لإيقاظ أذهانهم، وأنه ليس من المعقول أن تجيء أسئلة الامتحان في جميع مواد المقرر؛ وبذلك يطمئنون إلى أن هذا تهويش أساتذة، ويعاودون الكسل والخمود.

حقول المكرونة

وقد أذكر أن أحد المدرسين الحيارى الذين يدرسون لطلبة الكفاءة سُئِل مرة: لماذا نشأت النُّبُوَّات كلها في الشرق ولم ينشأ نبيٌّ واحد في الغرب؟ فأجاب المدرس بأن ذلك مرجعه طبيعة الأرض، عند ذلك ثار الطلبة قائلين: كيف تُؤَثِّر طبيعة الأرض في ذلك؟ وأراد المدرس الحيران أن يمزح فقال: «ليس معنى ذلك أن الأنبياء ينبتون في آسيا كما تنبت المكرونة في إيطاليا».

ولكنه ما كاد يتم الجملة حتى صرخ الطلبة: هذا محال إن المكرونة تصنع من العجين.

وأراد الأستاذ أن يمضي في النكتة فقال: «من الذي يعلمكم الجغرافيا؟»

– إبراهيم أفندي.

– هل درس لكم جغرافية إيطاليا؟

– نعم!

– وكيف أهمل الكلام عن حقول المكرونة في تلك البلاد؟

– يظهر يا أفندي أنها غير مقررة على طلبة الكفاءة!

ويذكر ذلك المدرس الحيران أن الطلبة اجتمعوا عند فسحة الساعة العاشرة في حديقة المدرسة، وتناولوا المسألة بالبحث والتدقيق، واتضح لهم بعد لأْي أن المكرونة لا تُزرع، إلا أن تكون هناك أنواع جديدة لا يعرفها المصريون!

وبعد أيام من تلك المشكلة وُفِّق أحد أساتذة اللغة العربية إلى حل: ذلك أن حقول المكرونة في إيطاليا صحيحة، ولكنها مجاز، على حد قولهم، رعينا الغيث … والله أعلم بالصواب!

ومن يدري فلعل حقول المكرونة صحيحة أو لعلها أكذوبة لطيفة من أكاذيب إبريل.

شغل مسخرة

وفي أول يوم من إبريل تجمع الطلبة المصريون في مدرسة أجنبية بالقاهرة، ولونوا ملابسهم بالطباشير في خطوط تجمع بين الاستقامة والاعوجاج، وتم لهم ما أرادوا أثناء الدرس في لحظات قصيرة، وتنبه المدرس الحيران فجأة إلى صنعهم، فقال في حدة وانفعال: ما هذا الذي تصنعون؟ فأجاب أحد الطلبة في ابتسام: «ولماذا ينفرد الأجانب بالمسخرة؟»

آمنا وصدقنا! لماذا ينفرد الأجانب بالمسخرة أو الكرنڤال؟ أنكون أقل منهم حتى في هذه الشؤون؟

هذا كلام يقال، ولكن لا تنسوا أيها المخدوعون أن الأجانب يلعبون بعد الجِدّ، أما أنتم فأخشى أن تكون حياتكم سلسلة ألاعيب، ولكنكم لا تشعرون!

القسط الرابع

يعرف كل من اشتغل بالتدريس أن نُظَّار المدارس يراقبون المدرسين مراقبة مستمرة فيما يتعلق بإتمام المقررات، ويرون أن المدرس الماهر هو الذي يتم المقرر بسرعة ليتمكن من إعادته، وكان الطلبة فيما سلف هم الذين يعطلون المدرسين ويَحُولُون بكسلهم دون الإسراع في إتمام المقررات.

والحال في هذا العام يختلف عن الأعوام السالفة أشد الاختلاف، فإن الطلبة الذين سيتقدمون للامتحانات العمومية في مدارس الحكومة خاصة يُلِحُّون إلحاحًا شديدًا في إتمام المقررات، ولكن لا تحسب أنهم يفعلون ذلك جدًّا ونشاطًا، هيهات هيهات! إنهم يفعلون ذلك لينجُوا من دفع القسط الرابع!!

فليلاحظ ذلك معالي وزير المعارف، وليأمر بإضافة جزء جديد إلى مقرر الكفاءة والبكالوريا، قبل أن «يطير» باقي المصروفات!

شعراء إبريل

ومن أوضح الظواهر في شهر إبريل اهتمام الطلبة بقرض الشعر بحيث يصح تلقيبهم بشعراء إبريل: ألم يقل الأقدمون: أعذب الشعر أكذبه؟ وأي وقت أصلح للكذب من شهر إبريل؟!

فإذا رأيت جماعة من الطلبة يتجمهرون في فِناء مدرسة أو في أحد الفصول أو في شارع أو في حارة فاعلم أنهم قد التفوا حول شعرور من الشعارير، والشعارير طبقة حدثنا عنها الجاحظ في كتبه، ولم نعرفها بالعِيان إلا حين تشرفنا بالتعرف إلى شعراء إبريل.

ومن خصائص هؤلاء الشعارير السطو على نفائس الشعر القديم، وأريد به الشعر الذي كان يروج في مصر والشام منذ نحو ثلاثة قرون، فقد انتهب شعرورٌ منهم هذين البيتين:

يا محرقًا بالنار قلب مُحِبِّهِ مهلًا فإن مدامعي تُطفيهِ
أحرق بها جسدي وكلَّ جوارحي واحرص على قلبي فإنك فِيهِ

ثم أخذ يطوف بهما على مدرسي الرياضة أولًا وعلى التلامذة ثانيًا، فكان يقابَلُ بالإعجاب، ثم قاده النَّزَقُ والغرور إلى عرضهما على أحد أساتذة اللغة العربية، وكان ذلك الأستاذ يحفظ أشعارًا كثيرة منها هذان البيتان، فقال للطالب: هذا ليس من شعرك، إنه شعر قديم، فأقسم التلميذ بشرف والده بأن الشعر شعره وأنه تلقاه عن وحي خاطره في ليلة مقمرة وهو يطوف بحدائق الجزيرة بين الشجر والنخيل.

حيوانات

نعود إلى ما يعلل به المدرس الحيران نفسه حين يرى تلامذته كسالى مصروفين عن المراجعة والتحصيل، وعهدي به يتفلسف فيقول: لا خطر ولا خوف، فسينشط هؤلاء التلامذة لواجباتهم حين يقترب الامتحان، أليسوا كسائر الحيوانات يدفعهم تنازع البقاء إلى الكدح في سبيل الغُنْم والنجاح؟ إنهم يتباطأون ويتكاسلون، ولكن مهلًا فالإنسان حيوان لئيم، وسيعرف هؤلاء اللئام كيف يقاومون الكسل فرارًا من شماتة الأعداء.

فإلى الأمام يا أسراب الحيوان الناطق!

الطبيعة والإنسان

رحم الله من قال:

إن الجديدين في طُول اختلافهما   لا يفسدان ولكن يفسد الناسُ

وإنه لمحزن أن نرى الطبيعة تأخذ زينتها في شهر إبريل، على حين يخمد المدرسون والطلاب، والتعليل واضح؛ فإن الطبيعة تستريح في الشتاء ثم تستيقظ في الربيع، أما المدرسون والطلاب فيفنون نشاطهم في أشهر الشتاء، فإذا جاء الربيع وجدهم أجسامًا بلا أرواح.

فهل من منصف حكيم ينقل مواعيد الامتحانات العمومية ليؤديها التلامذة في فصل الشتاء فصل النشاط، بدلًا من تأديتها في أوائل فصل الصيف فصل الخمود؟

الحمد لله

أكتب هذا وأنا أذكر أن إخواني المدرسين قد نجوا من مضايقات الامتحانات المدرسية، ولم يبق إلا أن يتحكموا في مصير الطلاب عند التصحيح، فلينظر الطلبة إلى مصالحهم، وليعرفوا شغلهم، فقد نجونا والحمد لله!

ومن ظفر بإجابة تلميذ فليمزقها طولًا وعرضًا وشمالًا وجنوبًا ولفظًا ومعنًى؛ فقد لقينا منهم ومن زملائهم شعراء إبريل أقصى صنوف العناء!

أيها الطلبة والمدرسون: تعاونوا على قتل هذا الشهر الثقيل، فإن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، والمدرسون والطلاب إخوان تجمع بينهم الكتب والكراريس.

ويرحم الله من قال:

فيم التخاذل في «إبريل» بينكمُ   وأنتمُ يا عباد الله إخوانُ

أول إبريل سنة ١٩٣٢

شواطئ الإسكندرية

بين الهدى والضلال[1]

المصايف المصرية

شغلتني المصايف الفرنسية ستة أعوام عن المصايف المصرية، فعدت لا أعرف إلا قليلًا عما جَدَّ في مصايف هذه البلاد، ثم اتفق أنني أقبلت على مَصِيفي في سنتريس لأظفر بسجعة طريفة فأقول: «من سنتريس إلى باريس ومن باريس إلى سنتريس». كما سافر الصاحب بن عباد عمدًا إلى النوبهار ليكتب إلى أبي الفضل بن العميد فيقول: «أكتب إليك من النوبهار، في وسط النهار»، فالحرص على السجع هو الذي شغلني عن الشواطئ في هذا الصيف، وهو حرصٌ له قيمته عند رجل أُغرِم أعوامًا طوالًا بدراسة النثر الفني في القرن الرابع!

ولكني مع ذلك قضيت أيامًا في الإسكندرية من أواخر أغسطس وأيامًا من أوائل سبتمبر تبينتُ فيها ما جدَّ في تلك الشواطئ التي صُرفتُ عنها منذ سنة ١٩٢٥، ويمكن الحكم بأن تلك الشواطئ أصبحت على جانب من الجاذبية، وهذا غُنْمٌ عظيم لمصر التي أمست مصايفها مهددة بالمصايف الشرقية والغربية حيث يعرف طلاب الرزق في الشرق والغرب كيف يخلبون ألباب المصريين.

[1] للمؤلف كتاب جديد موضوعه «أدب الشواطئ في اللغة العربية» وسيظهر بعد قليل.

مآخذ مزيفة

وقد اهتم فريق من الصحفيين في هذا العام بنقد ما زعموا أنهم شاهدوه في شواطئ الإسكندرية من العبث والمجون، ولأولئك الصحفيين عذر مقبول؛ فهم يريدون أن يقفوا موقف الواعظين يحللون الحلال ويحرمون الحرام في نزاهة وإخلاص، وفاتهم أن نقد ما توهموه في الشواطئ من عبث ومجون كان من أكبر الدعايات لزيارة تلك البقاع، والشر لا يفتن الناس ولا يستهوي ألبابهم إلا حين يُنهَون عنه، وصدق أبو العلاء حين قال:

ألظوا بالقبيح فتابعوهُ ولو أُمروا به لتجنبوهُ

والشواطئ بطبيعتها تذكِّر الإنسان بحياته الفطرية التي غيرتها الشرائع والقوانين، والإنسان حيوان بَرِّيٌّ، ولكن فيه نزعة بحرية ترجع إلى عهده القديم يوم كان لا يسكن إلا شطوط الأنهار وشواطئ البحار، وآية ذلك أنه يتهالك على الماء تهالكًا شديدًا، ويستأنس إذا خاضه، ويجد فيه رَوْحًا لا يجده إذا عاد إلى اليابسة، وهو إذا تعلم السباحة لا ينساها أبدًا ولو تركها عشرات السنين، والسباحة هي العلم الوحيد الذي لا ينساه الإنسان، وفي هذا دليل على أنه في أصل خِلقته حيوان صالح لحياة الماء.

ومن شواهد ما تبعثه الشواطئ من حياة الفطرة الأولى ما وقع هذا الصيف بين إسحق حلمي ووزير النمسا، فقد أراد الوزير أن يعتصم بمنصبه، وهو منصب يعصم صاحبه على البر وهو في الملابس الرسمية، ولكنه إذا وقف على الشاطئ عريانًا لا يستره إلا قميص البحر الشفاف، وأعلن أنه وزير هز الناس أكتافهم وهانت عليهم التقاليد الوضعية؛ لأن الرجل العريان لا يعصمه منصبه ولا جاهه، ولكن يعصمه السلاح الأول الذي يفض المشاكل في الحياة الطبيعية وهو القوة، فلو أن وزير النمسا كان بملابسه وقدم اسمه إلى إسحق حلمي لعرف ملاحظ الشواطئ أن التقاليد الرسمية تعطي الوزير حقوقًا يتميز بها عن سواه، ولكنه نوه بنفسه وبمنصبه وهو عريان، فلم يكن بدٌّ من أن تحيا الطبيعة الأولى التي تقضي لسكان الشواطئ بالمساواة في الحقوق، والشاطئ باب البحر الأعظم الذي لا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا، وإنما يتعرف الناس إليه بما منحتهم الطبيعة من قوة جسمية وجبروت محسوس.

وقد يتفق لزائري الشواطئ أن لا يغضوا أبصارهم عمن يستقبلهم البحر في الضحى والأصيل، أفيظن القارئ أن أعين المتطلعين تتوسم مظاهر الحياة الرسمية فيمن تحمل

الشواطئ؟ هيهات! إن العيون لا تقع إلا على من ميزتهم الطبيعة بميزات حسية، وأعطتهم من ملاحة الشمائل، وسلامة الجوارح، ما يجعلهم أقرب إلى النفوس، وأحب إلى القلوب.

مذهب العري

وهناك سبب مهم من أسباب تطور الحياة في المصايف المصرية لم يفطن إليه أولئك الصحفيون: وهو انتشار مذهب العري، فإن مصر كسائر الأقطار تتصل بالحياة العالمية اتصالًا وثيقًا، وتُنقل إليها المذاهب الأدبية والاجتماعية عن طريق الصحف والمجلات. وكل خبر يُنشر يَتْرُك في الجمهور أثرًا ثم يأخذ في التأصل والاستقرار حتى ينقلب إلى رأي، وكذلك كانت الحال في نشر مذهب العري الذي دافع عنه بعض الألمانيين واضطرت الحكومة هناك إلى مقاومته بالعنف، وأنا لا أقول بأن المصريين أصبح لهم في العري مذهب، لا، ولكني أجزم بأن لشيوع هذه الفكرة أثرًا في التسامح الذي نرى اليوم آثاره في الشواطئ المصرية، وقد رأيت بنفسي شابًّا له قيمة أدبية، وله مستقبل مرموق يحضر إلى شاطئ ستانلي ومعه خطيبته فأظهرتُ له دهشتي فاكتفى بإقناعي بأن خطيبته لا تنزل الماء، وإنما تكتفي بالتفرج على السابحين والسابحات من رواد الشواطئ، ورأيت رجلًا مشهورًا من مدرسي المعاهد الدينية بثياب البحر وهو يغدو ويروح على الرمال، فلما تبادلنا التحيات وهنأته على شجاعته اكتفى بأن يقول: «صلِّ على النبي! لا حد شاف الجمل ولا حد شاف الجمال!» فقلت له: اطمئن فلن أنشر شيئًا من أخبارك.

مُنجِّم جديد

هذا المنجم أو الساحر الجديد هو أديب أعرفه كما أعرف نفسي، ذهب إلى شاطئ ستانلي في يوم الأحد الماضي، وأخذ يتنقل من عش إلى عش ومن مظلة إلى مظلة حتى عثر ببعض معارفه هناك، وكان فيمن يعرف فتاة هيفاء أسيلة الخد مشرقة الجبين، فرمى نفسه رميًا تحت مظلتها، فقدمت له كرسيًّا صغيرًا جلس عليه، واضطجعتْ تلاعب حبات الرمل على الشاطئ المأهول.

جلس صاحبنا لحظات يتأمل فيها صنع الله، ويمد عينيه بشرهٍ صارخ إلى ما يعمر الشاطئ من أسراب الملاح، ثم بدا له أن يدرس بعض طبائع الحسان فزعم أنه ساحر،

وأنه يعرف ما استتر في عالم الغيوب، وتقدم إلى تلك الهيفاء يسألها أن تسمح بأن «يشوف بختها»، فمدت له يدها في رفق، فوضع مقدارًا من الرمل وتمتم بكلمات قصيرة، ثم ألقى الرمل على الأرض، وشرع ينجِّم على الطريقة الهندية، وفي تلك اللحظة مر منجم هندي يعرفه جميع المصطافين في شواطئ الإسكندرية، فصاح صاحبنا الأديب: «ماذا يصنع هنا هذا الهندي النصاب؟ هاتوه لأختبره، وليرى الملأ من المصطافين أيُّنا أعرف بضروب السحر، وأينا أهدى إلى كشف الغيوب».

وكان مع المنجم الهندي رفيقٌ يفهم العربية؛ فلخص له هذا التحدي، فانفتل الهندي مسرعًا لئلا يفتضح أمره، واعتذر بأنه لا يحسن «ضرب الرمل» وإنما يحسن قراءة «الكف» فصاح صاحبنا الأديب: «وأين تعلم هذا الجلف قراءة الكف؟ هاتوه لأختبره، فقد تلقيت هذا الفن عن كبار الأساتذة في جامعة باريس، وسأريكم أنه نصاب محتال!»

وما كاد ينتهي هذا المنظر حتى هرب الهندي وغاب شبحه عن الأبصار، وجلس صاحبنا الأديب جلسة الظافر المنتصر وقد التفت حوله حسان الشاطئ يقصصن عليه ما وقع لهن مع ذلك الخدَّاع، واستوى صاحبنا على عرش السحر وحوله نطاق من الغواني المضطجعات على الرمال.

وقد رأيت أن أستمتع بهذا المنظر، وأن أرسم بعض ما راقني من صوره الروائع، وإني لأذكر أن إنسانة تقدمت إلى ذلك الأديب وقالت في حنان: «من فضلك شوف لي بختي يا سيدي البيه؟»

فأخذ كفها يقرأ خطوطه، ثم مسح نظارته وأحكم وضعها على عينيه لئلا يفوته شيء من أسرار تلك الخطوط، ثم ابتدأ يقول:

المنجِّم: اسمعي يا ستي! أنا لا أقول إلا الحق، فإن آلمكِ شيء مما أقول فاصبري فلست ممن يموهون الكلام استدرارًا للمال!

الحسناء: اسم الله على مقامك يا سيدي البيه، قل ما تشاء!

المنجم: أنا لا أقول ما أشاء، وإنما أشرح ما يوحي به الرمل!

الحسناء: هل يوحي الرمل بما يوجب هذا التحفظ؟

المنجم: اطمئني! إن الرمل يحدثني بأن «لك ناس: في الوش مراية، وفي القفا سلاية».

الحسناء: والنبي صحيح يا سيدي، جاهم لهو خفيّ!

المنجم: ويحدثني الرمل أيضًا يا ستي بأن قلبك مشغول.

الحسناء: قلبي مشغول؟ أبدًا أبدًا، قل غير هذا الكلام!

المنجم: ليس من شأني أن أفتري عليك، إن الرمل يؤكد أن قلبك مشغول.

الحسناء: كل واحد في الدنيا قلبه مشغول.

المنجم: ولكن شغلك أنت يا ستي خطرٌ جدًّا، ولو سمحتِ لبحت لك بشيء منه.

الحسناء: ما هو هذا الشغل؟

المنجم: هناك إنسان يحبك وأنت لا تحبينه، وهناك إنسان تحبينه ولكنه لا يزال طفلًا لا يعرف الحب!

(وهنا تتنهد الحسناء فيضحك الحاضرون جميعًا ويلقون على المنجم نظرات الإعجاب.)

الحسناء: كل المنجمين يتكلمون على الحب؟!

المنجم: نعم، ولكن أكثرهم يفترون، أما أنا فلا أتكلم في الحب بغير الحق، ولا أقول غير الصدق، ولست أفتري، إنما أشرح ما يوحي به الرمل.

الحسناء: قد يكذب الرمل أحيانًا.

المنجم: أنا معك في أن الرمل قد يكذب؛ ولكنه يتهيب الكذب في حضرة الفلاسفة.

الحسناء: وأنت فيلسوف؟

المنجم: فيلسوف عظيم!

الحسناء: وماذا توصي به لصرف شواغل الحب يا سيدي الفيلسوف؟

المنجم: أمرك وأمري إلى الهوى: يا بنت أفروديت![٢]

٩ سبتمبر سنة ١٩٣٢

[٢] لهذا الحوار صورة ثانية في كتاب «ليلى المريضة في العراق».

مضبطة مجلس الشعراء

اجتمع فريق من الشعراء في مساء الجمعة الماضي بدار لجنة التأليف والترجمة والنشر، وتحدثوا طويلًا ثم رأوا أن يذيعوا بعض القرارات التي انتهى إليها ذلك الاجتماع، وفي صباح السبت ظهرت جريدة الأهرام وفيها خلاصة لقراراتهم، وفي مساء السبت نفسه ظهرت جريدة البلاغ وفيها خلاصة من القرارات تغاير ما نشر في جريدة الأهرام، فأي الصورتين أصح؟ ما نشرت الأهرام؟ أم ما نشر البلاغ؟

لقد أخذتني الحيرة حين فوجئت بالتناقض بين الروايتين، وندمت مُرَّ الندم على أن فرطت في تدوين تلك الأحاديث، وكنت من الشاهدين، وعدت أتوسل إلى ذاكرتي أن تملي عليَّ صورة صحيحة تفصل بين رواية الأهرام ورواية البلاغ، ولكن ذاكرتي خذلتني هذه المرة، وأسرفَتْ في البخل والتَّمَنُّعِ، فعزمت على أن أنظم صورة جديدة لمناقشات الشعراء، ولكني خفت أن يتهموني بصنع الأقاويل، وأن يذيعوا في الجمهور أن من عادتي خلق الأحاديث، وقد اتهموني أمس ظلمًا بأني افتريت على التاريخ حين تحدثت عن كتاب شيث بن عريانوس، رحمة الله عليه، وأنا رجل يظلمه معاصروه، أقضي سواد الليل وبياض النهار في البحث والدرس، فإذا جئت أنشر نتيجة ما بحثتُ وما درستُ قام السفهاء فعارضوا وتلوَّموا وأسرفوا في الزُّور والبهتان، وقد بلغ بهم الإفك أن أفسدوا بيني وبين صديقي (أبجد أفندي)، وهو رجل مطلع كنتُ أفزع إليه أستعينه كلما عجزت عن إعداد ما أقدمه للقراء.

ماذا أصنع؟ يا لله من بُخل الخيال! ويا لله من هرب الحقائق!

لقد اجتمع الشعراء وانفضوا، ثم اختلفت عنهم الأحاديث، فما هو الزائف وما هو الصحيح؟

لا تنزعج أيها القارئ، فقد هداني الله صباح الأحد إلى طريق الخلاص ... تذكرت أن عندي ورقة من أوراق السّحر، تلقيتها في العام الماضي من أحد المتأدبين، وهو شابٌ ورث عن جده مكتبة عظيمة أكثرها مخطوط، وكان ذلك الجد من كبار العلماء، والورقة فيها «فائدة» مهمة تنفع في استدراك ما ندَّ من جَيِّد الأحاديث، ونصها بالحرف:

> إذا أردت أن تتمثل حديثًا ضاع من ذاكرتك فخذ قليلًا من ماء الزعفران ورشّه على كاغد أبيض، ثم اقرأ الصمدية والمعوذتين سبع مرات بصوت مرتفع في المكان الذي وقع فيه الحديث، ووجهُك تجاه الكعبة المشرَّفة، بحضور قلب، ثم اطوِ الورقة نحو ساعة، وانشرها بعد ذلك تجد الحديث بحروفه، وهذا مجرب صحيح، وبالله التوفيق.

قرأت هذه «الفائدة» وضحكت، ثم قلت: ما عسى أن يظن القراء إذا فاتحتهم بهذه الخرافات! ورأيت أخيرًا أن «أجرب» فقد تكون «ظنون» الأولين أصدق من «علوم» المتأخرين.

ولكن كيف أذهب إلى لجنة التأليف من دون مناسبة؟ وكيف أحمل الكاغد وماء الزعفران؟ وكيف أقرأ الصمدية والمعوذتين بصوت مرتفع في لجنة التأليف وأعضاؤها قوم يبالغون في نصرة الجديد، وأكثرهم أعداء لكل قديم، وبخاصة ما يتعلق بأمثال هذه «الفوائد» السحرية؟ وكيف أستطيع أن أقوم بهذه التجربة؟ لقد كنت أُحسنُ ذلك قبل أن أعرف «بونجور مدموازيل» و«بونسوار مدام» أيام كنت أؤدي الفرائض والنوافل في طاعة وإخلاص!

لم تنص «الفائدة» على الوعاء الذي يُحمل فيه ماء الزعفران، فوضعته في قلم «واترمان» ومضيت عصر الأحد إلى لجنة التأليف وأنا أسأل الله أن لا أجد من يضايقني هناك، وطال تفكيري في السبب الذي أصل به إلى مكان اجتماع الشعراء: أأسال عن الأستاذ أحمد أمين؟ وكيف ونحن جيران ومع ذلك لا نتبادل المودَّات والزيارات حتى أتلمس أخباره بين القاهرة وهليوبوليس؟!

وصلت إلى دار اللجنة فسألت عن الدكتور عبد الوهاب عزام، فأجاب كاتب اللجنة: موجود، ولكن لا يستطيع مقابلتك في هذه اللحظة؛ لأنه في خلوة يقرأ ورد الشاهنامة، فحمدت الله (في سري) على هذا التوفيق وقلت: أنتظره حتى ينتهي من قراءة الورد، ودخلت في نفس الغرفة التي اجتمع فيها الشعراء، وغاب عني اتجاه القبلة، ثم افترضت

أنها قد تكون ناحية بنك عمر أفندي، واستفدت من غفلة الكاتب فألقيت ماء الزعفران على الكاغد، ورفعت صوتي بتلاوة الصمدية والمعوذتين، وفاجأني الدكتور عزام على هذه الحال فقال: ما خطبك أيها الزميل؟ فقلت: لما صادفتك تقرأ ورد (الشاهنامة) رأيت أن أقرأ ورد (النثر الفني) فابتسم وجلسنا نتحدث عن التأليف والمؤلفين.

عدت إلى بيتي وفضضت الكاغد وأنا أحسب الحكاية خرافة، ولكن دهشتي كانت عظيمة جدًّا حين رأيت أحاديث الشعراء مسطورة جملة جملة في وضوح عجيب، وما كدت والله أصدق بصري، لغرابة الأمر وطرافته وظهوره بهذه الفتنة في القرن العشرين، وستكون هذه (الفائدة) موضوعًا لأحاديث الناس، ومن المحتمل أن يهتم بها رئيس مجلس النواب، فإنها إن نجحت هناك فستكون بابًا من الاقتصاد، وقد يُستغنَى بها عن جميع كُتَّاب السجلات في المصالح الأميرية، وقد تنتقل إلى ممالك الشرق والغرب فتوفر من الوقت والمال ما لا يعلم قيمته إلا أهل الخبرة من رجال الاقتصاد.

وإلى القارئ نص ما جاء في (الورقة السحرية) من أحاديث الشعراء:

محمد الهراوي: لا أحب أن أقول: (فتحت الجلسة) فإنها عبارة مبتذلة، فاسمحوا لي أن أقول: «نُظِمت المشعرة» فهل توافقون على ذلك؟

زكي مبارك: نقبل صدر الجملة، ونترك لك «المشعرة» تلهو بها كيف تشاء.

محمد الهراوي: كما ترون، الموضوع وما فيه أن …

عبد الباقي إبراهيم: عبارة «الموضوع وما فيه» من رطانة المصاطب!

محمد الهراوي: أصل القصة أنني كنت أحب أن نقيم موسمًا للشعر في عيد الهجرة، ثم رأى الأستاذ عبد الله عفيفي أن يكون موسم الشعر في المولد النبوي.

محمد الأسمر: وما الصلة بين الشعر وبين المولد النبوي؟

محمد الهراوي: الأستاذ عبد الله عفيفي سَجَّل هذه المسالة في الجرائد، فأصبحنا مرتبطين بهذا التسجيل.

زكي مبارك: الخطب سهل، يسجِّل الموعد مرة ثانية بصيغة أخرى، وهل كان التسجيل الأول عقدًا يجب الاحتفاظ به؟ إنما هو اقتراح قابل للتعديل.

محمد الهراوي: أنا أرى التقيد بما سجله الأستاذ عبد الله عفيفي في الجرائد، اشرح يا سيد عبد الله وجهة نظرك.

عبد الله عفيفي: العفو يا سيدي، الرأي لكم.

محمد الأسمر: أدعوتمونا للمشاورة؟ أم دعوتمونا لنسمع ونطيع؟

محمد الهراوي: معاذ الله أن نخرج على أدب الحديث.

محمد الأسمر: أدب الحديث يفرض أن تأخذوا رأي من دعوتموهم، وأنا أسألكم أولًا: ما هي المناسبة بين موسم الشعر وبين المولد النبوي؟

عبد الله عفيفي: مولد النبي هو أنسب المناسبات للمواسم الشعرية.

محمد الأسمر: أنا لا أرى ظلًّا لهذه المناسبة.

زكي مبارك: لا ترى ظلًّا لهذه المناسبة! وكيف؟ أما قرأت قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ إن في هذه الآية ما يربط بين الشعر وبين المولد النبوي بأوثق رباط.

عبد الجواد رمضان: هذا لا يصح إلا إذا قلنا (بعلاقة الضدية).

محمد مصطفى الماحي: علاقة الضدية؟ يعني إيه علاقة الضدية؟

عبد الباقي إبراهيم: هذا كلام يفهمه الشعراء الأزهريون.

محمد مصطفى الماحي: سأدرس هذه المسألة غدًا مع بعض الأساتذة في وزارة الأوقاف.

عادل الغضبان: إن الدكتور مبارك يمزح.

زكي مبارك: لا، يا أفندي، أنا لا أمزح، وكلُّ من قرأ القرآن يفهم أن رأي الرسول في الشعراء رأيٌ جميل، وانظروا قوله عز شأنه: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ❁ أَلَم تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ❁ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

عبد الجواد رمضان: لا تترك منزعك في التهكم والسخرية، يا أستاذ مبارك!

زكي مبارك: لقد أفسدتم الجو من حولي بسوء الظن، فاتقوا الله أيها الناس، أنا لا أسخر ولا أتهكَّم ولا أداعب، إنما هي حقائق نسوقها لمن يعقلون.

عبد الباقي إبراهيم: يجب أن يكون البحث خاصًّا بالشعر من حيث هو.

محمد الأسمر: وأن يُسَمَّى الموسم سوق عكاظ، وأن يكون في أول ذي القعدة.

عبد الله عفيفي: ما لنا ولسوق عكاظ؟ نحن نتكلم عن الشعر المصري.

زكي مبارك: أرجوكم أن لا تقولوا الشعر المصري؛ فإن هذه العبارة تجرح إخواننا في مختلف الأقطار العربية. قولوا: (الشعر العربي) حرصًا على أخوة أهل المغرب والحجاز والشام والعراق.

عبد الله عفيفي: وهو كذلك.

محمد الماحي: وأين نقيم في موسم الشعر؟

عبد الجواد رمضان: في الأزهر الشريف.

زكي مبارك: أرى أن يقام الاحتفال في سرادق وزارة المعارف بساحة المولد النبوي.

عبد الجواد رمضان: ساحة المولد لا تنفع؛ لأننا نريد أن يسمعنا الوزراء، وشهود المولد أكثرهم رعاع.

عبد الله عفيفي: اطمئنَّ، فسيسمعنا الوزراء في ساحة المولد؛ لأنه سيكون يوم عطلة رسمية، والوزراء سيكونون جميعًا هناك.

محمد الماحي: من يضمن؟ إن الوزراء يحضرون لحظة قصيرة عصر يوم المولد ثم ينصرفون.

زكي مبارك: لا أرى ما يوجب الحرص على التشرف بحضور الوزراء، والواجب أن يكون عملنا في سبيل الله، لا في سبيل المظاهر الرسمية.

عبد الباقي إبراهيم: نحن نعمل في سبيل الله؟ قل غير هذا، أيها الصديق! لو كنا نعمل في سبيل الله لما دعونا مندوب البلاغ ومندوب المقطم ومندوب الأهرام.

محمد الهراوي: نحن دعونا مندوبي الجرائد بصفتهم الشخصية، فإن فيهم الكاتب والشاعر والخطيب.

محمد خالد: هل معنى هذا أنكم لا تريدون أن تُشيد الصحف بأعمالكم؟ وهل تستطيعون أن تعفونا من الكتابة عنكم؟ أخشى أن تكونوا مازحين!

محمد الهراوي: نحن نعوذ بالله من شياطين الصحفيين، واشهدوا جميعًا أني أرجو صديقنا الدكتور زكي مبارك أن لا يكتب شيئًا من هذه الأحاديث في البلاغ، فإن قلمه معروف بالشطط والجموح، وأخشى أن يثير فتنة قبل أن نمضي في هذا المشروع الجليل.

زكي مبارك: لن أكتب عنكم حرفًا في جريدة البلاغ، ومن حقكم على أخيكم أن يطمئنكم من هذه الناحية، وما أذكر أني وعدت يومًا فأخلفت، وسترون صدق ما أقول.

محمد خالد: ما دمتم تعملون في سبيل الله، لا في سبيل الشهرة، فما الذي يمنع من الانضمام إلى جمعية أبوللو والتعاون مع الدكتور أبي شادي.

محمد الأسمر: هذه مسألة أخرى.

زكي مبارك: أنا أؤيد اقتراح الأستاذ محمد خالد.

محمد خالد: أنا لست بشاعر، ومع ذلك أعطف على مجلة أبوللو؛ لأنها تخدم الشعر خدمة صادقة.

محمد الأسمر: أنا أحب أن تسمى جمعيتنا (عكاظ)، وأن يكون موسمنا أول ذي القعدة، وأن نترك مسألة المولد النبوي؛ لأن الشعراء فيهم المسلم والمسيحي، والمولد يفرض أن تكون أشعار الموسم كلها إسلامية، وفي هذا حجر على الشعراء المسيحيين.

عبد الله عفيفي: ما الذي يمنع المسيحي من أن يقول شعرًا في المولد النبوي؟ إن أشعار شوقي نصفها قيل في المسيح.

زكي مبارك: نصف أشعار شوقي قيل في المسيح؟ ما كنت أعرف ذلك من قبل!

عبد الله عفيفي: أعني أنه قال كثيرًا في المسيح.

محمد الأسمر: جمعيتنا يجب أن تُسمى عكاظ، وأن يكون موسمها في أول ذي القعدة، وأن تترك الذكرى النبوية على ناحية.

عبد الله عفيفي: إن المولد النبوي تذكي ذكراه قرائح الشعراء.

زكي مبارك: كيف ذلك وملاحدة الإسلام كانوا جميعًا من الكُتَّاب والشعراء.

عبد الله عفيفي: أنا لا أوافق على ذلك، وعلى الأخص في عصر النبوة.

زكي مبارك: وأنا أؤكد لك أن الشعراء والكتاب ابتدأوا إلحادهم في عصر النبوة، ولك أن ترجع إلى رسائل الجاحظ لترى صحة هذا الاتهام.

محمد الهراوي: الشعر الصحيح يعاون الدين.

زكي مبارك: هذا كلام تسترون به زيغكم، يا معاشر الشعراء، ولو رآكم رسول الله لساقكم إلى السجن.

عبد الله عفيفي: أنت على هذا تمنع أن يجتمع الشعر والدين؟

زكي مبارك: أنا أقول في صراحة: إن الدين يدعو إلى النظام، والشعر يحرِّض على الثورة، والرسول كان على حق حين حارب الشعراء؛ لأن أكثرهم من أشياع الطيش والمروق، والصالح منهم قليل.

محمد الهراوي: وما رأيك في القصائد التي نشرتُها في البلاغ؟ أتذكر القصيدة القفطانية:

قل للشباب المسلمين تحيةً — من مسلم ثَبْتٍ على إيمانِهِ
ويزيده في الله حسن عقيدةٍ — ما جرَّه الإلحاد من خسرانِهِ
فَخُذُوا سبيل الدين فهو كفيلكم — ليرد سيل الغرب عن طغيانِهِ
فالدين للدنيا وللأخرى معًا — وسعادة الدارين في قرآنِهِ

زكي مبارك: هذه القصيدة وأمثالها شاهد على إلحادك: فالشعراء ملحدون بين المؤمنين، وأنت ملحد بين الشعراء!

محمد خالد: لم نتفق على شيء في أساس الموسم الشعري.

محمد الهراوي: اسمعوا ما يقوله الدكتور طه حسين: إنه يوصي بأن لا يخرج الشعر عن السيرة النبوية، وأن تحتكر مجلة الرسالة نشر ما ينظمه الشعراء.

عبد الباقي إبراهيم: وما شأن الدكتور طه حسين بالمولد النبوي؟

زكي مبارك: شأنه شأن سائر المسلمين.

عبد الباقي إبراهيم: أنا أخشى أن يتحول الدكتور طه حسين إلى صفوف الرجعية.

محمد الماحي: وهل الشعر في الدين رجعية؟

عبد الباقي إبراهيم: إذا قيل عن إخلاص فليس برجعية، ولكنه إذا قيل حبًّا في حسن السمعة لدى الجمهور فهو أسوأ من الرجعية.

زكي مبارك: مسكين الدكتور طه! إن شك في بناء الكعبة فشكه إلحاد، وإن دعا إلى قصر الشعر على ذكرى المولد النبوي فدعوته رياء! وسبحان مقسم الحظوظ!

عبد الجواد رمضان: اتفقنا على أن يكون الموسم الشعري منفصلًا عن المولد النبوي.

محمد الأسمر: وهل يمكن غير ذلك؟ إن موضوعات الشعر عديدة، وقَصْرُها على ذكرى المولد يضيِّق المجال أمام الشعراء، وكيف يكون الحال لو قُدِّمَتْ إلينا قصيدة جيدة في غَزَل المذكَّر؟ أنرفضها رعايةً للمولد؟ أم نقبلها ونعرض أنفسنا لسخرية المتزمتين؟

محمد الماحي: ما دمنا اتفقنا على غض النظر عن مناسبة المولد فلنتخير موسمًا أنسب من فصل الصيف.

عبد الباقي إبراهيم: ليكن ذلك في مشرق الربيع.

محمد الأسمر: في أول ذي القعدة، في أول ذي القعدة، كما كانت التقاليد في سوق عكاظ.

أحد الحاضرين: اسمعوا إن شئتم محضر الجلسة: «اجتمع لفيف من الشعراء ...»

محمد الأسمر: اشطب كلمة (لفيف)؛ فهي تذكِّرنا بطلبة الملحق.

محمد الهراوي: اكتب: «اجتمع رهط من الشعراء».

زكي مبارك: اشطب كلمة «رهط» فإنها غير شعرية.

عبد الجواد رمضان: اكتب: «اجتمع جمهور من الشعراء».

عبد الباقي إبراهيم: «اكتب جمهرة».

محمد الهراوي: اكتب: «اجتمعت جمهرة من الشعراء وقرروا إقامة موسم الشعر في المولد النبوي».

محمد الأسمر: نحن لم نقرر ذلك، بل قررنا أن يكون موسم الشعر منفصلًا عن المولد.

عبد الله عفيفي: وما الذي يمنع أن يكون متصلًا بالمولد؟

محمد الأسمر: إن اتصاله بالمولد يشرفنا كل التشريف، ولكنا لا نريد الخلط بين الشعر والدين.

محمد الهراوي : وقررت الجماعة إقامة حفلة فرعية لإحياء المولد النبوي.

محمد الأسمر: ولا هذا أيضًا، فإننا لم نقرر شيئًا من ذلك، وحاشاكم أن تكذبوا على الشعراء الذين انصرفوا قبل أن تُكتب صيغة محضر الجلسة، وليس من الحكمة أن تضطرونا إلى التكذيب في الجرائد فيقول الناس: «أول القصيدة كفر».

محمد الهراوي: «اجتمعت جمهرة من الشعراء، وقرروا إقامة موسم للشعر يدعى إليه أقطاب الأدب في البلاد العربية. وسيجتمعون في المرة المقبلة يوم ٢٦ مايو».

أما بعد: فهذه هي الصورة الصحيحة لمضبطة مجلس الشعراء كما جاء في (الورقة السحرية)، ومنها يتبين الفرق بين رواية الأهرام ورواية البلاغ.

١٩ مايو سنة ١٩٣٣

عند حلمي باشا

القراء يعرفون أن هناك جمعية حديثة أُلفت لإقامة (موسم الشعر)، وأن أول صوت رُفع لتأليف هذه الجمعية كان صوت الأستاذ محمد الهراوي، ويعرف القراء كذلك أن هذه الجمعية مكوَّنة من عناصر مختلفة تجمع بين القديم والحديث في فهم الشعر ودرسه وقرضه، وقد شهدنا الاجتماع الأول وقدمناه للقراء ممثلًا في (مضبطة مجلس الشعراء)، واتفق أن شُغِلْنَا عن حضور الاجتماع الثاني فتألفت اللجنة التنفيذية في غيبتنا، وحيل بيننا وبين متابعة هذه الظاهرة الأدبية، فلما جاء موعد ذهاب اللجنة التنفيذية لشكر وزير المعارف على رعايته لموسم الشعر قدرنا أن سيكون في هذه المقابلة كلام وحديث، وأن وزير المعارف سيتكلم عن الشعر والشعراء والعلم والتعليم، فاستأْذَنَّا معاليه في حضور هذه الجلسة القصيرة لنستطيع متابعة ما يجري من مختلف التيارات الأدبية، ففي ذلك نفع لمحرر النقد الأدبي الذي يهمه أن يقف بنفسه على بواعث التطور في الأدب الحديث.

وقف الأستاذ خليل مطران فألقى كلمة طيبة في شكر وزير المعارف، وتقبلها الوزير بأحسن القبول.

اختلال الموازين الأدبية

واندفع معالي الأستاذ حلمي عيسى باشا يتكلم بقوة عن وجوب العناية بتوجيه النثر والشعر وجهة صالحة، ومن رأي معاليه أن الموازين الأدبية اختلَّت أشنع الاختلال، وأصبح الشعر فوضَى لا يعرف الشبان ما قديمُه وما حديثُه، ولا يدرون كيف يكون النَّظْم الجيد وكيف تكون الأساليب المختارة، فمن الناس من يدعو للقديم ومنهم من

يدعو للجديد، وأولئك وهؤلاء لا يبيِّنون بالتحديد ما هي العناصر التي يجب استبقاؤها من التراث القديم، وما العناصر التي يجب أن تُضاف إلى الأدب الحديث، وأن الشبان منذ عشرين عامًا كانوا يعيشون في ظلال نماذج أدبية مستقرة يبنون على أساسها كيف شاءوا، أما شبان اليوم فيقفون حيارى مترددين بين مذاهب القديم والجديد، ولهذه الحيرة وذاك التردد خطر في تكوين شباب هذا الجيل.

مجلة لدرس الشعر

وأشار معاليه إلى رغبته في إنشاء مجلة خاصة بالدراسات الشعرية يشرف على تحريرها أساتذة إخصائيون، وتكون هذه المجلة أداة لنشر الآراء الحصيفة التي تُحِبُّ وزارة المعارف أن تذيعها بين المدرسين والطلاب، وأنه يرجو إذا صحت هذه الأمنية أن تقدم مصر للأقطار العربية طلائع جديدة لنهضة الأدب الصحيح.

المجلات الأدبية العتيدة

وعرض معاليه للغذاء السيئ الذي يتلقاه التلامذة عن بعض الصحف الأسبوعية، وهو يرى أن بعض المجلات تُكتب بلغة رديئة ممسوخة، وتنشر آراءً سقيمة مدخولة، ثم وازَنَ بين العهدين: العهد الذي كان فيه معاليه طالبًا، والعهد الذي يحياه تلامذة اليوم، وبَيَّنَ أن المجلات لعهده كانت قليلة جدًّا، وأن الصحف اليومية كان اهتمامها بنشر الأدب ضئيلًا، ولكن الأساتذة في ذلك العهد كانوا يوصون تلاميذهم بدراسة أصول الأدب القديم، مثل نهج البلاغة والأمالي والعقد الفريد، وبالرغم من صعوبة تلك المؤلفات كان الطالب يستفيد منها، ويسير روحُها إلى أسلوبه من حيث لا يحتسب. أما تلميذ اليوم فيجد من يُفهمه بسوء نية أن الأدب القديم دالت دولته، وأن المرجع إلى الأدب الحديث، فإذا فكر في متابعة الأدب الذي دعوه إليه وجده في الأغلب مقالات تافهة المعنى ضعيفة الأسلوب، هذا إن كان بلغ سن الفهم والإدراك، أما أكثر التلامذة فيقرأون تلك الصحف السخيفة وهم يتوهمون أنها لا تنفث إلا سحر البيان، ونحن لا نخشى عادية تلك الصحف على الشبان الناضجين الذين يميزون بين الغث والثمين، ولكننا نخاف أشد الخوف على الناشئين الذين لا يفرقون بين الزائف والصحيح، ويرون محرري الصحف أساتذة في جميع الأحوال، مع أن فيهم من لا يصلح أن يكون تلميذًا فضلًا عن أن يقف موقف

الأستاذ، ولو أن هذه الصحف السخيفة وجدت منذ عشرين أو ثلاثين عامًا لكان خطرها يسيرًا؛ لأن القراء كانوا قليلين، أما اليوم فقد بلغ المصريون خمسة عشر مليونًا، وانتشر التعليم، وكثر القراء، وبذلك صار شر الصحف العابثة مضاعَف الإفك والفتك بالعقول والأخلاق.

الدكتور أبو شادي: ألا ترى معاليكم أن تكون وزارة المعارف هي التي تهيمن على التصريح بصدور المجلات الأدبية، فإنها حينذاك تستطيع أن تشترط الضمانات الصالحة لترقية الأفكار والأساليب؟

حلمي باشا: هذه مسألة لا نعرض لها الآن، ومن رأيي أن خير الطرق لقتل المجلات السخيفة هو النهوض بالمجلات الجدية التي تنشر العلوم والآداب والفنون. والشر يندحر إذا هاجمه الخير، فخذوا بيد الفضيلة، وادعوا إليها في قوة وإخلاص، وسترون كيف تنهزم جيوش الرذيلة، وكيف يتوارى الهازلون. ومن أجل هذا أدعوكم إلى مضاعفة الجهد في نشر الأدب الصحيح؛ فإن هذا هو السبيل لحماية الشبان من عبث اللاعبين باسم الآداب والفنون.

جناية عوام الممثلين

ولم يقف وزير المعارف عند جناية الصحف الهزلية التي تكتب بلغة ضعيفة في موضوعات سخيفة، بل انتقل إلى عوامِّ الممثلين الذين يملأون الروايات بالرطانة العامِّيَّةِ، ويرى في ذلك تضييعًا لجهود أساتذة المدارس، فإن التلميذ يتلقى في المدرسة لغة، وفي المسرح لغة، وما يتعب المدرس في تقويمه صباحًا، يبدده الممثل مساءً، والتلميذ ضائع بين هذا وذاك، ومن رأي معاليه أنه يجب أن يكون المسرح مكمِّلًا للمدرسة، ومن أجل هذا تقصر الوزارة إعانة المسرح على الروايات الفصيحة التي تساعد على تنمية جيد الأذواق والأساليب.

في الجامعة المصرية

حلمي باشا: وفي سبيل الحرص على تقوية اللغة العربية أشرفت بنفسي على وضع لائحة كلية الآداب، ووضعنا مادة تنص على أن رسائل الدكتوراه لا تكون إلا باللغة العربية.

الحاج محمد الهراوي: بارك الله فيك يا مولاي!

زكي مبارك: هذا في كلية الآداب، أما كلية الطب وكلية العلوم وكلية الحقوق؟

حلمي باشا: في هذه الكليات الثلاث للطالب الحق في أن يقدم رسالة الدكتوراه بلغة أجنبية.

زكي مبارك: وما الحكمة في ذلك يا معالي الوزير؟

حلمي باشا: الحكمة هي أننا نبادل الجامعات بالرسائل، ومن المستحسن أن تكون بلغة أوربية ليعرفوا بعض ما عندنا من التفوق في دراسة العلوم والقوانين.

زكي مبارك: ونحن أيضًا نبادلهم بالرسائل التي تثمرها كلية الآداب، فما الحكمة في أن رسائل الآداب هي التي لا تكتب بغير العربية؟

حلمي باشا: أنت مُتعِب، يا أستاذ مبارك، اتركني أتكلم، من فضلك!

زكي مبارك: يستحيل أن أُضيِّع هذه الفرصة، إن معالي الوزير يعلم أن الجامعات في الأمم الحية لا تكتب رسائل الدكتوراه بغير اللغة الوطنية، فإذا تحذلق أحد طلبة الحقوق مثلًا وكتب رسالة الدكتوراه باللغة الإنجليزية وبُعثتْ رسالته إلى إحدى الجامعات كان أول ما يخطر بذهن من يتلقاها أنها قادمة من بلاد الإنجليز، أو من إحدى المستعمرات الإنجليزية.

حلمي باشا: ما أظن!

زكي مبارك: يا معالي الوزير، أتمم صنيعك، وضَع هذا الحجر بيدك في أساس الجامعة المصرية، إن كتابة رسائل الدكتوراه بلغة أجنبية تفتح بابين من الشر، فهي أولًا عنوان التسامح في القومية، وهي ثانيًا مضيعة لنشر نتائج البحث بين قراء العربية.

حلمي باشا: سنفكر في ذلك.

زكي مبارك: ولغة التعليم في كلية الطب وكلية العلوم: ألا يرى معالي الوزير أنه يجب أن يكون التعليم في هاتين الكليتين باللغة العربية؟

حلمي باشا: أنا أفضل أن يكون بلغة أجنبية؛ ليساعد على تَمَكُّن الطلبة من نواصي اللغات الحية، فإن الطلبة عندنا يجهلون اللغات الأجنبية جهلًا شائنًا، والوسيلة النافعة لتقويتهم في اللغات الحية هي أن تكون لغة الدرس في الكليات.

الأستاذ محمد الههياوي: وما رأي معاليكم في أن الطلبة عندنا يجهلون اللغة العربية كما يجهلون اللغات الأجنبية، وأن الميل إلى التأليف باللغات الأجنبية سببه الضعف عن التأليف باللغة العربية؟

حلمي باشا: أعرف ذلك جيدًا، ولهذا فرضت على أعضاء البعثات أن ينشروا أبحاثهم باللغة العربية؛ ليرتاضوا على التأليف بلغة البلاد، وليدلوا مواطنيهم على قيمة ما استفادوه من الدراسة في الخارج، وقد خصصنا مبلغًا من المال لإعانة أعضاء البعثات على نشر أبحاثهم باللغة العربية.

الأستاذ محمد الههياوي: ألا ترى معاليكم أن من أسباب ضعف الطلبة أن مناهج التعليم مناهج آلية؟

حلمي باشا: المناهج ليست آلية، فهي كسائر المناهج في العالم، والطلبة هم الذين يتلقونها بطريقة آلية؛ لأن الروح السائد في مصر يعوق دون وصولهم إلى المنازل الرفيعة في الدراسات العلمية والأدبية والفنية … الجوُّ المدرسي جوٌّ علميّ، والأساتذة في الأغلب متمكنون من علومهم، ولو حضرت دروسهم لوجدتهم على شيء، ولكن الطالب حين يخرج من المدرسة لا يجد من بيئته ما يذكِّره بأعماله المدرسية، ولا كذلك الطالب في الأمم الغربية؛ فهو هناك في جوّ مشبع بآثار العلم والأدب والفن، وهو حيث اتجه يجد ما ينمِّي عنده ما تلقَّاه في يومه من مختلف الدروس، فأصلح البيئة الاجتماعية أولًا في مصر ثم عد إلى المدارس فطالبها بما تشاء من وجوه الإصلاح.

الامتحانات العمومية

لقد كثرت الشكوى من صعوبة الأسئلة في الامتحانات العمومية، ولا أُخفي عليكم أنني أوصيت بالحزم في تصحيح الأوراق؛ لأنني أخشى عواقب ما يدعوننا إليه من الرأفة واللين، لقد تحدثوا طويلًا بأن الطلبة في الأمم الغربية يُمْتَحَنُون في موادّ قليلة، وهذا صحيح، ولكن المدارس تعلِّم الطلبة هناك نفس المواد التي نعلمهم إياها هنا، والفرق بيننا وبينهم أنهم يمتحنون الطلبة في أهم المواد، ونحن نمتحنهم في جميع المواد، وعذرنا في ذلك أن

الاهتمام بغير مواد الامتحانات ضعيف، وخصوصًا في المدارس الأهلية، فالمدرس الذي يعلم مادة لا يمتحن فيها الطلبة قد يتراخى ويتكاسل ويُهْمِل، وفي اليوم الذي يحرص فيه جميع المدرسين أو أغلبهم على الاهتمام بالواجب لذاته، بغض النظر عما يتبعه من نتائج الامتحانات العمومية، في ذلك اليوم — ولعله قريب — نكتفي بامتحان الطلبة في أهم المواد، أما الآن فلا رحمة ولا هوادة، وسنمتحن الطلبة في جميع الفروع. ولا تنسوا أن المدرسة هي التي تقوم بالعبء في نشر الثقافة، ولا يساعدها أولياء أمور الطلبة إلا قليلًا؛ لأن الجوّ الاجتماعي — كما قلت لكم — لا تزال تنقصه عناصر كثيرة من العلم والتثقيف، فإذا فكرنا في تخفيف المناهج عن طريق حذف بعض المواد فسيظل الطلبة يجهلون ما نُعفيهم منه طول الحياة.

محمد الماحي: عندي اقترح مهم يا حضرات الإخوان.

محمد الههياوي: نعم، يا سيدي!

محمد الماحي: تعلمون جميعًا أن وقت صاحب المعالي الوزير وقتٌ ثمينٌ، وقد تركنا الوفود تتزاحم بالمناكب في مكتب الأستاذ سعد اللبان، و…

محمد الهراوي: بسّ عاوز تقول إيه؟

محمد الماحي: أنا عاوز أقول: إن وقت معالي الوزير ثمين، وإن الوفود تتزاحم بالمناكب في مكتب الأستاذ سعد اللبان، وأنا أسمع خفق أقدام في الغرفة التي تلي هذا المكتب المعمور، و…

أبو شادي: يعني تقترح حضرتك أن تختم المشعرة؟

محمد الماحي: إذا سمحتم، فإن وقت معالي الوزير نفيس، و…

حلمي باشا: أشكر لكم هذه الزيارة اللطيفة، وسأكون إن شاء الله عند ظنكم الجميل.

محمد الهراوي (ينهض لمصافحة الوزير وهو ينشد بصوت جهوري رزين):

رجل الفضل والمكارم والنبـ ـلِ جميعًا لقد ملكت النفوسا
نحن وفد الأشعار جاءك يسعى مستعينًا برب عيسى وموسى
يطرد اليأس بالرجاء ويجلو من عزيز الآمال فيك عروسا
نحن باسم الآداب نشكر محيي الشـ ـشِعر عيسى والروح آية عيسى

٢٩ يونيه سنة ١٩٣٣

لمحات من حياة شوقي[1]

سيداتي سادتي

تفضلت محطة الإذاعة فدعتني للاشتراك في إحياء ذكرى أمير الشعراء.

وقد نظرت فرأيت الكلام على شوقي كَثُر جدًّا، وأنا نفسي كتبتُ في نقد شعره كثيرًا، وأخشى أن أقع في الحديث المُعاد.

فلم يبق إلا أن أقدم إليكم بعض الصور من حياة ذلك الشاعر العظيم …

كانت شهرة شوقي قد بلغت مبلغًا عظيمًا قبل الحرب العالمية، ولكن الجمهور كان هواه مع منافسه الخطير حافظ إبراهيم؛ لأن حافظًا كان شاعر الوطنية، وكان من السابقين إلى محاربة الاحتلال، وكان شوقي كذلك شاعرًا وطنيًّا، ولكن مركزه الرسمي في معية سمو الخديو عباس كان يحول بينه وبين الشجاعة التي امتاز بها حافظ في محاربة الاحتلال.

ثم وقع حادث لم يكن في الحُسبان، وهو عزل سموّ الخديو عباس عن عرش مصر بسبب انضمامه إلى تركيا في الحرب العالمية الماضية.

وفي تلك اللحظة الرهيبة تقدم حافظ إبراهيم فهنأ السلطان حسين بالعرش مع جماعة من الشعراء، ودعاه إلى الثقة بالإنجليز فقال:

[1] محاضرة أُلقيت في محطة الإذاعة المصرية في أكتوبر سنة ١٩٣٨.

ووالِ الإنجليز فهم رجالٌ من الآداب قد نهلوا وعَلوا

وحينئذ تلفَّت الجمهور ينظر إلى ما يصنع شوقي، وكان تخلَّف عن تهنئة السلطان حسين، وما هي إلا أيام حتى نشر شوقي لاميته المشهورة التي عطفت الجمهور عليه:

المُلك فيكم آلَ إسماعيلا لا زال ملككمُ يُظِلُّ النيلا

وكانت هذه القصيدة شؤمًا على الشاعر: فقد وقعت فيها أبيات كانت مثارًا للتفسير والتأويل، وهي هذه الأبيات:

يا أهل مصر كِلُوا الأمور لربكم فالله خيرٌ موئلًا وكفيلا
جرت الأمور مع القضاء لغايةٍ وأقرها من يملك التحويلا
أخذتْ عِنانًا منه غير عنانها سبحانه متصرفًا ومُدِيلا
هل كان ذاك العهد إلا موقفًا للسلطتين وللبلاد وبيلا
يعتزُّ كل ذليل أقوام بِهِ وعزيزكم يُلقي القياد ذليلا
دفعت بنا فيه الحوادث وانقضتْ إلا نتائج بعدها وذيولا
وانفضَّ ملعبه وشاهده على أن الرواية لم تتمّ فصولا

وقد سارت هذه القصيدة في ذلك الحين مسير الأمثال، ولا سيما هذا البيت:

رؤيا عليٍّ يا حسينُ تحققتْ ما أصدق الأحلام والتأويلا

وكان الناس يعدون ذلك من التورية.

وقد انزعج الإنجليز من كثرة القيل والقال، فأمروا بنفي شوقي من البلاد، وكان ذلك النفي فاتحة لعهد جديد من شاعرية شوقي، وابتدأ بقطعته النثرية في وصف قناة السويس، وهي قطعة نادرة النظائر والأشباه.

وكان شوقي يخاف أن ينساه أهل مصر فهو الذي قال: إن مصر بلدٌ:

كلُّ شيء فيه يُنسى بعد حين.

فأخذ يرسل قصائده بلا انقطاع إلى مجلة عكاظ، وكان لهذه المجلة تأثير شديد في توجيه الأدب الحديث، ولكن الجمهور نسيها بسرعة؛ لأن صاحبها كان أفسد ما بينه وبين أكثر الأدباء من صلات …

ثم اتفق لشوقي أن ينظم النونية المشهورة، وهي قصيدة رقَّ فيها حنينه إلى مصر والنيل:

يا نائحَ الطَّلح أشباهٌ عوادينا — نأسَى لواديك أم نشجَى لوادينا
ماذا تقصُّ علينا غير أن يدًا — قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البَيْن أيكًا غير سامرنا — أخا الغريب وظِلًّا غير نادينا
كلٌّ رمته النوى ريشَ الفراق لنا — سهمًا وسل علينا البين سكِّينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدِعٍ — من الجناحين عيٍّ لا يلبّينا
فإن يك الجنس يا بن الطلح فرَّقَنَا — إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تألُ ماءَك تحنانًا ولا ظمأً — ولا ادِّكارًا ولا شجوًا أفانينا
تجرُّ من فنن ذيلًا إلى فننٍ — وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أُساة جسمك شتَّى حين تطلبهم — فمن لروحك بالنُّطس المداوينا

وفي هذه القصيدة مجَّد مصر والنيل أعظم تمجيد؛ إذ يقول:

لم يجرِ للدهر إعذارٌ ولا عُرُسٌ — إلا بأيامنا أو في ليالينا
ولا حوى السعد أطغى في أعنتِهِ — منا جيادًا ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيت خاض النارَ جوهرُنا — ولم يَهُن بِيَدِ التشتيت غالينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبلٍ — قبل القياصر دِنَّاها فراعينا
ولم يضع حجرًا بانٍ على حجرٍ — في الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائطٌ نهضتْ — به يدُ الدهر لا بنيان بانينا

وختمها بالشوق إلى أمه في حلوان فقال:

كنزٌ بحلوان عند الله نطلبُهُ خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأته الشوق إلا من نواحينا
إذا حملنا لمصر أوْ لَهُ شَجَنًا لم ندر أيّ هوى الأمَّيْن شاجينا

وفي أواخر سنة ١٩١٩ — فيما أتذكر — رجع الشاعر من منفاه، وتلهفتُ لرؤيته، فرأيته أول مرة في منزل المرحوم عبد اللطيف الصوفاني بك بالحلمية الجديدة.

رأيته رجلًا خاليًا من الأبهة والوجاهة في ملبسه وهندامه، رجلًا قليل الكلام كثير الصمت، لا يدلُّ مظهره على شيء، وإن طبَّقت شهرته الآفاق.

وقد عرَّفُوني يومئذ إليه، فأنشدتُه قصائد كثيرة من شعره البليغ، وكان يأنس إلى من يَرْوُون أشعاره ويعترفون بعظمته الشعرية.

ثم وقع بعد ذلك أن نظم قصيدة في الدعوة إلى قبول مشروع ملنر سنة ١٩٢٠، وقد قرأت تلك القصيدة وأنا في غيابة الاعتقال، فثار غضبي عليه، وصممت على إيذائه حين أجد السبيل إلى تنسُّم هواء الحرية.

ولما خرجت من الاعتقال في خريف سنة ١٩٢٠ كان أول ما كتبت مقالة في نقد شوقي بمناسبة قصيدته في مشروع ملنر، ونشرتُها في جريدة المحروسة، فغضب الشاعر، وأضاف اسمي إلى خصومه الألدَّاء.

ولكن المقادير أرادت غير ما أردتُ وأراد …

وإليكم أسوق الحديث:

كان شوقي بعد رجوعه من منفاه لا ينشر قصائده الجياد إلا في جريدة الأهرام، وكانت جريدة الأهرام تسميه «أمير الشعراء غير مُنازَع ولا مُدافَع».

وقد احتالت جريدة السياسة للتفرد بنشر تلك القصائد الجياد؛ فأعلنت أنها تقدم خمسين جنيهًا إلى الجمعية الخيرية الإسلامية في كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقي.

ورأى شوقي أمام الحيلة البارعة أن لا مفر من أن يختص جريدة السياسة بأشعاره، فقد كانت هذه الحيلة كافية للظفر بمودته؛ لأنها وثيقة نفيسة تشهد بعظمته الشعرية.

انتقلت قصائد شوقي من الأهرام إلى السياسة …

فانتقلت جريدة الأهرام كما انتقل، ولم تعد تسميه «أمير الشعراء غير منازَع ولا مدافَع» حين تجيء مناسبة لذكر اسمه، وإنما صارت تسميه صاحب العزة أحمد شوقي بك.

وقد تنبهتُ إلى هذه الظاهرة مع صديق قديم هو الدكتور سعيد عبده، وكان يومئذ طالبًا بمدرسة الطب، فكتبنا نلوم جريدة الأهرام بكلمات نشرناها في جريدة الصباح …

وقد قرأ شوقي ما كتبتُ وما كتبَ صديقي سعيد؛ فطرب ورآنا من النوابغ!

وأرسل ابنه حسين إلى صاحب الصباح يدعونا جميعًا للغداء بكرمة ابن هانئ في المطرية …

ولم يشأ أن يجشِّمنا مشقة الانتقال؛ فأعطانا موعدًا بأحد أندية القاهرة، وجاء بسيارته الفخمة فنقلنا إلى المطرية مكرَّمين معزَّزين، ومعنا الصديق أحمد علام الذي صار فيما بعد مجنون ليلى في رواية شوقي …

قد أنسى كل شيء، ولكني لن أنسى كيف رأيت شوقي في ذلك اليوم.

كان الرجل جاوز الخمسين، ومع ذلك بقيت له ابتسامة عذبة حلوة تفتن وتَشُوق، وبقيَتْ في وجهه ملامح من الصباحة تظهر في نونين تُشرقان في خديه، وانطلق فحدثنا عن خصوماته القديمة مع الزعيم سعد زغلول، وأنشد أبياتًا من قصيدته التي نظمها في السخرية من عُرابي يوم عاد من منفاه، وعاتبني على المقال الذي نشرته في الهجوم عليه بجريدة المحروسة، وأوضح الأسباب التي دعت لنظم قصيدته في مشروع ملنر قائلًا: إنها استجابة لإلحاح المكباتي والنحاس.

وكان ذلك اليوم بداية صداقة حقيقية بيني وبين شوقي …

وزادت الألفة، فكنا نلتقي كل يوم بمكتبه في شارع جلال.

ثم شرع في طبع ديوانه سنة ١٩٢٥، فتلطَّف واقترح أن أكتب مقدمة لذلك الديوان، وقد قبلتُ بسرور وارتياح.

ورجعت إلى نفسي فرأيت أن كتابة المقدمات توجب التغاضي عن الهفوات، فأرسلت إلى شوقي خطابًا أعتذر فيه عن كتابة مقدمة ديوانه، وعللت الاعتذار بأني وقفت قلمي على النقد الأجنبي، وقد أهجم عليه في يوم من الأيام، وذلك لا يأتلف مع الثناء عليه في مقدمة الشوقيات.

وفي مساء اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب لقيتُ الأستاذ الدكتور طه حسين بمنزله، وكان يومئذ يسكن في مصر الجديدة، فأخبرتُه بما وقع بيني وبين شوقي، وكان

الدكتور طه في ذلك العهد من خصوم شوقي، فتأسف وقال: ليتك حدثتني بذلك قبل أن تكتب اعتذارك، فإن كتابة مقدمة لديوان شوقي شرف عظيم، ولو أنه طلب مني ذلك وأنا من خصومه لسارعت إلى القبول؛ لأن شوقي في رأيي أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبي.

وكان اعتذاري عن كتابة مقدمة للشوقيات بداية قطيعة بيني وبين شوقي، مع أنني أنصفته في كتاب «الموازنة بين الشعراء» إنصافًا لم يوفق إليه أحد من النقاد الذين أعجبوا بشعره أشد الإعجاب.

وتعليل غضبه سهل؛ فقد كان شوقي لا يصدِّق أن شعره كلام كسائر الكلام فيه المقبول والمردود …

ولم تصرفني هذه القطيعة عن الإيمان بعظمة شوقي.

وزاد في عطفي عليه أنني رأيته رأي العين يحفر قبره بيديه.

رأيته يسرف إسرافًا شديدًا في نظم الشعر، والشعر يأخذ وقوده من الأعصاب والحواسّ، رأيته ينظم طوائف من الروايات المسرحية في زمن قليل، فعرفت أن الرجل يقدم صدره لسهام الموت.

وآخر مرة رأيت فيها شوقي كانت بمسرح حديقة الأزبكية في ربيع سنة ١٩٣٢، رأيته نحيلًا هزيلًا تتموج عيناه، وتضطرب يداه.

وقد هممت يومئذ بتقبيل يمناه، ثم تذكرتُ ما بيني وبينه فانقبض صدري وانصرفتُ.

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يومُ الفراق فعلت ما لم أفعلِ

وعصف الدهر بشاعر النيل حافظ إبراهيم فبكاه شوقي بكاءَ من ينتظر الموت.

وكذلك كان صيف سنة ١٩٣٢ عهد شؤم، فقد انطفأت فيه حياة شاعرين عظيمين رفعا مصر مكانًا عليًّا.

سيداتي سادتي

عاش شوقي للشعر ومات بالشعر، ففي الساعة التي كان يجود فيها بروحه كانت الآنسة مَلك تطرب الجمهور بتغريدة شوقي:

يا حلوةَ الوعد ما أنساك ميعادي

وفي صباح اليوم الذي جُهز فيه نعشه كان المنشد ينشد قصيدته في مصنع مشروع القرش، فهتف هاتف: يحيا شوقي!

وصفق الجمهور، وأغرب في الهتاف.

ولكن هاتفًا آخر رفع صوته وقال: يرحم الله شوقي!

وتلفَّت الجمهور وهو مذعور، فعرف أن المقادير انتزعت من بين يديه كنزه الثمين.

سيداتي سادتي

تلكم كلمة وجيزة عن أمير الشعراء، وهي ذكريات حزينة، ومن ذا الذي لا يحزن ولا يبتئس حين يتصور ما تصنع الدنيا بالشعراء؟

وهو — رحمه الله — قد صور حاله مع دنياه، دنيا الجمال والحب، بالأنشودة الخالدة التي يغنيها تلميذه وصفيُّه محمد عبد الوهاب:

بُلبل حيران بين الغصون

في سبيل الجمال والحب مصرعك، أيها البلبل الذي قتلته أشواك الأزاهير!

وفي ذمة الله شاعر مصر والعروبة والإسلام والشرق!

في ذمة الله من يقول:

وطني لو شُغلتُ بالخلد عَنْهُ   نازعتني إليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد من سلسبيلٍ   ظمأ للسواد من عين شمسِ

لجنة إحياء الأدب العربي

محضر جلسة أدبية

نشر حضرة الأستاذ أحمد أمين مقالًا في مجلة الرسالة عنوانه (محضر جلسة)، فظنه القراء دعابة أدبية، وفاتهم أن الأستاذ أحمد أمين رجل رزين لا يستبيح افتعال الأحاديث، فليعرفوا أن لذلك المقال أصلًا من الواقع، وليثقوا أني دهشت حين اطلعت عليه؛ لأنه يخالف الرغبة التي أبداها صاحب العزة الدكتور طه حسين بك، فقد اقترح أن لا يُنشر شيء من أخبار «لجنة إحياء الأدب العربي» ليستطيع أعضاؤها أن يحققوا كلمة المرحوم قاسم أمين إذ قال: «الوطنية الصحيحة تعمل ولا تتكلم»، وكان من رأيه أن لا يُذاع خبر تأليف اللجنة إلا يوم يظهر الكتاب الأول، ليكون ظهوره شاهدًا على خطر تلك اللجنة وصلاحيتها للحياة … وقد اعترضتُ على اقتراح الدكتور طه حسين، ولكني احترمتُ رأي الأغلبية، فلم أشر في مقالاتي إلى إنشاء تلك اللجنة بحرف واحد، فكيف يصح لحضرة الأستاذ أحمد أمين أن يخرج على ذلك الرأي، وأن ينشر محضر الجلسة الثانية في مجلة الرسالة؟

لقد أجهدت نفسي في فهم هذا السّر، ولم أصل إلى فرض معقول، فلم يبق غير توجيه العتب إلى الدكتور طه حسين، ولذلك اتصلت به تليفونيًّا لأعرف رأيه في هذه المخالفة الصريحة لرأي الأغلبية، فضحك ضحكة رجَّت أسلاك التليفون وقال: «أكنت تحسبنا جادِّين حين قررنا طيّ أخبار اللجنة إلى أن تظهر بواكيرها الأدبية؟ إن الكاتب قد يحلو له أن يستبيح ما لا يُباح».

فقلت: أنا إذن في حِلٍّ من نشر محضر الجلسة الأولى؟

فقال: على شرط أن تقف عند الشؤون الجدية، كما صنع الأستاذ أحمد أمين.

فقلت: وهل هناك بأس من إيراد ما وقع في تلك الجلسة من النوادر والفكاهات، وأخبار الكُتاب والشعراء والخطباء؟

فقال: أكِل الأمر في ذلك إلى ذوقك، وقد آن لك أن تعرف بعد الذي مرَّ بك من التجارب أن المرء قد يطوي بعض ما يعرف في أكثر الأحيان.

فقلت: ألم تقل منذ لحظة: إن الكاتب يستبيح ما لا يُباح؟

فقال: لكل شيء حدود، وأرجوك يا دكتور زكي ألَّا تحرجني معك، وأن تلاحظ أن الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق يضايقه أن يُقرَن اسمه في الجرائد بالنوادر والفكاهات والتعرض لأخبار الناس، وهو مَن تعرف في الحرص على التوقُّر والاستحياء.

فقلت: اطمئن، فلن أكتب إلا ما تحب ويحب!

وإلى القراء يُساق الحديث بعد حذف ما وقع فيه من شوائب الإسراف.

الأستاذ أحمد أمين: يهمني في مطلع هذه الجلسة أن أبين السبب الذي حداني على دعوتكم، فقد قررتْ لجنة التأليف والترجمة والنشر أن تقوم بنقل المؤلفات العالمية في العلوم والآداب والفنون، بمساعدة وزارة المعارف العمومية، فكان من المنطق المقبول أن تقوم اللجنة أيضًا بإحياء الأدب العربي، لتقدم للجمهور فنين من الثقافة: أحدهما عربي قديم، وثانيهما أوربيٌّ حديث.

زكي مبارك: أنا أول من اقترح نقل المؤلفات العالمية إلى اللغة العربية، وقد أقرت وزارة المعارف ما اقترحتُ وجعلتْه فرضًا على أعضاء البعثات …

الدكتور طه: ألم أنهك يا دكتور زكي عن الإسراف في التحدث عن نفسك، وعن آرائك وأعمالك؟ إن العالم المخلص ينسى ما يقدم لأمته من محمود الجهود.

زكي مبارك: أنا أذكِّركم بنفسي؛ لأني أراكم تنسون أو تتناسون.

الأستاذ أحمد أمين: وهذا أيضًا خطأ: فالذي يذكِّر الناس بنفسه يتناساه الناس عامدين، وقد أشرت إلى ذلك حين نقدت كتاب «النثر الفني».

الأستاذ محمد الهراوي: تذكُر ما أخذ الناس منك، وتنسى ما أخذت أنت من الناس، هل تستطيع يا صديقي أن تنكر أنك استفدت واستفدت من آراء القدماء والمحدَثين؟

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: لعلي قرأت في كتب الصوفية كلامًا يشبه ما يقوله حضرة الأستاذ محمد الهراوي: ولكن أين قرأتُ ذلك؟ الآن تذكرتُ أني قرأتُ في «لطائف المنن» لسيدي عبد الوهاب الشعراني كلامًا في هذا المعنى، وكأني به يقول وهو يتحدث عن غرور العلماء:

من أراد أن يعرف مرتبته في العلم الذي يزعم أنه من أهله فليردَّ كل قول إلى قائله، وكلَّ علم إلى عالمه، وكلَّ شيء استفاده من أمر دنياه وآخرته إلى من استفاد منه، وينظر نفسه بعد ذلك.

زكي مبارك: هذا ليس من كلام الشعراني، وإنما هو من كلام الخوَّاص، وقد أثبتُّه في كتابي عن (التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق).

الدكتور طه: لا تشغلنا بنفسك يا دكتور زكي، الله يلطف بك!

الأستاذ أحمد أمين: نعود إلى الكلام في إحياء الأدب العربي.

الأستاذ محمد الهراوي: أنا أعترض.

الأستاذ توفيق الحكيم: يا فتاح يا عليم.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: تعترض على إحياء الأدب العربي؟

الأستاذ الهراوي: الأدب العربي في أذهانكم هو الأدب القديم، وأنا أرجوكم أن تفكروا قليلًا في الأدب الحديث، ألا يكفي ما يصنعه القسم الأدبي بدار الكتب المصرية؟ ألا يكفي ما تصنع وزارة المعارف في مساعدة دار المأمون؟ ألا يكفي ما يصنع المستشرقون؟ إن الأدب الحديث مجهول في هذا البلد ولا يفكر فيه مخلوق، ونحن والله نحقق كلمة الشيخ محمد عبده؛ إذ قال: «عاش القدماء لأنفسهم ولنا، ونحن نعيش لهم ونموت لأنفسنا».

الدكتور طه: يجب أن ينهض الأدب الحديث بنفسه: فإن أصحابه أحياء، أتريد أن تصنع لجنتنا مثل ما صنعت لجنة التأليف حين نشرت كتاب «وحي القلم»؟

الأستاذ أحمد أمين: وأيُّ عيب في هذا؟

الدكتور طه: لقد هممت وأنا عضو في اللجنة أن أعترض على هذا الصنيع، ولكني خشيت أن أتهم بالكيد للأستاذ مصطفى الرافعي، وكانت بيني وبينه أحقاد، وأنا بصراحة لا أفهم كيف تنشر اللجنة كتابًا أُخذتْ موادُّه من رسائل نشرت في الجرائد والمجلات.

زكي مبارك: هذه سعة ذهن من لجنة التأليف، وهي خليقة بالثناء.

الأستاذ الهراوي: الرافعي كاتب عظيم بلا جدال.

الدكتور طه: ماذا تعني بسعة الذهن يا دكتور زكي؟ أنا لا أقول إن من البدعة أن تُنشَر المقالات وتُجمَع في كتاب، ولكني أقول إن اللجان الأدبية تنشر ما يعجز الأفراد عن نشره، وكان الرافعي يستطيع نشر كتابه إن شاء.

الدكتور عزام: كتاب (وحي القلم) كتاب نفيس، هو كتاب في تمجيد الفضيلة والطهر والعفاف، فنشره يعد من حسنات لجنة التأليف.

الدكتور طه: قلت لكم إني لا أخاصم الرافعي، ولكني أقول إن اللجنة حين نشرتْ كتابه لم تأت بشيء جديد؛ لأنها أعادت ما نشر وقرأه الألوف.

زكي مبارك: أنا أرى هذا الصنيع شهادة بإعزاز الأدب الحديث.

الأستاذ توفيق الحكيم: وهو أيضًا خطوة في تنظيم النشر، فقد كان مفهومًا إلى اليوم أن المقالات التي نشرت من قبل لا تستحق عناية الناشرين.

الدكتور طه: إذن أستطيع أن أقدم إلى اللجنة منتخبات مما نشرتُ؟

الأستاذ أحمد أمين: بالتأكيد، وقد نشرتْ لك كتابًا نشرته من قبل.

زكي مبارك: وأنا أيضًا أستطيع أن أعرض على اللجنة كتاب (أكواب الشهد والعلقم).

الأستاذ أحمد أمين: العنوان مخيف، ويظهر أن هذا الكتاب يتضمن هجماتك على الأساتذة لطفي جمعة وزكي باشا وطه حسين وعبد الله عفيفي.

الدكتور طه: ويكون ظريفًا أن تنشر اللجنة كتابًا يطعن مؤلفه في أحد أعضائها!

الأستاذ توفيق الحكيم: هذا شيء معروف في فرنسا.

زكي مبارك: وقد تكلمتُ عنه في كتاب «ذكريات باريس».

الدكتور طه: يا دكتور زكي، ارحمنا من الكلام عن نفسك وعن مؤلفاتك.

الأستاذ أحمد أمين: نعود إلى الموضوع.

الأستاذ الهراوي: أنا أعترض.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: على إيه يا أخي؟

الأستاذ الهراوي: على الوقوف عند الأدب القديم وإهمال الأدب الحديث.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: قبل أن ننساق إلى الخلاف، أرجوكم أن تحدّدوا المراد من الأدب العربي.

الدكتور طه: الأدب العربي معروف الحدود، وهو يُدرس في كلية الآداب.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: ماذا تريد بالضبط؟

الدكتور طه: أريد الشعر والنثر الفني.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: وأنا أضيف النثر الفلسفي، وأقترح أن يكون في أعمال اللجنة إحياء مؤلفات ابن سينا والفارابي وابن رشد وابن طفيل والغزالي وابن مِسكويه والمكي والطوسي؛ ومن إليهم من المؤلفين الذين جمعوا بين الأدب والأخلاق.

زكي مبارك: ولا تنسوا أبا حيان التوحيدي، فهو في رأيي أعظم أديب مفكر عرفته اللغة العربية.

الدكتور طه: ستظهر مؤلفات التوحيدي بين مطبوعات كلية الآداب.

زكي مبارك: تلك وعود تبرق وتخلف، وهيهات أن ننتظر ما يعدنا به عميد كلية الآداب.

الدكتور طه: لقد كنت معنا في الكلية، يا دكتور زكي، وأنت تعرف أن العزيمة موجودة، ولكن يعوزنا المال، وقد بذلتُ ما بذلتُ من الجهد عند مدير الجامعة فلم أصل إلى شيء، والأمر لا يزال عند اللجنة المالية، فإن أمدونا بألف أو ألفين من الجنيهات فسترى العجب العُجاب.

زكي مبارك: ومَن غيري ينتظر العجب العجاب، من كلية الآداب؟!

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: المهم أن نقرر أن النثر الفلسفي جزء من الأدب، وأن من الحتم أن نفكر فيه حين نفكر في إحياء الأدب العربي.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: وما رأيكم في مؤلفات النحاة؟ ما رأيكم في مصنفات المبرِّد والسِّيرافي؟ أليس من المخجل أن يجهل أدباؤنا رجالًا عرفهم المستشرقون؟

الدكتور طه: تلك من أعمال كلية الآداب؛ أي من مطبوعات كلية الآداب.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: فإن عجزت الكلية، فماذا نصنع؟

الدكتور طه: هذا كلام مشدود من شَعره، كما يقول الفرنسيون.

الأستاذ الهراوي: والفرنسيون يُذكرون أيضًا في حارة الكرداسي؟

زكي مبارك: ومن يدريك، لعل الكرداسي فرنسيّ الأصل!

الأستاذ توفيق الحكيم: أحب أن أعرف ماذا تريدون من إحياء الأدب العربي؟

الأستاذ أحمد أمين: نطبع الكتب القديمة طبعات علمية ونبيعها بثمن مقبول.

زكي مبارك: ولمن تطبعونها؟

الأستاذ أحمد أمين: للجمهور، جمهور أهل مصر والأقطار العربية.

زكي مبارك: وكتب النحو أيضًا تطبعونها للجمهور؟ يا ناس، اتقوا الله! أتريدون أن نظل في وساوس نحوية، إلى يوم الدين؟

الأستاذ إبراهيم مصطفى: أنت يا دكتور زكي لا تعرف النحو.

زكي مبارك: اسمع، يا أستاذ، أنت أخذتها بالنَّبُّوت وأنا سآخذها بالمسدس!

الدكتور طه: أنا من رأي إبراهيم في (إحياء النحو).

زكي مبارك: وأنا أرى أن تُحبس المشكلات النحوية في حجرات الأزهر وغرفات دار العلوم ومدرجات كلية الآداب.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: ماذا تريد بالضبط؟

زكي مبارك: أنا أريد قطع دابر الخلافات النحوية، أريد بصراحة أن نقف عند الأوليات من نحو اللغة القرشية، فلا يكون في كل مسألة قولان أو أقاويل.

الأستاذ توفيق الحكيم: هذا تخفيف.

الأستاذ أحمد أمين: ولكنه لن يبيح كتابة الروايات باللغة العامية!

الأستاذ عزام: هذا تعريض لطيف.

الأستاذ توفيق الحكيم: في فرنسا يحترمون لغة الشوارع.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: فرنسا شيء ومصر شيء.

الأستاذ توفيق الحكيم: لقد نهضت فرنسا باللحن وتأخرنا نحن بالإفصاح.

الدكتور طه: وهل يلحن الفرنسيون؟ أنت مخطئ يا أستاذ توفيق؟

زكي مبارك: فرنسا لا تلحن أبدًا.

الأستاذ الهراوي: أنا أقترح أن تؤلف لجنة لإحياء الأدب الفرنسي!

الدكتور عزام: لم يبق إلا هذا.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: يظهر أن فرنسا بلدٌ جميل، ولولا ذلك ما ظفرت بأمثال هؤلاء الأصدقاء الذين يفضلونها على وطنهم، وينظمون في مدحها فرائد العقود.

زكي مبارك: ليتك يا أستاذ إبراهيم قرأت كتب النحو الفرنسي: ليتك اطلعت على كتاب برونو فيما بين النحو والفكر من الصلات!

الدكتور طه: برونو باحث عظيم.

زكي مبارك: ما أظنك يا سيدي الدكتور عرفت هذا الرجل، أنا الذي حضرت دروسه في السوربون، وهو كما تقول باحثٌ عظيم.

الدكتور منصور فهمي: ليس عندي من الوقت ما يساعد على مشاركتكم في هذا الحوار الطريف، ولا يهمني في هذه اللحظة أن أستعيد ذكريات السوربون أو أشهد الدعابة بين التلميذ وأستاذه كالتندّر الذي يقع بين زكي مبارك وطه حسين، وأنا منصرف لإنجاز بعض الأعمال في المجمع اللغوي، ولكني أحرص على مصارحتكم بأن الأدب العربي لا يحيا بنشر المستظرف من أخبار الشعراء والندماء، وإنما يحيا بنشر المؤلفات القيمة التي خلَّفها العبقريون.

الدكتور طه: الأدب القديم يراد في الأغلب لما فيه من الأخيلة والتعابير وصور المجتمع القديم.

الدكتور منصور: لا تهمني الأخيلة ولا التعابير، وإنما يهمني السمو العقلي والروحي.

الدكتور طه: أنت إذن تبحث عن الحقيقة، وحقائق القدماء أصبحت في الأغلب من الأباطيل، وهل يكون ابن خلدون إلا طفلًا إذا قيس تفكيره بتفكير الفلاسفة من أهل هذا الجيل؟

الدكتور منصور: لا يهمني غير العدوى العقلية. وقراءة كتب العبقريين تحمل الذهن على التحليق، وتنقل القارئ إلى آفاق من العظمة الذاتية، وإن أصبحوا في رأينا جهلاء.

زكي مبارك: أيريد أستاذنا الدكتور منصور أن تكون المطالعات كلها من الجد الصُّراح؟

الدكتور منصور: الحياة يا أستاذ زكي لا تتسع للهزل.

زكي مبارك: وهي أيضًا تضيق عن الجِدّ.

الدكتور طه: فلنجعلها مزاجًا من الجِدّ والهَزْل.

الدكتور منصور: تريدون الهزل للترويح عن النفوس، وأنا أرى أنه يكفي أن ينتقل القارئ من الصعب إلى السهل حين يدركه الملال؛ لأن قراءة الهزل تترك أثرًا في النفس قد لا تُحمَد عقباه، والكتاب الماجن كالصديق السفيه يفسد كرائم الخلال.

الدكتور طه: كان ذلك رأيي حين نقدت كتاب «مدامع العشاق» لما فيه من إثارة الشهوات.

زكي مبارك: الشهوات عنصر أصيل من الثروة الإنسانية، وهي لا تحيا إلا في الأمم القوية.

الدكتور طه: أنت تسيء إلى نفسك يا دكتور زكي بنشر هذه الآراء.

الدكتور منصور: الشهوات من الحوافز الإنسانية، ولكن لا بد من تهذيبها.

زكي مبارك: وهل نُهذِّب ما لم يُخلق؟ فلنخلقها أولًا، ثم لنهذبها بعد ذلك.

الدكتور منصور: وهل انعدمت الشهوات حتى نفكر في خلقها من جديد؟

زكي مبارك: وهل ترى التحذير من الشهوات بابًا إلى السلامة من خطرها المَخُوف؟ إن الشهوات في الشرق تقوى وتستفحل بفضل الإسراف في التخويف منها، والنهي عنها، فلنُغْضِ عنها إغضاء الكرام ليتناسى الناس ما فيها من طرافة وبريق.

الأستاذ أحمد أمين: نعود إلى الموضوع، فقد بعدنا منه.

زكي مبارك: ما بعدنا عن الموضوع، ولكن الحديث ذو شجون.

الأستاذ أحمد أمين: إحياء الأدب العربي هو نشر مؤلفات القدماء بطريقة علمية.

الأستاذ الهواري: ومؤلفات المحدَثين أيضًا؛ أي الذين يعيشون في عصرنا هذا.

زكي مبارك: هنا مسألة يجب النص عليها، وهي الاتصال بمن يشتغلون بإحياء الأدب العربي، فإن الناس في مصر لا يفقهون للتعاون معنى، وقد يُطبع الكتاب الواحد طبعتين في وقت واحد.

الدكتور عزام: هذا مدهش.

زكي مبارك: ألم تسمع بكتاب خزانة الأدب؟ ألم تعرف أنه طُبع مرتين في وقت واحد، فنشره الأستاذ إسماعيل مظهر، ونشره الأستاذ محبّ الدين الخطيب؟

الدكتور عزام: هذه منافسة ينكرها الأدب الصحيح.

زكي مبارك: من واجب أهل العلم أن يتعاونوا، وأن يشد بعضهم أَزْر بعض.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: قل هذا الكلام في غير مصر.

الأستاذ أحمد أمين: وهل كفرتْ مصر؟ أنتم تسيئون إلى كرامة هذه البلاد.

الدكتور طه: نرجع إلى ما كنا فيه.

الأستاذ أحمد أمين: إحياء الأدب العربي هو نشر مؤلفات القدماء بطريقة علمية وبيعها بثمن مقبول.

الأستاذ توفيق الحكيم: هذا لا ينفع، وبالعربي الفصيح لا يُغني فتيلًا.

زكي مبارك: وهل تعرف ما هو الفتيل؟

الأستاذ توفيق الحكيم: لا تصرفني عن المهم، أنا أرى أن الأدب القديم لا يحيا إلا بتحويله إلى أقاصيص. ولعلكم رأيتم تباشير هذا الفن في كتابي (محمد).

زكي مبارك: أنا أنكر ما صنعتَ يا أستاذ توفيق، فأنت لم تزد على تحويل السيرة النبوية إلى حوار مصطنع، وأنا أُفضِّل ما صنعه أستاذنا الدكتور طه حين ألف كتابه (على هامش السيرة)، فهو تحفة من قصص التاريخ.

الدكتور طه: تعجبني يا دكتور زكي، فأنا من النوابغ حين تَرْضَى وأنا من الجاهلين حين تغضب، ويا ضيعة الحق بين غضبك ورضاك!

زكي مبارك: وهذا أيضًا حالي عندك، يا سيدي الدكتور، فأنا كنت عندك من النوابغ حين ألفت كتاب (حب ابن أبي ربيعة)، فلما أصدرت كتاب (النثر الفني) تفضلت فقلت: كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكُتَّاب.

الدكتور طه: ما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الثانية.

الأستاذ أحمد أمين: وما الذي يغضبك من ذلك؟ أليس كتابك كتابًا من الكتب، وألست أنت كاتبًا من الكُتَّاب؟

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: أوَكنت تريد أن يقول: كتاب من الكتب أخرجه عِفريت من الجن؟

الدكتور عزام: عشت حتى رأيت الأستاذ مصطفى عبد الرازق يمزح.

زكي مبارك: وعلى حسابي!

الأستاذ الهراوي: أمرك لله!

الأستاذ أحمد أمين: نعود إلى الموضوع.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: وهل خرجنا من الموضوع حتى نرجع إليه؟ نحن نناقش المبادئ التي يقوم عليها إحياء الأدب العربي.

الأستاذ توفيق الحكيم: هو لا يحيا إلا بتحويله إلى أقاصيص.

زكي مبارك: الأقاصيص عكاز العاجزين في هذا الزمان.

الأستاذ توفيق الحكيم: وماذا تقول في الأقاصيص الأوربية؟

زكي مبارك: الأقاصيص هناك فنٌ أصيل، وهي هنا فنٌ يقوم على التزويق والتهويل، ودليل ذلك أنها في الأغلب من فنون الناشئين ... إن الكاتب الأوربي لا ينشئ قصة إلا بعد أن يدرس آراء المفكرين في القديم والحديث، وبعد أن ينظر في مشكلات عصره نظر الباحث المتعمق؛ فيعرف ما يحيط به من المعضلات الذوقية والاجتماعية والاقتصادية، فيكون لقصته مغزًى مأخوذٌ من أزمات النفوس والقلوب ... أما في مصر فالقصة مطية من لا يعرف، وعوامُّ الناشئين يؤكدون أنها فن جديد، وأن الأدب لا ينهض إلا إذا أطال القول في التحدث عن الحاجة خدُّوجة والحاج مشحوت، وهم يزعمون أن القصة فن يوجب التحلل من القواعد النحوية والإنشائية، ولا يصلح له غير المُفتَعَل من الأساليب. وأكثر ما نراه من الأقاصيص العصرية ليس إلا انتهابًا من القصص الصغيرة التي تباع في محطات أوربا ليتلهى بها المسافرون، فإن لم يكن بُدٌّ من فن القصة في مصر فلنُفهم هؤلاء المتأدبين أن العنصر الأساسي في كل قصة هو وصف الأدواء المحلية، ومخاطبة الناس بما يفهمون، أما انتهاب الأزمات الوجدانية والاجتماعية من الأقاصيص الأوربية فهو تقليدٌ سخيف.

الأستاذ توفيق الحكيم: هذا تعريضٌ بالجيل الجديد.

زكي مبارك: وأين الجيل الجديد حتى نواجهه بالتعريض؟

الدكتور طه: لا تخرج عن الموضوع.

الأستاذ الهراوي: أحب أن أعرف ما هو الموجب للتعلق بأهداب الأدب القديم؟

الدكتور عزام: بفضل الأدب القديم يعيش موظفو دار الكتب المصرية!

الأستاذ الهراوي: يا خويا، أنا هناك رئيس حسابات.

الدكتور طه: الأدب القديم أساس الأدب الحديث، كما كان الكلاسيك أساس الرومانتيك.

زكي مبارك: هذا كلام يحتاج إلى تعديل.

الدكتور طه: لم يبق إلا أن تصحح آرائي في الأدب الفرنسي، يا دكتور زكي!

الأستاذ توفيق الحكيم: للمدنية الحديثة رجعات إلى المدنيات القديمة، وقد كنت أرى في بعض حانات باريس جدرانًا تلبس ثياب القديم، وهي عند التأمل زُخرفت كذلك لتُشوق الناظرين، وقد نرى في بعض المعارض زجاجات من الصهباء مغبَّرة معفَّرة لتُوهم الناظر أنها مُعتَّقةٌ، وقد لا يكون مضى عليها أكثر من شهرين: والذي يزور مونمارتر يرى الأعاجيب!

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: ويكون معنى ذلك أننا نحيي صور الأدب القديم لننفض على الأدب الحديث غبار العصور الخوالي.

زكي مبارك: هذه عبارة مبتكرة، وهي في رأيي من وثبات الخيال.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: لا تغرقني في لُجَّة من الثناء.

الأستاذ توفيق الحكيم: وهذه أيضًا عبارة مبتكرة، وبالعربي الفصيح عبارة نحوية.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: أهذا هو «إحياء النحو» يا حضرات الزملاء؟

زكي مبارك: نترك الصور الباريسية التي عرضها الأستاذ توفيق الحكيم، وننظر فيما نراه بأعيننا في بعض المساجد، ألا ترون المصابيح الكهربائية وقد وُضعت في هيئة الشموع؟ ألا تفتنكم تلك المناظر حين تتخيلون المصباح القديم وقد استمدَّ نوره من التيار الحديث؟ نحن كذلك نريد صورًا قديمة تحييها الأفكار الحديثة على نحو ما نرى صورة الشمعة وهي مصباح تمده الكهرباء.

الدكتور عزام: وهذا ما فعله العرب قديمًا حين نقلوا الأخيلة الفارسية.

زكي مبارك: وما صنعه الأوربيون حين نقلوا الأساطير اليونانية.

الأستاذ توفيق الحكيم: وهذا ما يفعله الجيل الجديد وهو ينقل الأخيلة العامية.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: في عبارات العوامِّ أشياء تفسر الخلاف بين الكوفيين والبصريين والبغداديين.

زكي مبارك: وفي عبارات العوام ألفاظ تشرح الصلة بين العربية والعبرية.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: وفي كلامهم عبارات تمثل اختلاف المذاهب الفلسفية.

الأستاذ الهراوي: ولماذا لا تؤلَّف لجنة لتخليص اللغة من هذه الديون؟ أنتم والله تذكِّرونني بما صنعت وزارة الأشغال حين فكرت في عرض مسابقة دولية لتجميل ميدان العتبة الخضراء، أفي كل عبارة، وفي كل لفظة، وفي كل إشارة، صدًى لأصوات الفرس والروم واليهود والفرنسيس والإنجليز والألمان؟

الدكتور طه: من الصعب يا أستاذ أن تظفر المدنيات بالاستقلال المطلق؟

الأستاذ الحكيم: وهل خلت مصر من السمات الأجنبية؟ إن في القرى المصرية شواهد لذلك، ففي المنوفية بلد اسمه شطانوف، وبقليل من التأمل نعرف أنه اسمٌ فرنسي.

زكي مبارك: لا تقل ذلك، يا أستاذ، فشطانوف ليست من (شاتونيف) كما تتوهم، وإنما هي في الأصل شط النوف، ولها حديث في أقوال الشعراء.

الأستاذ توفيق الحكيم: لقد سمعت أن كلمة «عرب» كلمة عبرية.

زكي مبارك: وأنا سمعت أن كلمة «عبر» كلمة عربية.

الأستاذ إبراهيم مصطفى: هذا يسمى القلب المكاني عند علماء الصرف.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: كنت أنتظر أن أسمع غير هذا الكلام، كنت أنتظر أن تقولوا مثلًا: إن الأدب القديم يمثل مدنية لم يبقَ لها سلطانٌ أدبي، وإننا نحيا في العصر الحديث متأثرين بما فيه من لغات وتقاليد.

الأستاذ الهراوي: هو ذلك يا فضيلة الأستاذ.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: ولكن هل يصح هذا القول على إطلاقه؟ أليس من الحق أننا في أكثر المذاهب الحيوية نصطنع أفكار القدماء؟

الدكتور طه: النظام البرلماني في العصر الحديث مقتبس من نظام الآتينيين، ولا جديد تحت الشمس، كما يقول الفرنسيون.

الدكتور عزام: والذي يقرأ الشهنامة يدرك أن غرام الملك إدوارد الثامن ليس إلا صورة لما عرفه الفرس الأقدمون من جموح الأهواء.

الأستاذ الهراوي: أليس في تاريخ مصر ما يصلح لضرب الأمثال؟

زكي مبارك: وتاريخ مصر هو أيضًا شيء قديم.

الأستاذ الهراوي: قديمنا ولا جديد الناس.

الأستاذ توفيق الحكيم: هذه الكلمة تصلح موضوعًا لقصة اجتماعية.

الأستاذ أحمد أمين: نعود إلى الموضوع.

الأستاذ مصطفى عبد الرازق: أقترح أن نبدأ بنشر المؤلفات التي يعجز عن نشرها الأفراد، فهناك مؤلفات مطولة أخشى أن لا تُنْشَر مرة ثانية، مثل تاج العروس وشرح الإحياء والفتوحات الملكية.

الدكتور طه: اسمحوا لي أن أستعمل سلطة الرئيس المؤقت فأرفع الجلسة، على أن نجتمع في مثل هذا المساء من الأسبوع المقبل.

أما بعد فهذا محضر الجلسة الأولى من جلسات لجنة إحياء الأدب العربي، فإن سأل القارئ عما تم بعد ذلك فأنا أخبره أني لم أحضر الجلسة الثانية، ولكني عرفت من مقال الأستاذ أحمد أمين أن أكثر الأعضاء تخلفوا، وأن الجلسة الثانية ضاعت في مناقشة لفظة واحدة، وفهمت أيضًا من كلام الأستاذ أن اللجنة قد لا تنعقد مرة ثالثة إلا في المشمش!

نحن في مصر، أيها القراء، نحن نتكلم كثيرًا ونعمل قليلًا، ولو رأيتم الحماسة التي ثارت في الجلسة الأولى لظننتم أننا سنُخرج ألف كتاب في العام الواحد، ولكنكم رأيتم كيف عجزت تلك الحماسة عن البقاء ثلاثة أسابيع، والرئيس المؤقت الدكتور طه حسين، ما عُذْرُهُ المقبول؟ وكيف رضي أن يشهد انحلال هذه اللجنة قبل أن تفرغ من صيغة التأسيس؟

أهذه هي الحماسة للأدب العربي ونحن نزعم أننا وارثوه وحارسوه؟

وأين الأستاذ مصطفى عبد الرازق؟ ومتى ينشر المكنون من النثر الفلسفي؟

إن في مصرع هذه اللجنة عبرةً لمن يظنون أن الدنيا تُهدَم وتُبنَى في جلسة واحدة، ومن يفوتهم أن الأدب لا يحيا إلا بالمصابرة والجهد الموصول.

وسننظر، فلعل أعضاء هذه اللجنة ينتبهون بعد قراءة هذا الحديث.

٥ فبراير سنة ١٩٣٧

تسعة أيام في بغداد

١

في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر (مايو سنة ١٩٣٩) مضيت إلى محطة باب الحديد أودع الجارم بك بمناسبة سفره إلى بغداد للاشتراك في تأبين الملك غازي — رحمه الله —، ولم يكن من عادتي أن أراعي الواجب في توديع المسافرين من الأصدقاء؛ لأن الأيام لم تَدَعْ لي من الفرص ما يسمح بمراعاة الواجب أو الذوق، ولكني شعرت يومئذ بالشوق إلى توديع من يرحل من القاهرة إلى بغداد عساني أُحَمِّله تحية إلى أحبابي في العراق.

وجاء الجارم بك إلى المحطة ومعه طفلته الحلوة العذبة التي تُسمى «أميرة» وهو اسم أحبه؛ لأن له نظيرًا في بغداد، ولأن البواكير تشهد بأن صاحبة هذا الاسم قد تنقل قلبي من مكان إلى مكان، إن قضى الله أن أعيش إلى أن تصبح رُعْبُوبة هوجاء؟

ثم جاء جاد المولى بك والدكتور عبد الوهاب عزام وجماعة من كِرام الزملاء.

وبعد لحظات رأينا رجلًا كبير الهامة، فارع الجسم، يدخل المحطة في موكب وحاشية، فسارعنا إلى التسليم عليه لنؤدي واجب الأدب نحو المؤرخ الكبير صاحب السموّ الأمير عمر طوسون، حفظ الله حياته الغالية!

وجاء المصور ليقدم إلى الصحف صور المسافرين إلى بغداد، فتهيأ الجارم بك لوقفة شعرية تكون زاد النواظر يومًا أو يومين! ولكن المصور قال: لو سمح سمو الأمير بالظهور في الصورة لكان الموقف أجمل وأروع، فتقدم الجارم بك إلى سمو الأمير وهو يقول: يسمح أفندينا بأخذ صورته؟ فخلع سمو الأمير نظارته واستوى واقفًا في نافذة القطار، وبالقرب منه فؤاد أباظه باشا سندباد العصر الحديث.

وتسابقنا جميعًا إلى الظهور في الصورة مع سمو الأمير، ثم راعنا أن يقول: أين المسافرون إلى بغداد؟ فتقدم الجارم وعزام، فأشار سموه بأن يقفا إلى جانبيه: فعرفنا أن ظهورنا في هذه الصورة أصبح من المستحيل، وبذلك ضاعت فرصةٌ من أعظم فرص التشريف.

وفي اليوم التالي ظهرت الصورة في الجرائد وفيها شخص ثالث هو صديقنا زكي مبارك، فهل يكون ظهوره في الصورة بشيرًا بأن يسافر إلى بغداد؟

كانت لجنة تأبين الملك غازي قررت دعوة الهيئات لا الأفراد، فدعت وزارة المعارف والأزهر والجامعة المصرية والصحافة، أما وزارة المعارف فأوفدت الجارم بك، وأما الأزهر فأوفد الشيخ إبراهيم الجبالي، وأما الجامعة فأوفدت الدكتور عبد الوهاب عزام، وناب عن الصحافة الأستاذ أسعد داغر والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني.

ولكن التليفون يدق في المنزل وفيه هاتف يقول: «يا مولانا، بغداد تحب أن تراك».

وأتأمل الصوت فإذا هو صوت السيد عبد القادر الكيلاني فأجيب: إني لا أملك الموافقة إلا بعد استئذان حضرة صاحب المعالي وزير المعارف.

وأمضي في اليوم التالي فأستأذن معالي الدكتور هيكل باشا وأتأهب للسفر إلى بغداد.

ولكن بأية صفة؟ لا أدري! باسم وزارة المعارف؟ لا، باسم الأزهر؟ وكيف! باسم الجامعة؟ يجوز! باسم الصحافة؟ تلك أيامٌ خَلَتْ!

لم تبق إلا صفة واحدة هي أن أسافر باسم مصر، وكذلك صنعتُ، ومصر تعرف أني ابنها الوفي الأمين.

وقضيت لحظات في إعداد خطبتي، ولكنها لم تعجبني فأرجأت النظر في إكمالها أو تهذيبها إلى أن أدخل بغداد وأتنسم هواء العراق.

وفي قطار الصباح رأيتني في صحبة الوطني العظيم طلعت حرب باشا فذكَّرته بنفسي، وما كنت رأيته بعد أن تلاقينا في باريس منذ عشر سنين.

وفي الباخرة نظرت فرأيت مكاني في المائدة التي يجلس إليها أصحاب المعالي والسعادة حافظ عفيفي باشا، وتوفيق دوس باشا، وطلعت حرب باشا، وحسين فهمي بك، والسيد محمد شتا.

وكانت الساعات التي قضيتها في صحبة هؤلاء الرجال ساعات درس، فأنا لم أعرف حافظ باشا عفيفي من قبل، ولم تكن معرفتي بتوفيق باشا دوس وطلعت باشا حرب إلا

معرفة سطحية، وحديث المائدة مع هؤلاء الرجال يفتح الشهية؛ لأنهم في الأغلب يخلعون أردية التوقر والتحفظ، ويتكلمون في شجون من الأحاديث فيها مُتعة للذهن والذوق والعقل والوجدان.

ومن تلك الأحاديث عرفت أن رجلًا كبيرًا أضاع منصبه في الدولة بسبب البخل: فقد كان يركب السيارات العمومية وهو في بذلة التشريفات!

فهل للدولة أن تنصفني وأنا رجلٌ كريم إلى حد الإسراف؟

وعرفت أشياء كثيرة من أسرار المجتمعات الأريستوقراطية، وسأنتفع بما عرفت يوم أكون من أقطاب الزمان، وما ذلك على الله بعزيز.

وفي لحظة من لحظات السمر تلطف طلعت باشا فقال: هل لك يا دكتور أن تقص علينا كيف استحضرتَ روح نسيم باشا؟

فقلت: وما الذي يهمك من ذلك يا مولاي؟

فقال: لأن مجلة الصباح اقتضبت حديثك مع نسيم باشا بعض الاقتضاب.

فقلت: يتفضل الباشا فيأمر بإحضار مجلة الصباح.

فمضى كاتبه وأحضر المجلة وقرأ طلعت باشا بنفسه فقرأت من ذلك الحديث؛ فظهر الاهتمام على توفيق باشا دوس، ورجاني أن أشرح بالتفصيل ما وقع في الجلسة التي استحضرتُ فيها روح نسيم باشا.

فقلت وأنا أبتسم: لم يقع من ذلك شيء، ولم أر وجه نسيم باشا في حياته، ولم أخاطب روحه بعد مماته، وما كان ذلك إلا حديثًا زخرفه أحد المحررين في الصباح!

وعندئذ نهض رجل من حاشية طلعت باشا وصاح: «هذا مستحيل، هذا مستحيل».

فقلت: وما هو ذلك المستحيل؟

فقال: مستحيل أن يُنشَر خبر كاذب في مجلة الصباح.

فقلت: يا أخي، أنا صاحب الشأن الأول في هذه القضية، ومن واجبك أن تصدقني.

فقال: أنا لا أكذِّبك، ولكن ذهني لا يسيغ أن تفتري مجلة الصباح عليك، وقد قابلت القشاشي في بنك مصر وسألته عن الحديث فقال: إنه صحيح.

كان توفيق باشا دوس أظهر رغبته في الاتصال بجريدة المقطم ليعرف وجه الحق في مسألة استحضار الأرواح، فلما رآني أكذِّب ما نُسب إليَّ في مجلة الصباح فترت رغبته في مواصلة البحث، واقتنع بأن الأمر في جملته فنٌ من المناورات الصحفية.

فاعترض طلعت باشا قائلًا: وكيف كانت هذه المناورات من نصيب هذه الأيام؟

فقلت: كذلك يكون الحال في الأيام التي تسبق الحروب، وستعرفون صحة ذلك بعد حين!

ولكن يظهر أن روح نسيم باشا كانت حضرت بالفعل؛ فقد فُتح حديث المائدة في اليوم التالي بقصة ذلك الرجل، وكان المتحدث هو توفيق باشا دوس.

هل أستطيع أن أصور ما وقع في ذلك الحديث؟

إن ذلك لا يتم إلا بعد استئذان الرجلين توفيق دوس وحافظ عفيفي.

وإنما يحتاج ذلك إلى استئذان؛ لأنه ليس من اليسير أن أسجل في مثل هذا الكتاب أن حافظ باشا عفيفي غضب غضبة تشهد بأنه نشأ في الريف بين قوم تأبى عليهم الفتوَّة أن يترفقوا حين يغضبون.

وقد وقع دوس باشا في حرج؛ فلا هو يستطيع أن يجادل، ولا هو يستطيع أن ينسحب، وكاد الطعام يقف في الحلوق.

ونظرتُ إلى طلعت باشا أدعوه إلى وقف القتال بين الرجلين العظيمين.

فهل استطاع طلعت باشا أن يحسم النزاع؟

وكيف وقد انفجر حافظ عفيفي كما ينفجر الفلاح الشريف حين يغضب، وللفلاحين الشرفاء غضبات.

وانتهت المائدة بما يشبه السلام، ومضى توفيق دوس إلى جانب، وحافظ عفيفي إلى جانب، وعدت إلى نفسي أتأمل ما بين رجالنا من فروق في تصور ما في الحياة من جِدّ ومزاح.

أشهد أن ذلك الموقف أطلعني على جوانب من الرجولة المصرية؛ فقد كنت أظن أن الرجال الذين وصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة قد صقلتهم الأيام وأبعدتهم عن مواطن القسوة والعنف، فلما رأيت ما وقع بين توفيق دوس وحافظ عفيفي عرفت أن الفطرة المصرية لا تزال بحمد الله سليمة، وأن الرجل المصري لا يزال صالحًا للتأثر بعوامل الرضا والغضب، والحمد والملام.

فمن يبلغ نسيم باشا أني استحضرت روحه في الباخرة لا في مجلة الصباح؟

من يبلغ نسيم باشا أن العدوان عليه لم يمضِ بلا عقاب؟

قلت: إن توفيق باشا دوس وقع في حرج، فلأذكر أنه احترم غضبة زميله كل الاحترام؛ لأنه أحس أنه يفصح عن قلب عامر بالوجدان.

أولئك رجال، والرجال لا تؤذيهم الصراحة، ولا يكربهم المنطق، وهم لا يتصافون إلا صادقين، ولا يتعادون إلا صادقين.

وحين اقتربنا من بيروت مضيت إلى مكتب الباخرة لأدفع حسابي، فعرفت أن أحد الباشوات دفع الحساب عن جميع المصريين، فمن ذلك الباشا الذي دفع عنا؟

ليتني أعرف من هو لأسأل الله أن يدفع عنه جميع المكاره ويسبغ عليه ثوب العافية!

كان في منهج الرحلة أن أمتطي سيارة من بيروت إلى دمشق لأستريح هناك ليلة ثم أسافر إلى بغداد، ولكني فوجئت بخبر مزعج هو إضراب أصحاب السيارات، وإنما كان هذا الخبر مزعجًا؛ لأنه يوجب أن أسافر بالقطار وهو يقطع في اثنتي عشرة ساعة ما تقطعه السيارة في ساعتين اثنتين! وذلك شاهد جديد على عنف المنافسة بين السيارات والقطارات.

وما كدت أدخل دمشق حتى عرفت أنه يجب أن أسافر إلى بغداد في الحال؛ لأن السيارة تنتظر قدومي: فقد حضر المسافرون ولم يتخلف أحد سواي، ومعنى ذلك أن أقضي ليلتين متواليتين في سفر بدون أن أستريح. والله المستعان على متاعب الصحراء!

وشرع الخاطر يستعيد ما مر في الرحلة من الطيبات، فتذكرت العروسين اللذين رأيتهما في الباخرة، وتذكرت اللحظات التي قضيتها في بيروت، وتذكرت الحبيبين اللذين قضيا الليل متعانقين في القطار، وأنا أشهد صراع العواطف وصيال القلوب.

ولكن ذلك كله لم يؤنس روحي.

وتلفتُّ فجأة فرأيتني أقاتل الدكتور طه حسين وهو يحاول الخلاص فلا يطيق.

ولكن كيف قاتلت الدكتور طه حسين وأنا في الطريق إلى بغداد؟

كان هذا الباحث الكبير ألقى محاضرة في الإذاعة المصرية منذ أشهر عن الصور التي انتقلت من الشعر الجاهلي إلى الشعر الإسلامي، وهي محاضرة قامت على غير أساس، ولكنها مع ذلك ظفرت بالقبول من المستمعين؛ لأن لأحاديث هذا الرجل بريقًا يصور الخطأ بصورة الصواب.

قال الدكتور طه ما معناه: «كان الشاعر الجاهلي يصف رحلته إلى ممدوحه فيصورها شاقة متعبة، فجاء الشاعر الإسلامي ونقل عنه هذا الوصف، مع أن السفر صار في العصر الإسلامي سهلًا لينًا».

ذلك كلام قاله الدكتور طه حسين، وسمعه الملايين من الناس.

فهل يستطيع هذا الباحث الكبير أن يثبت كيف سهلت الأسفار في عصر بني أمية أو عصر بني العباس؟

هل يستطيع أن يثبت أن الخلفاء شَقُّوا طريقًا واحدًا بين بغداد والبصرة، أو بين الكوفة والموصل، أو بين دمشق وبغداد؟

لقد عانيت العذاب وأنا أقطع بالسيارة ما بين النجف وكربلاء، على قرب ما بين هاتين المدينتين.

ولو قضى الدكتور طه خمسًا وعشرين ساعة وهو محبوس في السيارة بين دمشق وبغداد لعرف أن الشكوى من عذاب السفر شكوى طبيعية لا ينقلها الشعر الإسلامي عن الشعر الجاهلي إلا إذا أراد الباحث أن يسلك مسلك الدكتور طه في الهيام بأودية الفروض!

ثم وقع حادث صرفني عن مشاغبة الدكتور طه حسين؛ فقد رأينا سربًا من الظباء الوحشية يعدو عدوًا سريعًا، ولم يكن لذلك السرب بدٌّ من اعتراض السيارة، والظباء لا تخلو من حمق، فصوَّب فخري بك البارودي مسدسه وأطلق على السرب رصاصتين فضاعتا في الهواء ونجت الظباء.

أيها القانص ما أحسنت صيد الظَّبْياتِ
فاتَكَ السّرب وما زوِّدت غير الحسراتِ

وسألت عن السبب في حرص ذلك السِّرب على اعتراض طريق السيارة فقال أحد الخبراء: إن الغزلان لا تنحرف عن الطريق الذي رسمته لنفسها حين تعدو، ولو لقيت الحتف!

فيا أيها الظباء، إياكم والعناد!

كانت الرحلة متعبةً جدًّا، ولم يخففها إلا الشعور بشرف الغرض، وهو مواساة العراق.

فكيف لقيت بغداد؟

وكيف كانت حفلة التأبين؟

وكيف جال الخطباء والشعراء؟

٢

وصلنا إلى الرمادي مع طلوع الفجر، والوصول إلى الرمادي هو بشير القرب من بغداد، إلا في هذا الموسم: موسم طغيان الفرات.

ولم نكد ندخل الرمادي حتى رأينا في استقبالنا جماعة من كرام الموظفين هناك، وتلطف مدير الشرطة في تلك المنطقة فأوفد في صحبتنا شُرطيًّا يجتاز بنا طريقًا يوفر من الوقت نحو ساعتين، وبعد أن كافحت السيارة ما كافحت في الطواف حول مياه الحبّانية وصلنا إلى الفَلُّوجة ونحن من التعب أنضاء.

والفلوجة قرية على شاطئ الفرات بينها وبين بغداد مسير ساعة بالسيارة، وهي اليوم مقر الشاعر معروف الرصافي، وإليها حججت في العام الماضي لأؤدي إليه تحية الأديب للأديب.

وكانت رؤية الفلوجة إيذانًا صريحًا برؤية بغداد، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان: فقد أرادت بغداد أن تفهمنا بلغة صريحة أنْ لا بد من الشعور بقوة الجيش لمن يواجه «دار السلام».

خطت السيارةُ خطوات، ثم وقفت؛ لأن هناك فارسًا يشير إليها بالوقوف.

وجاء الفارس فأفهمنا أن الجيش في مناورة قد تدوم نحو ساعتين، وأن السير نحو بغداد قد يعرِّضنا لخطر الرصاص.

وعندئذ أشار أحد الرفاق بالرجوع إلى الفلوجة، ولكني كنت أعرف ما يريد ذلك الرفيق، فعارضت في الرجوع، وهل كان يريد إلا الظفر بأنس ساعة أو ساعتين في ضيافة السيد إبراهيم صالح شكر متصرف الفلوجة؟!

وفي تلك الغمرة من ضجر الانتظار في أعقاب ذلك السفر الشاق تلفتُّ فرأيت ذهني يعالج مشكلة لغوية؛ فقد نطق الفارس كلمة «مناورة» بفتح الميم لا بضمها، كما ينطق المصريون، فقلت: ألا يمكن أن تكون كلمة مناورة تعريبًا للكلمة الفرنسية Manoeuvre، وكان التفكير في هذه المشكلة اللغوية كافيًا لنجاتي من متاعب ذلك الانتظار الثقيل.

قد يكون ما افترضتُه صحيحًا، إلا أن يتقدم أحد أعضاء المجمع اللغوي فيثبت أن كلمة مناورة كانت معروفة في التعابير العسكرية العربية، كما استطعت أنا أن أثبت أن علماء البلاغة ظلوا مئات السنين يهرفون بما لا يعرفون في انتقاد قول المتنبي:

فإن يكُ بعض الناس سيفًا لدولةٍ   ففي الناس بوقاتٌ لها وطبولُ

فقد زعموا أن المتنبي أخطأ حين جمع بوقًا على بوقات، وكانوا هم المخطئين؛ لأن بوقات ليست جمع بوق، وإنما هي جمع بوقة، وهي لفظة اصطلاحية في الأنظمة العسكرية العربية، ولها شواهد تعد بالمئات لمن يراجع كتب التاريخ.

ثم تلطف أحد الفرسان الذين يرقبون المناورات فاختار لنا طريقًا ندخل به بغداد في أمان.

الله أكبر ولله الحمد!

هذه بغداد، وهذا قيظ بغداد، وهو على روحي رَوْح وريحان.

وأولئك إخواني يلقونني بالابتسام والعناق.

ولكن هل خَفَق قلبي لرؤية بغداد؟

وكيف وقد شعرت أني ما فارقتها من قبل؟ وكذلك لم أتمثل بقول الشريف:

فيلقى بها بغداد كل مكبِّرٍ   إذا ما رأى جدرانها وقبابها

مع أني كنت أتمثل بهذا البيت حين أَفِد إليها من البصرة، أو من الموصل، أو من كربلاء.

وهل فارقت بغداد حتى أشعر بنعمة الرجوع إلى مرابع بغداد؟

إن بغداد لم تفارقني ولم أفارقها منذ تلاقينا أول مرة في موسم التمر سنة ١٩٣٧، ومن المؤكد أني لن أفارق هذا البلد أبدًا، ولن أنساه، ولن أُفرِّط في حبه، ولن أترك فؤاده خاليًا من هواي، ليحتله عاشق سواي.

وأحملُ في ليلى لقومٍ ضغينةً   وتُحمَل في ليلي عليَّ الضغائنُ

نزلت في فندق مود مع وفد مصر، وأسرعت فأصلحت من شأني لأستعد للتحيات والتسليمات، وفتحت النافذة لأمتع بصري برؤية السائرين في شارع الرشيد، ثم أقبل الخادم يقول: الجارم بك يسأل عنك.

الجارم يسأل عني؟

هذا والله غاية العجب!

ونزلت فرأيت سعادة حمد باشا الباسل ففرح بلقائي فرحًا شديدًا، وسألت عن الجارم فعرفت أنه ذهب لزيارة الأستاذ طه الراوي.

وبعد لحظات جاء الجارم، وما كان ينتظر أن يراني هذه المرة في بغداد، فسلم تسليم الشوق، ونطقتْ معارف وجهه بالابتهاج والارتياح، وتناسى ما كتبتُ عنه في كتاب «ليلى المريضة في العراق».

فمن هو الجارم الشاعر؟

أعترف بأني ألاقي عنتًا في الحديث عن هذا الرجل؛ لأن بيننا تِرات تثورُ عقابيلُها من حين إلى حين.

ولكن لا بد من تسجيل رأيي في الشاعرية التي تفجرت في صدر هذا الرجل منذ أعوام.

في صيف سنة ١٩٣٢ مات الشاعران حافظ وشوقي فكتبت في البلاغ مقالًا أقول فيه ما معناه: «لقد استبد حافظ وشوقي بالشعر وأخملا مئات من الشعراء، فهل يكون موت هذين الشاعرين فرصة لظهور المواهب التي أخملها ذلك الاستبداد؟»

ولقيني الجارم بعد ظهور تلك الكلمة فقال: الحق معك يا دكتور زكي، هذه فرصة تظهر فيها يا حضرة الأخ، ومن الواجب أن نحفظ راية الشعر لهذه البلاد.

غير أن الجارم لم يستفد من موت حافظ وشوقي ولم يوفق إلى شيء طريف.

ثم شاءت المقادير أن يصير شاعرًا كبيرًا تُنصب لشعره الموازين: فقد مات ابنه الأكبر، وكان من النوابغ بين طلبة كلية الهندسة، وبموت ذلك الابن النابغة خُلق الجارم خلقًا جديدًا، فهو اليوم أكبر شعرائنا في نظم قصائد الرثاء.

فإن رأيتم الجارم يلبس شارة السواد في جميع الأوقات فاعلموا أنه حزين حزنًا أبديًّا، ثم تذكروا أن هذا الحزن هو الذي خلق منه ذلك الشاعر الذي تعرفون.

أحسن الله عزاءك أيها الشاعر، وكتب العافية لقلبك الجريح!

كنا مشغولين بالتفكير في رثاء الملك غازي، ولكن حمد باشا كان له شاغل آخر، شاغل مزعج: هو الخوف من أن لا يوفق إلى الصلح بين القبيلتين المتعاديتين قبيلة شمَّر وقبيلة العبيد.

ومضينا لتناول الغداء عند فخامة رئيس الوزراء فلم يُخفِ حمد باشا جزعه على مصير قضية الصلح، فابتسم رئيس الوزراء وقال: ولكن ما مصدر هذا التخوف؟ فقال

حمد باشا: أنا في بغداد منذ يومين ولم يحضر أحد من المتخاصمين للتسليم عليَّ. فقال رئيس الوزراء: إن المتخاصمين يقيمون في بغداد في مكانين متباعدين، والحكومة تسهر عليهم لئلا تتجدد أسباب القتال.

وقد تأذيت حين سمعت هذه الكلمة: فمنها عرفت أن مهمة حمد باشا ليست هينة، ودعوت الله أن يجزيه على حسن نيته فيجمع ما تنافر من تلك القلوب.

وما هي إلا لحظة حتى استطاع الجارم أن يغير مجرى الحديث.

ولكن كيف؟

أخذ يسأل عن أخبار ليلى ويثير الخصومة بيني وبين فخامة نوري باشا السعيد بحجة أني أسندت إليه وقائع في كتاب ليلى المريضة في العراق، وهي وقائع تحتاج إلى تحقيق!

ورجعت إلى الفندق لأستريح، فقد كنت قضيت أيامًا في أسر غبار الطريق، وما كدت أداعب الأحلام حتى سمعت صوت الخادم: دكتور، دكتور، تليفون من كربلاء!

وأسرعت إلى التليفون فرأيتني أواجه الكاتب الذي شغل نفسه بحديث الليل في القاهرة والقاهرة في الليل، وهو السيد عبود شلاش.

ورجعت فرأيت جماعة من الإخوان في انتظاري فلم أستطع الانصراف عن إمتاع النفس بحديثهم الجميل.

وفي المساء شرعت أستعد لإكمال خطبتي في رثاء الملك غازي، ولكن الأستاذ المازني كان حضر بالطيارة، ولم يكن بدٌّ من الأنس بسؤاله عن أندية القاهرة وعن شارع فؤاد.

وجاءت سيارة الأستاذ طه الراوي تنقلنا إلى داره العامرة، فقضينا هنالك صدر الليل.

متى أكمل خطبتي؟

أكملها بعد أن أسال عن جيراني في المنزل الذي كنت أقيم فيه بشارع الرشيد.

يا له من منزل، ويا لهم من جيران!

اهتديت بنور القلب إلى الشقة رقم ... بالرغم من سواد الظلام.

ولكن نحن في نصف الليل، فهل من الذوق أن أطرق باب الجيران القدماء في نصف الليل؟

ليتني فعلت، فما كان بيني وبين أولئك الجيران حجاب!

ومضيت فطوفت بشارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغواني لأتنسم أرواح ليلى وظمياء.

وهل كان يمكن أن أبيت في بغداد ولا أطوف بدار ليلى ودار ظمياء؟

أين خُطبتي؟ أين؟ أين؟

لقد كتبت منها صفحات في ليلة السفر، ولم تعجبني، فما الذي أصنع؟

أترك ذلك إلى الصباح، فللنهار عيون، كما يعبر أهل سِنْتريس.

ما هذا؟ وما الذي جد من الشؤون بعد أن فارقت بغداد؟

أولئك تلاميذ يسيرون في الطرقات في ملابس جديدة وفقًا لنظام جديد يُسمى نظام الفتوة، فما هو ذلك النظام؟ وما قيمته في حياة التعليم؟

هل جئت للاشتراك في تأبين الملك غازي؟ أم جئت لتسجيل ما جد من الأنظمة في وزارة المعارف؟

إن حفلة التأبين سيشترك فيها خمسة من المصريين، فليكن من واجبي أن أقضي هذا اليوم في عمل آخر هو فهم هذا النظام الذي ابتكرته وزارة المعارف العراقية، وهل أعددت خطبتي حتى أطلب مكاني بين الخطباء في حفلة التأبين؟

إلى وزارة المعارف

فقد أستفيد شيئًا أنتفع به في الأيام المقبلات.

٣

في صباح يوم الأحد، وهو اليوم الخاص بتأبين الملك غازي، شغلت نفسي بمسألتين: الأولى إعداد خطبتي، وكانت الحفاوة بالمازني شغلتني عنها ليلة أمس، بغض النظر عن اللحظات التي قضيتها في التعرف إلى معالم الهوى في بغداد.

والمسألة الثانية هي زيارة وزارة المعارف للتسليم على إخواني هناك، ولمعرفة بعض التفاصيل عن نظام الفتوة الذي فرضته تلك الوزارة على التلاميذ.

أما الخطبة فيظهر أني لن أكملها أبدًا؛ لأن إكمالها يوجب أن أخلو إلى قلمي بضع لحظات، وذلك في حكم المستحيل؛ لأن من عادة أهل بغداد أن يسلموا على ضيوفهم ويؤنسوهم بالزيارات، وفي هذا ما يشغلني عن الخلوة إلى قلمي.

وبقليل من التأمل عرفت أنه لا موجب لأن أهتم بإلقاء خطبة في الحفلة التي ستقام بعد العصر في أمانة العاصمة؛ لأني آخر من حضر من مصر، ولأن منهج الحفلة طُبع قبل أن أحضر، وليس من العقل أن أطالب بمكاني في ذلك الاحتفال وأنا أعرف أني تأخرت في الحضور، وأعرف أن خطبتي لم تُكتب بأسلوب يرضيني.

وما الغرض من الاشتراك في حفلة التأبين؟

الغرض هو إظهار العطف في مواساة العراق، وهذا العطف سيظهره خمسة من رجال مصر لهم في الشعر والخطابة مكان مرموق.

فإن لم يكن بدٌّ من أن أتكلم فهناك مجال آخر هو الإذاعة اللاسلكية، وتلك فرصة باقية سأنتفع بها حين أريد.

بقيت المسألة الثانية وهي زيارة وزارة المعارف لدرس نظام الفتوة، ولكن كيف أستطيع ذلك، وأنا مسئول عن مصاحبة الوفود العربية لزيارة الضريح الذي دُفن فيه الملكان فيصل وغازي؟

إن هذه الزيارة لها قيمة معنوية، وفيها يلتقي الوفود بعضهم مع بعض، وسنذهب لزيارة الوزارات بعد أن نقيد أسماءنا في سِجِلَّات البلاط.

وفي حومة التفكير في هذه الشؤون قدم لتحيتي صديق عزيز فقال والدموع في عينيه: شكر الله سعيك يا دكتور، فبغداد تستحق منك المواساة، لقد كانت بغداد في زينة العروس أيام آذار، ففيه احتفلنا بميلاد الملك غازي الأول، وفيه احتفلنا باستعراض الجيش، وفيه احتفلنا بفتح سَدَّة الكوت، ولم نكن ندري أن المقادير ستفرض على بغداد أن تلبس بعد ثوب العرس ثوب الحداد.

وعزَّ عليَّ أن أسمع هذه التفاصيل المبكيات، ثم تعزيت حين تذكرت أن الحزن والفرح لونان أساسيان من ألوان الوجود.

يقع ذلك الضريح في الأعظمية، والأعظمية محلة عزيزة غالية، فيها مراتع للظباء، ومرابض للأسود، وهي صلة الوصل بين الكاظمية وبغداد.

والأعظمية منسوبة إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وهو في رأيي أعظم الفقهاء؛ لأنه درس الحياة قبل أن يدرس التشريع.

والطريق بين بغداد والأعظمية يشبه الطريق بين مصر الجديدة والعباسية، ولا يعوزه إلا الترام الأبيض ليكون نزهة الأبصار في الضحى والأصيل.

مضيت إلى الضريح وأنا حزين، وكم كنت أود أن أرى الأعظمية في غير أيام الأحزان، فما خُلِقَتْ تلك المحلة إلا لتكون بهجة الأرواح والقلوب.

ما أنتِ والحزن، أيتها الأعظمية؟

إن الضريح في أديمك الغالي هو الخال في صفحة الخد الأسيل.

ما أنتِ والحزن، أيتها الأعظمية، وقد خُلْقتِ من الأنوار، وخُلق الحزن من الظلمات؟

أمثلي يسير فوق ثراك وهو محزون، بعد أن ذاق في حماك أفاويق النضرة والنعيم؟

لغير قلبك الخفاق يكون الشقاء، أيتها الأعظمية!

ولغير لياليك البيض يكون السواد، أيتها الأعظمية!

والعيش كله فداءٌ للحظة من نعيم الحب في مغناك الأمين أيتها الأعظمية!

حماك الله يا دار الهوى، من اللواعج والشجون!

حماك الله، يا دار أحبابي وأصدقائي، من كل ضيم، وردَّني بخير وعافية إلى لياليك المقمرات، فما كنتِ إلا بدرًا بدَّد الظلماتِ من غمرات قلبي!

دخلنا فزرنا الضريح، ضريح الملكين فيصل وغازي، وآذانا أن نتذكر أن العراق فقد ملكين في مدة تشبه أعمار الورود، وزاد الحزن حين تذكرنا أن العراق كان يتشوف إلى ثبات الاستقرار في عهده الجديد، ثم تعزينا حين عرفنا أن العراق أقوى وأعظم من أن تعصف به عواصف الجزع والقنوط.

وحين دخلنا البلاط خلعنا عن قلوبنا أردية الاكتئاب، وأحسسنا أرواح البهجة تحيط بنا من كل جانب، ورجونا أن تدوم الهيبة لذلك العرين.

وفي البلاط أخذ أبناء العروبة يتعرف بعضهم إلى بعض، وكان المصريون بحمد الله أظهر الرجال في ذلك اليوم المشهود.

وتقدم أحد شعراء لبنان فقال: حيث حلَّت مصر حلت البَرَكات والطيبات.

فقلت: لأن مصر تشعر أن لها سنادًا من القلوب العربية، والسناد الأقوى هو سناد القلوب.

ثم توجهنا إلى رياسة مجلس الوزراء فقضينا لحظات في ضيافة حضرة صاحب الفخامة نوري باشا السعيد، ومضينا بعد ذلك إلى وزارة الخارجية، ثم عرجنا على أمانة العاصمة فابتسم أحد العراقيين وقال: هذا معالي السيد أرشد العُمَري أبو السدارة! فصافحني معالي الأمين وهو يقول: نريد نعمل لنا فرد حكاية جديدة!

فقلت: ليت أيامي وأيامك تعود، يا معالي الأمين!

وكان ذلك إشارة طريفة إلى الحوادث التي سجلتها في كتاب «ليلى المريضة في العراق».

ومضيت إلى وزارة المعارف فوجدت الوزير في لجنة علمية، فاتجهت إلى السيد محمد حسين الشبيبي أسلِّم عليه، واستأذنت بعد لحظات لأرى تلاميذي بدار المعلمين العالية فصاح: يا فرحتاه! يا فرحتاه!!

إي والله، يا فرحتاه، يا فرحتاه!!

كيف شاءت المقادير أن أرى تلاميذي بدار المعلمين العالية وقد ودعتهم بالدمع السخين منذ أحد عشر شهرًا؟

وهل اتفق لأحد من الأساتذة أن يحب تلاميذه كما أحببت تلاميذي في بغداد؟

لقد توجع تلاميذي لفراقي توجعًا لم يعرفه أبرار الأبناء لفراق الآباء الأعزاء، فكيف أنسى تلاميذي في بغداد؟

كيف أنسى تلاميذي هناك وما كانوا إلا صورًا لطيفة لتلاميذي الأوفياء بالجامعة المصرية؟

كيف أنسى تلاميذي في العراق وبهم عرفتُ كيف يقوى القلب ويسمو الروح؟

كيف أنسى الأبناء النجباء الذين أحاطوني بأكرم معاني الرعاية والعطف؟

كيف أنساهم وبفضلهم استطعت أن أضع أحجارًا متينة في بناء الحياة الأدبية في العراق؟

كيف أنسى تلاميذي بدار المعلمين العالية وقد أوقدتُ في صدورهم جذوة لن تخمُد ولن تَبيد؟

كيف أنسى تلاميذي في العراق؟

كيف؟ كيف؟

إن أيامي في العراق هي الغرة الواضحة في حياتي الأدبية، فليحفظ الله تلاميذي في العراق، وليجعلهم ذخيرة الأدب وشرف الجيل الحديث!

– ألو، ألو.

– من يتكلم؟

– الدكتور عقراوي؟

– ييس، مَن يتكلم؟

– طبيب ليلى يتكلم!

– الدكتور مبارك؟ أين أنت لأحضر إليك؟

– أنا الذي سأحضر إليك!

– بل أنا الذي أحضر إليك.

– أنت لا تهمني بالدرجة الأولى، يا دكتور.

– ومَن الذي يهمك؟

– يهمني تلاميذي، فاحجزهم حتى أحضر إليك.

وفي دقائق أو ثوانٍ كنت في دار المعلمين العالية.

هل أستطيع أن أشرح كيف فرحت حين رأيت الدكتور عقراوي بصحة وعافية؟

لقد كدت أطير من الفرح حين اطمأننت على صحة ذلك الزميل العزيز.

ومضينا فدخلنا الصفوف بدون استئذان.

فيا ربِّ كيف تلطفتَ فقضيتَ أن أرى تلاميذي في العراق مرةً ثانيةً؟

لقد وثبتْ قلوبهم وثبة عنيفة حين رأوني.

أما أنا فقد عقل الفرح قلبي، وبلبلَ لساني، والفرحُ الشديد أكثر سيطرةً على القلب من الحزن العنيف.

– تلاميذي الأعزاء، كيف أنتم؟

– وكيف أنت، أيها الأستاذ الغالي؟

وجرت ألفاظ وتعابير لا يدرك مغازيها غير أصفياء القلوب.

وانطلقت مع الدكتور عقراوي أدرس ما جَدَّ من البنايات الملحقة بدار المعلمين العالية، وسرَّني أن أعرف أن تلك الدار لن تُهزم بعد اليوم.

إن دار المعلمين العالية هي رجاء العراق في عهده الجديد؛ لأنها تُعِدُ الأساتذة للمدارس الثانوية، وإعداد المعلم المثقف هو الحجر الأول في بناء الشعوب.

ثم رجعت إلى الفندق فرأيت حمد باشا لا يزال في قلق على مصير قضية الصلح بين القبيلتين المتعاديتين، وعرفت أنه سيشير إلى ذلك في الخطبة التي سيلقيها في حفلة التأبين، فقلت: يسمح الباشا باطلاعي على نص الخطبة؟

فقال: فيه شيء؟

فقلت: أحب أن أعرف على أية صورة تشير إلى هذه القضية في خطبتك؟

فأمر خادمه بإحضار الخطبة بدون تردد وهو يقول: أنتم أبناؤنا، والاستئناسُ بآرائكم ينفع كل النفع.

ونظرت في الخطبة فرأيتها غاية في الدقة حتى ليحسب القارئ أن ألفاظها وُضِعت في الميزان.

وعند العصر مضينا إلى بهو أمانة العاصمة لنحضر حفلة التأبين، فهل أجاد الخطباء والشعراء؟ سنعرف ذلك في المقال المقبل إن وجدنا من الشجاعة ما نقول به كلمة الحق.

٤

حفلة عربية

نحن في بَهْوِ أمانة العاصمة في «عصر الأحد» كما عبر منهاج الاحتفال، وكنت أحب أن يقال: «عصرية الأحد» فإن كلمة «عصرية» كلمة جميلة، وهي كذلك كلمة حية في الريف المصري، وهي تماثل التعبير الفرنسي Après-Midi فأرجو أن يَذِيع استعمالها بعد اليوم.

وبهو أمانة العاصمة بناية كبيرة منقولة في أصل الوضع عما يسميه الفرنسيون Hotel de ville، وترجمتها «دار المدينة» أو «دار المحافظة» بالتعبير المصري يوم يكون لمحافظة القاهرة دار تتسع لإقامة الحفلات كما يتسع بهو أمانة العاصمة في بغداد.

والظاهر أن «بهو الأمانة» يختلف في المدلول عما كان يسميه العرب قديمًا «دار الإمارة»؛ فدار الإمارة هي الدار التي كان يجلس فيها الخليفة أو نائبه لاستقبال الوفود.

أما الـ Hotel de ville الذي كان يعرفه العرب فهو المسجد الجامع، فإلى المسجد الجامع كان يتوجه الخليفة أو نائبه لإبلاغ الجماهير ما يهمهم من عظيم الشؤون، وفي المسجد الجامع كانت تذاع أخبار الحرب والسلم، ويُعْرَض على الناس ما جَدَّ في العالم السياسي من مشكلات، وخطبةُ الحَجَّاج في مسجد الكوفة هي من الشواهد التي تؤيد ما نقول.

وأذكر بهذه المناسبة أني شهدت في العام الماضي أعمال التنقيب على جدران دار الإمارة بجانب مسجد الكوفة، ويوم تظهر مساحة تلك الدار سنعرف بعض الشيء عما كانت تصلح له في ذلك الزمان.

تقاليد بهو الأمانة

ولبهو الأمانة في بغداد تقاليد جديدة نقلها معالي السيد أرشد العمري عن نظام الأوتيل دي ڤيل في الممالك الأوربية، عرفتُ ذلك يوم اقترحتُ على معاليه أن يسمح بأن ألقي محاضراتي الأدبية في ذلك البهو لأصل إلى أسماع السواد الأعظم في بغداد.

حدثني معاليه قال: لم أجد بهو الأمانة في أوربا يُستعمل لغير السهرات الراقصة وحفلات القبول.

فقلت: أيباح الرقص في البهو ولا يباح الدرس؟

فأجاب: نعم، هو ذا؛ لأن للدرس أماكن تغني عن هذا المكان.

وأنا أرجو معاليه أن يعدل هذا التقليد بعض التعديل، فقد لاحظتُ أن النقل عن أوربا لا يصلح في جميع الأشياء، وأكاد أجزم بأن بغداد معرَّضة لخطر عظيم بسبب إقبالها على أنظمة المباني الأوربية: فبغداد في هذه الأيام تقيم المنازل الجديدة على طريقة البناء بالأسمنت المسلح، والبناء بالأسمنت المسلح لا يصلح أبدًا في العراق، وستكون له نتائج سيئة في تهديم الأعصاب.

وإذا جاز لمصر أن تؤْثر البناء بالأسمنت المسلح فإن ذلك لا يجوز للعراق؛ لأن مصر قد ازدحمت بالسكان ازدحامًا أوجب غلاء الأرض، ولا كذلك العراق ففيه مساحات واسعة تمنع ذلك الغلاء، ولأن جو مصر أكثر اعتدالًا من جو العراق.

والمأمول أن تصل هذه الرغبة إلى آذان أهل بغداد، ولعلني لا أسرف إذا رجوت معالي السيد أرشد العمري أن يراعي ذلك في إرشاد أهل بغداد إلى متابعة النظام المألوف في الأبنية القديمة، ذلك النظام الذي كان يفرض عرض الجدران لتقي الناس برد الشتاء وحر الصيف.

بداية الاحتفال

ونظرت فرأيت الحفلة تأخرت دقائق عن موعدها، ثم حضر صاحب السمو الأمير عبد الإله؛ فعرفت أنهم كانوا ينتظرون ذلك التشريف.

بدئت الحفلة بآيات من الذكر الحكيم، ثم تقدم صاحب الفخامة رئيس الوزراء فألقى خطبته وهو جالس، ولم تكن خطبة وإنما كانت ضربًا من المحاضرة قامت على أساس القول بأن حالة العرب في العصر الحديث تشبه حالتهم في المدة التي سبقت ظهور الإسلام …

والخطبة تجعل الرسول بطلًا عربيًّا، ولعل فخامة نوري باشا يحدد هذا المعنى في خطبة ثانية، فالرسول كانت مطامحه أوسع وأعم وأشمل، ولم يكن يَقْصِر مساعيه على العرب وحدهم، وإنما كان يريد أن يقوم العالم كله على نظام العدل والتوحيد.

فالقول بأن الرسول بطل عربي هو قول خلقته الظروف التي أوجبت أن يتخلص العرب من سلطان الأتراك، ويوم تزول الظروف التي قضت بأن يبغي بعض المسلمين على بعض سنعرف أن للعروبة غاية باقية هي الدعوة إلى أن يسود العدل والتوحيد في الشرق والغرب.

فمتى يأتي ذلك اليوم؟ ومتى تعود السيطرة الروحية للغة العربية؟

لقد كان العرب إنجليز زمانهم، وكانوا يرون الحنين إلى الوطن ضربًا من الضعف، فمتى يستعدُّون للتخلق بأخلاق الرسول الذي دعاهم إلى اغتنام المنافع المعنوية والمادية بالمشرقين والمغربين؟

متى؟ متى؟ إن ذلك ليس بالمستحيل إذا صحت العزائم وصدقت القلوب.

جو الحفلة

أرادت لجنة التأبين أن تصطبغ الحفلة بصبغة القومية العربية، فلم يتكلم فيها من أهل العراق غير اثنين، وتكلم واحد من شرق الأردن، وثلاثة من سورية، واثنان من لبنان، واثنان من فلسطين، وتكلم خمسة من مصر، منهم معالي الدكتور هيكل باشا، وقد ألقى خطبته الأستاذ محمد بهجت الأثري.

وقد ظفرت أكثر الخطب والقصائد بالقبول، ولم يضجر الجمهور إلا من رجلين اثنين: الشيخ إبراهيم الجبالي، والشيخ محمد اليعقوبي.

فهل أستطيع أن أقول كلمة الحق في الضجر من هذين الرجلين؟

نحن في مصر تعودنا الجهر بكلمة الحق، وعلى الأخص حين تُوجَّه إلى رجل يصلح للحكم على نفسه مثل فضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم الجبالي، فما الذي يمنع من التصريح بأنه لم يُوفق في الخطبة التي ألقاها في بغداد؟

الشيخ إبراهيم الجبالي رجل معروف بالعلم والأدب والفضل، وتفسيرُه لسورة النور يشهد بأنه قد استنار بأساليب البحث الحديث، وهو في الواقع من أكابر العلماء في الأزهر الشريف، ولكن خطبته في بغداد ألقت بجمهور المستمعين في هاوية من السآمة والملال.

فمن أين وصل الخطأ إلى هذا الرجل الحصيف؟

هل كان يعجز الشيخ الجبالي عن إعداد خطبة تُناسب المقام؟

هل كان يعجز عن أسر من يستمعون إليه في بغداد؟

أظن أن الخطأ وصل إلى هذا الرجل من توهمه أنه يمثل الأزهر، واعتقاده أن الأزهر لا يطلب منه غير إلقاء العظات.

وكذلك وقف الشيخ الجبالي موقف الواعظ في مقام لا يصلح للوعظ والإرشاد!

قد يقال: إن مقام الرثاء يتسع للوعظ.

وهذا حق، ولكن تلك الخطبة لم تكن من الوعظ المقبول.

وما أحب أن أدخل في التفاصيل؛ فهو يعرف والذين سمعوه يعرفون.

بقي موقف الشيخ محمد اليعقوبي، وكانت قصيدته جيدة، ولكنه ظلم نفسه؛ فقد توهم أن الناس سئموا طول الاحتفال، فأسرع في إلقاء قصيدته إسراعًا أضاع بهجة القصيدة؛ فحسبها الناس من الشعر الضعيف، وهي من الشعر القوي الرصين.

أما الذين ملكوا ألباب الناس في ذلك اليوم فهم ثلاثة: أولهم علي الجارم، وثانيهم بدوي الجبل، وثالثهم شبلي ملاط، وذلك لا يمنع من الاعتراف بالإعجاب الذي ظفرت به قصيدة الأستاذ محمد الشريقي، وقصيدة فؤاد باشا الخطيب.

وقد كثرت أقاويل الناس في بغداد حول مراكز الخطباء والشعراء، ولكنهم اتفقوا على أن الجارم هو أول شاعر ماجت لشعره القلوب في ذلك اليوم، حتى صح للأستاذ طه الراوي أن يقول: إن الجارم خليق بكلمة ابن رشيق حين قال: «ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس».

وما أقول: إن الجارم أكبر الشعراء في هذا الزمان، ولكن لا جدال في أنه صَنَّاجة العرب في هذه الأيام، فهو ينشد الشعر إنشادًا يفيض بالعذوبة والرنين، ولو سجل الحاكي بعض أناشيده لكانت نماذج من التطريب الجميل.

مذهب «تيسير النحو»

كانت وزارة المعارف المصرية ألفت لجنة في العام الماضي لتيسير النحو، وكانت لتلك اللجنة آراء لا تخلو من تكلف وافتعال.

وفي حفلة التأبين ألقى الأستاذ شبلي ملاط قصيدته وفيها هذا البيت:

وكأنها في صبرها وجهادها   ابن الوليد وطارق بن زيادا

ومنعُ «زياد» من الصرف مع إثبات ألف الإطلاق ضرورة قبيحة جدًّا، وقد اعترض عليها شاعرنا الجارم، فقلت: هذه الضرورة تجري على مذهب تيسير النحو! فصاح: يا لذَّاع، يا لذَّاع، كيف السلامة من شرِّك وعُدوانك؟!

فلسطين فلسطين

وقد تعرض كثير من الخطباء لمحنة فلسطين، وكان الظن أن يكون هذا خروجًا على الموضوع، ولكن ظهر من حماسة المستمعين أن الكلام عن فلسطين له مكان في هذا المقام، ومعنى ذلك أن محنة فلسطين أصبحت محنة قومية يرى العرب من واجبهم أن يشيروا إليها في كل مجال، وبلغت حماسة المستمعين لهذه القضية أن يعترض بعضهم على أنه لم يكن لها نصيب وافر في خطبة صاحب الفخامة لطفي الحفار.

أين خطبتك؟

وفي نهاية الحفلة أقبل جمهور من الأصدقاء العراقيين وهم يقولون: أين خطبتك، يا دكتور؟ فأجبت: سألقيها في الإذاعة.

فقالوا: متى؟

فقلت: بعد ساعة واحدة.

فاتصل الأستاذ إبراهيم حلمي العُمَر بالأستاذ فائق السامرائي (تليفونيًّا) يدعوه إلى حفظ مكاني بين الخطباء الذين سيلقون كلمات التأبين عن طريق الإذاعة اللاسلكية.

ولكن كيف أُلقي خطبة كتبتها ليلة السفر في لحظات ولم تعجبني؟

كيف أعرِّض نفسي لمقام لم أتخذ له العدة الكافية؟

كيف أَلْقَى الناس بكلمة ضعيفة بعد أن سمعوا كرائم الخطب وجياد القصائد؟ كيف أُوذي سمعتي الأدبية في بغداد، ولي فيها أحباب وأعداء؟

وكيف يكون حالي بعد إلقاء هذه الخطبة الضعيفة عند ليلى وظمياء؟

سأكون أشد الناس حمقًا إن عرَّضت سمعتي في بغداد للغمز والتجريح، ولكن كيف أنسحب ومدير الدعاية ينتظرني بوزارة الداخلية؟

مفاجأة غريبة

قلت في نفسي: ما الذي يمنع من أكمل تلك الخطبة بالارتجال؟

أنا أرتجل الخطب بسهولة، وفي مقدوري أن أصل إلى أسماع الجماهير حين أريد.

ومضيت إلى الفندق لإحضار الخطبة التي كتبتها ليلة السفر ولم تعجبني.

فما الذي رأيت؟

لن ينقضي عجبي مما رأيت!

رأيت الخطبة في غاية من الجودة، وليس فيها إلا عيب واحد: هو الإيجاز، ومتى كان الإيجاز من العيوب حتى أحمِّل نفسي ما لا تطيق بافتعال الإطناب؟

وانطلقت مع الأستاذ فائق السامرائي إلى محطة الإذاعة وأنا راضٍ عن خطبتي، ولولا أن تصح كلمة من يتهمونني بحب الثناء على نفسي لقلت: إنها كانت أفصح ما قيل في ذلك اليوم!

درس ينفع

وهذا الدرس أقدمه لنفسي ولتلاميذي:

وأنا أوصي نفسي وأوصي تلاميذي بالقناعة بما تجود به الفطرة، فليست البلاغة في الاحتفال بما نكتب وما نقول، وإنما البلاغة في الاستجابة لصوت الفطرة والطبع والوجدان.

وإذا لم يكن بدٌّ من الاهتمام بما نلقَى به الجماهير من خطب ورسائل فليكن ذلك الاهتمام يقظة وجدانية وروحية وعقلية. أما الحرص على الزخرف والتنميق فهو آفة البيان.

والأصل في البلاغة أن نقدر على أن نشغل المستمعين والقراء بأنفسهم، ولا نصل إلى ذلك إلا حين نسيطر عليهم بقوة المعنى وقوة الروح، أما الزخرف فهو يشغل القراء

والمستمعين بالتفكير في شخصية الكاتب والخطيب، وتلك غاية صغيرة لا تستهوي كبار الرجال.

والكاتب الحق هو الذي ينسيك نفسه ليشغلك بنفسك.

الكاتب الحق هو الذي يجعل وجدانك وعقلك وقلبك ميدانًا للمصاولات الأدبية والعقلية فينقلك من حال إلى أحوال.

أما الكاتب الذي يشغلك بنفسه وهو ينمق ويزخرف ويعتسف فقد يحولك إلى خصم للفكرة التي يحاول أن ينقلها إليك.

ولا يصلح أهل البيان للسيطرة على من يقرأون ومن يستمعون إلا إذا كانت الفكرة غلبت على عقولهم وألبابهم غلبة قوية بحيث يكون كل حرف من كلامهم محملًا بصور المعاني والأرواح، وهل كان الغرض من البيان إلا جعل المعنى رسالة الروح؟

وفي اليوم التالي حضرنا الحفلة التي أقامها حضرة صاحب السمو الأمير عبد الإله على شرف الوفود العربية، بعد أن زرنا ثكنات الجيش، فما الذي رأيناه هنا وهناك؟[١]

٥

– إيش لون ليلى؟

– عوفيتْ ليلى ومرض الطبيب!

انقسم وفد مصر في بغداد إلى طوائف: الطائفة الأولى مكوَّنة من سعادة حمد باشا الباسل وإخوانه أعضاء لجنة الصلح، والطائفة الثانية مكونة من العلماء والأدباء الذين قدِموا بغداد للاشتراك في حفلة التأبين، والطائفة الثالثة مكونة من الدكتور زكي مبارك الأديب والدكتور زكي مبارك الطبيب، والدكتور زكي مبارك الحيران بين الأدب والطب والعشق!!

والواقع أن أيامي الجديدة في بغداد كانت تستوجب الشفقة والعطف؛ فقد كان لسائر الزملاء غرضٌ واضحٌ محدود، أما أنا فقد تفردت بالحيرة، وهُيام القلب.

[١] سنرى أن الكاتب شغلته ليلاه عن الوفاء بهذا الوعد فلم يصف حفلة البلاط ولم يتكلم عن الجيش، ولعله اكتفى بما ورد من أمثال هذه الشؤون في كتاب (ليلى المريضة في العراق).

كنت أريد أن أعرف ما جد من الشؤون بوزارة المعارف.

وكنت أحب أن أُلقي درسًا أو درسين على تلاميذي بدار المعلمين العالية.

وكنت أحب أن أجدد العهد بالديار التي عرفتها بالرصافة والكرخ والكرادة والأعظمية والكاظمية.

وهناك غرض أهم من كل أولئك الأغراض، وهو الأنس بزيارة ليلى وزيارة ظمياء.

وا حرَّ قلباه من شماتة الشامتين!

من الذي يصدق أن ليلى لم تسأل عني وقد قضيتُ ثلاثة أيام في بغداد؟

من الذي يصدق أن ليلى تركت دارها بشارع العباس بن الأحنف؟

طوَّفتُ بذلك الشارع ليلتين متواليتين، ثم تشجعتُ فطرقت دار ليلى في منتصف الليل، فوجدت هناك ناسًا لم أعرفهم من قبل فحدقوا في وجهي طويلًا ثم قالوا: «الطبيب المصري، غير؟؟»

فقلت: «وهذه دار ليلى، غير؟؟»

فقالوا: «إن ليلى تحولت».

فقلت: «تحولت عن عهدي؟؟»

فقالوا: «تحولت عن الدار».

فقلت: «وإلى أين؟»

فقالوا: «لا ندري إلى أين».

ورجعت إلى الفندق كاسف البال، فرأيت جماعة من المصريين والعراقيين يَسْمُرُون بجانب الشط، فابتسم حمد باشا وهو يقول: ما هذه السّدارة على رأسك؟ فقال الجارم بك: هي طاقيّة الإخفاء، ألم تلاحظ يا باشا أن الدكتور زكي يلبس الطربوش في النهار ويلبس السدارة في الليل؟

وما كنت لأنزعج من دعابة الجارم، فتلك شِنشنةٌ أعرفها من أخزم! ولكن البلاء كل البلاء هو في تحول ليلى عن دارها بشارع العباس بن الأحنف وتفريطها الأثيم في السؤال عني، وأنا الذي عطرت باسمها جميع الأندية، وجعلت حديثها شغل الأفئدة والقلوب.

ما الذي أنكرت ليلى من أمري حتى تصدف عني؟

ليتني أعرف! ليتني أعرف!

ومضيت إلى غرفتي لأستريح من كرب اليأس ولجاجة بعض الأصدقاء.

وما كدت أخلع أثوابي حتى جاء الخادم يصيح: سيدي، أنت مطلوب بالتليفون!

فقلت: تليفون بعد نصف الليل؟ أنا غير حاضر للتليفون!

وبعد لحظة رجع الخادم مبهورًا وهو يصيح: سيدي، إن ليلى هي التي تطلبك!

وأسرعت فارتديت ثيابي من جديد وخرجتُ، فرأيت الدنيا تموج من حولي وقد حضر الذين كانوا بجانب الشط ليسمعوا شيئًا من حديث ليلى.

– ألو، ألو، من يتكلم؟

– ليلى!

– ما هذا صوت ليلى.

– بلى، هو صوت ليلى.

– أبدًا ما هو صوت ليلى.

– ولا صوت ظمياء؟

– ولا صوت ظمياء.

– دكتور، دكتور، أنا فوز!

– وماذا تريدين، يا فوز؟

– أريد أن أبلغك رسالة من ليلى.

– وما رسالة ليلى، يا فوز؟

– ليلى تقول إنك لم تفهم كيف اختارت الإقامة بشارع العباس بن الأحنف!

– إيش لون؟

– ليلى تقول إنها كانت اختارت الإقامة بشارع العباس بن الأحنف؛ لأنه الشاعر الذي تفرد بإجادة القول في الكتمان، فهو الذي يقول:

لأخرجنَّ من الدنيا وحبُّكمُ　　بين الجوانح لم يشعر به أحدُ
حسبي بأن تعلموا أن قد أَحَبَّكُمُ　　قلبي وأن تسمعوا صوت الذي أجدُ

وهو الذي يقول:

كذبتُ على نفسي فحدثتُ أنني　　سلوتُ لكيما ينكروا حين أصدُقُ
وما من قلًى مني ولا عن ملالةٍ　　ولكنني أُبقي عليك وأُشفِقُ
عطفتُ على أسراركم فكسوتها　　قميصًا من الكتمان لا يتخرَّقُ

وهو الذي يقول:

قد سَحَّبَ الناس أذيال الظنون بنا وفرَّق الناس فينا قولهم فِرَقا
فجاهلٌ قد رمى بالظن غيرَكمُ وصادقٌ ليس يدري أنه صدقا

– تلك رسالة ليلى، يا سيدتي؟
– نعم، هي رسالة ليلى.
– فهل تبلِّغين ليلى أني كتمت هواها كل الكتمان؟
– أنت كتمت هوى ليلى وقد فضحت نفسك في حبها بكتاب يقع في ثلاثة مجلدات؟!
– وهل يفتضح المرء حين يشرح هواه بكتاب في ثلاثة مجلدات؟!
– أشهد أن التضليل لا يعظُم عليكَ!
– أنا مضلِّل، يا فوز؟
– حوشيتَ من التضليل!
– اسمعي، يا فوز!
– قل أسمع!
– بلِّغي ليلى أن العباس بن الأحنف هو أيضًا الذي يقول:

أما الهوى فهْوَ شيءٌ لا خفاء بِهِ شتان بين سبيل الغيِّ والرَّشَدِ
إن المحبين قومٌ بين أعينهم وَسْمٌ من الحب لا يخفى على أحدِ

– ثم ماذا؟
– وهو الذي يقول:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتصبًا بثِقْل ما حمَّلوني في الهوى قعدوا
جاروا عليَّ ولم يُوفوا بعهدهمُ قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا

– اسمع، يا دكتور، واعقل.
– إن بقي لي سمعٌ وعقل!

– إن ليلى توصيك برياضة نفسك على اليأس، وترجو أن ترحم نفسك من الهُيام بشوارع بغداد في الليل، فلن تهتدي إلى دارها الجديدة ولو استظهرتَ بألف دليل، وسلامٌ عليك بين الهائمين في أودية الضلال!

أفي الحق أني لن أدخل دار ليلى بعد اليوم؟

أفي الحق أن ما كان بيننا لن تكون له رجعةٌ ولا مَعاد؟

وماذا تريد هذه الحمقاء؟

أكانت تريد أن أكون قطعة من ثلوج الشَّمال لا تصهرها الشمس؟

أكانت تريد أن أكون صخرة خرساء لا تُحِسُّ نسمات الأصيل؟

أنا أستأهل التأديب، فقد شغلتُ نفسي وقلمي ولساني بالحديث عن الملاح، في زمن لا يقيم دولةً للحسن ولا يعترف للجمال بسلطان.

وليلى نفسها لا تحفظ العهد ولا تَرْعَى الجميل.

وإلا فكيف ضاعت الأقسام والعهود؟

وكيف بدد الأثير ما كان لقُبُلاتنا من رنين؟

والآن توصيني ليلى بأن أروِّض قلبي على اليأس، وهي التي كانت تثور حين أملك الصبر عنها يومًا أو بعض يوم!

سأنتقم! سأنتقم!

سأقول كما يقول أنصاري في العراق: إن ليلى شخصية خيالية أبدعَها قلمي ليمدَّ اللغة العربية بألوان جديدة من السحر والفتون.

وهل أسرف أنصاري حين قالوا بذلك؟

إنهم كانوا يريدون أن يُنجوني من دسائس الحاقدين واللائمين، وكانت حجتهم أني معلم صالح، والمعلم الصالح لا يتحدث عن الهوى والفتون إلا وهو يَرمُز إلى حقائق وأضاليل من أسرار المجتمع وسرائر القلوب.

وقد نجح أنصاري في الدفاع عني، فأنا عند أهل العراق شخصية صوفية لا تقل روعة عن شخصية ابن الفارض وشخصية الحلاج.

نجح أنصاري في الدفاع عني.

نجحوا، ثم نجحوا.

ولكني أعرف، وا أسفاه، أن ليلاي في العراق ليست شخصية خيالية، وإنما هي امرأة من لحم ودم وأعصاب، تأكل القلوب وتذرع الأرض من الزوية إلى الكاظمية، وتصنع بأرواح الوجود ما تصنع الصهباء!

سأنتقم! سأنتقم!

سأنكر أن ليلى أرهفت قلمي.

سأنكر أن ليلى سحرت قلبي.

سأنكر أن ليلى سوداء العينين، وسأنكر أن حديثها أطيب من بُغام الظباء، وسأقول في كل أرض: إن ليلاي نجدية لا عراقية، وربما تحولتُ فنقلتُ هواي إلى لبنان!

كل ذلك ممكن، ولكني أخشى أن يصبح تحقيقه من المستحيل.

لو كانت ليلى تعقل لعرفت أن التجني على رجل مثلي إِثْمٌ صُرَاح.

أشهد أنني أحمق وأن ليلى حمقاء.

فلو كنت أعقل لاستنجدت بسعادة حمد باشا الباسل ليصلح ما بيني وبينها، وهل كان ما بيني وبين ليلى أقل خطرًا من العداوة التي ثارت بين القبائل العراقية؟

ولو كانت ليلى تعقل لعرفت أن أيامي في بغداد أقصر من أن تحتمل لدَدَ الخصومة وشطَطَ العِتاب.

ولكن متى عرف الملاح معنى العقل؟

إن الملاحة توحي بالنزق والطيش، وهي أخطر من عصير النخيل والأعناب، وهل أخطأ البَهاء زهير حين تخوف من سكر الدلال!

إن ليلى توصيني بأن أروِّض قلبي على اليأس.

وهل نسيت ليلى أني مصري، وأن المصري لا يحتاج إلى أن يروض قلبه على اليأس؟

هل نسيت ليلى أني مصري، وأن المصري يحيا ويموت بلا صديق؟

هل نسيت ليلى أني مصري وأن المصري مكتوب عليه أن يقضي العمر وهو حزين؟

هل نسيت ليلى أني مصري، وأن المصري يواجه النهر من جانب والصحراء من جانبين؟

إن ليلى لا تستطيع أن تقول إنها أجمل امرأة في العراق، ولكني صيرتها بقلمي وبياني أجمل امرأة في الوجود.

فكيف كان جزائي؟

صدت عني بلا ترفق وصيرتني ملهاة السامرين في مصر والعراق.

إن عشت يا ليلى — وعمر الصادقين في مصر أقصر من عمر الورد — فسأجعل من هواك فتنةً تعصف بما في الدنيا من أصول الرزانة والعقل، وسأُريك كيف يكون كيد التلوُّم وعُنْف الصدود، وأنا أستطيع الثورة على الحُسْن حين أشاء.

كذلك كان حالي بعد تلك المحادثة التليفونية: فقضيت الليل في غَمٍّ وكَرْب، ولم ينقذني من همومي إلا هاتف يهتف في الصباح: «أعدَّ نفسك يا دكتور، لزيارة معسكرات الجيش».

– أنا حاضر، فقد أنسى جيش الأحزان الذي صاولتُه في ظلمات الليل.

كنت في حرب؟

كنت في سلام؟

– وكيف؟

– لا أدري كيف!

في مجلس سمر

يتكون المجلس في هذه المرة من أربعة أشخاص على رأسهم رجل مهذب من الفرنسيين هو المسيو دي كومنين، المراقب العام لمدارس الليسيه فرانسيه بالقاهرة، وهو رجل ستظهر صفاته في خلال الحديث.

وثانيهم الدكتور توفيق فهمي، وهو مصري فاضل حلو الشمائل كريم الخصال، وليس فيه إلا عيب واحد، هو أنه لا يقرأ الجرائد المصرية، وذلك عيبٌ خَطِر، ومن نتائجه الشنيعة أنه لا يقرأ مقالاتي في البلاغ!

والثالث موظف مصري هو مزاج من الرقة والفظاظة والفهم والغباء، كله عيوب وليس فيه إلا فضيلة واحدة هي أنه يفي لأصدقائه، فيلاطفهم إن حضروا، ويشتاق إليهم حين يغيبون، وعيوبه الكثيرة ترجع إلى رذيلة واحدة هي أنه كثير الشغب واللّجاج، يتكلم كثيرًا بلا ترتيب، وهو مع هذه الثرثرة لا يحسن الاستماع، وقد لا يتركك تتكلم إلا إن ملَّ الكلام أو شَعَرَ بصُداع.

تلك صفاته المعنوية، أما صفاته الحسية فهو يذكِّر بما جاء في التاريخ من أن الفراعنة ملكوا الصومال، ومن المحتمل أن يكون أسلافه الأبعدون نزحوا إلينا من هناك. وهو كسائر الناس له أنف وعينان وشفتان، غير أن في أذنيه شيئًا من الطول!

وقد أخبرته أني سأشير إليه في مقالاتي وأصفه بصراحة، وسألته إن كان يسمح بذكر اسمه فتردد، ثم تشجع وقال: اذكر اسمي وقل ما تشاء!

ولكني أَخْبَرُ به وبغيره من أدعياء الشجاعة، ففي مصر كثير من الناس يؤكدون لك أنهم لا يجبنون ولا يخافون، فإذا عرضت لهم بسوء غضبوا منك وناصبوك العداء،

وأنا سأتوسط في الأمر فأُعطي بعض البينات التي تعيِّن اسمه وتقربه من الأذهان، واسمه يبتدئ بأحد الحروف الهجائية، ولزيادة التخصيص أذكر أن اسمه لا يخرج في

مجموعه عن العشرين الأولى من الحروف الهجائية، ولأجل هذا سأسميه (أبجد أفندي)، وكان في النية أن أسميه (الوحش)؛ لأنه متوحش في محادثاته، ولكني لاحظت أن التوحش يفترض الشجاعة، وصاحبنا يخاف من الكلاب، ولا يدخل منزل المسيو دي كومنين إلا بعد أن يؤكد له البوّاب أن الكلب مربوط!

المسيو دي كومنين: من فضلكم، ترجموا لي بعض ما كتبه اليوم صديقنا مبارك في البلاغ.

أبجد أفندي: المسألة تتلخص في جملة واحدة: هي أن الأزهر والجامعة المصرية ووزارة المعارف زِفْت في زِفْت!

الدكتور فهمي: الأزهر؟ كنت أحب أن أعرف شيئًا عن نظامه الجديد.

مبارك: تعرف حضرتك الكلمة التي تقول: لا جديد تحت الشمس، فاعلم إذن أنه يصح أن يُقال: لا جديد فوق الصحن!

أبجد أفندي: صحن إيه يا سيدنا أنت؟

مبارك: صحن الأزهر يا شيخ أبجد!

الدكتور فهمي: دَعُونا من المزاح، أنا أحب أن أعرف ما هي وجوه الإصلاح التي تريدها يا مبارك، فهل أنت تريد مثلًا أن تُخرج الأزهر عن صبغته الدينية وتُحوِّله إلى جامعة مدنية؟

أبجد أفندي: هل قرأتم مقالة زكي باشا في الرد على سميكة باشا؟

المسيو دي كومنين: من فضلك، انتظر، واترك هذه الشطحات.

مبارك: أنا أريد أن يهتم الأزهر بالحياة المدنية، وأحب له في الوقت نفسه أن يحتفظ بصبغته الدينية.

الدكتور فهمي: ولكن كيف تجتمع المدنية والدين في التعليم؟

مبارك: يبدو لي يا دكتور أنك تعطي الإسلام نفس الصفات التي تعطيها للمسيحية، وبذلك ترى من الصعب أن تجتمع الدنيا والدين، ولكن الواقع أن الدين الإسلامي يختلف عن الدين المسيحي اختلافًا جوهريًّا؛ فالدين المسيحي يروض أتباعه على العبادات الروحية الصرفة، وينقلهم إلى حظيرة الرب، حيث يتركون ما لقيصر لقيصر وما لله لله. أما الدين الإسلامي فتنقسم تعاليمه إلى قسمين: العبادات والمعاملات، فهو بذلك يروّض أتباعه على أن يكونوا من أهل الدنيا، وإن كان يُعِدُّهم إلى الفوز في الآخرة والتمتع بنعيم الفِرْدَوْس.

أبجد أفندي: وهل من الدين يا مسيو مبارك أن تقرأ شتائم زكي باشا في الرد على سميكة باشا؟

الدكتور فهمي: فهمت أن الإسلام يجمع بين الماديات والروحيات، فما هي الوسائل عندك لإصلاح الأزهر حتى تسود فيه الروح المدنية، كما سادت فيه التقاليد الدينية؟

مبارك: أنا أدعو أولًا إلى أن يتعلم الأزهريون لغة أجنبية.

أبجد أفندي: واللهِ كان الشيخ الظواهري يأمر بإحراقك!

مبارك: الشيخ الظواهري مستعدٌّ أتم الاستعداد لتعليم اللغات الأجنبية ولو مراعاةً للظروف والملابسات!

دي كومنين: ولكن أي لغة؟ أنا أخشى أن يعلّموا اللغة الإنجليزية.

أبجد أفندي: هذا هو الأرجح؛ لأن المشايخ يحبون بالطبع أن يعرفوا اللغة التي يتفاهمون بها حين يزورون قصر الدوبارة في رمضان!

دي كومنين: مسألة اللغة مسألة مهمة.

فهمي: ما أهميتها؟

دي كومنين: تفتح عيون الأزهر على آفاق جديدة من الحياة.

مبارك: اللغات الأجنبية ضرورية، وليس في العالم اليوم أمة يكتفي فيها المتعلم بلغته، مهما كانت لغته قوية ومنتشرة، ومن رأيي أن الأزهريين يجب أن يتعلموا الفرنسية لا الإنجليزية لسببين: أولهما أن اللغة الفرنسية سهلة النطق؛ لأن المصريين والفرنسيين متقاربون في تكوين الحلق؛ لأنهم جيران لا يفصل بينهم إلا البحر الأبيض المتوسط، وثانيهما أن صِلتنا بالفرنسيين صلة وداد وليس بيننا وبينهم مشاكل سياسية، فليس يضيرنا في شيء أن نتعلم لغتهم، ولو جلا الإنجليز عن بلادنا لفكرنا في التخير بين لغتهم وبين لغة الفرنسيين، ولكنهم يعملون لتثبيت أقدامهم بوسائل كثيرة أهمها نشر لغتهم، فلنحرص على سلامة الأزهر من ذلك النفوذ المخوف، وتلك كانت أكبر مؤاخذة وجهها الجمهور المثقف إلى الشيخ المراغي حين رأى أن يتعلم الأزهريون اللغة الإنجليزية، ومنهم من اتهمه بأنه رأى ذلك مصانعة لقصر الدوبارة. والله أعلم بما في الصدور.

أبجد أفندي: معقول أن يتقرب المشايخ إلى قصر الدوبارة بتعلم اللغة الإنجليزية فإن زكي باشا هو أيضًا يهاجم سميكة باشا لنفس الغرض.

دي كومنين: متى تخلص من هذه الحكاية!!

أبجد أفندي: يا مسيو دي كومنين أنت لا تعرف غرض زكي باشا، لقد وضعت جريدة الأهرام عنوان مقاله في حروف كبيرة جدًّا، ويا له من عنوان: «أسطورة قبطية ملعونة».

هل هذا وقت تصحيح أساطير الأقباط؟

مبارك: وهذه هي الساعة المناسبة لتصديع رءوسنا بالدفاع عن سميكة باشا؟

الدكتور فهمي: من فضلكم، عودوا بنا إلى إصلاح الأزهر.

دي كومنين: هل تريد يا أستاذ مبارك أن أقول لك كلمة صريحة؟

مبارك: قُلْ أَسْمعْ.

دي كومنين: أنت حين تهتم بإصلاح الأزهر، هل تفكر في نفسك أم في سعادة الإنسانية؟

مبارك: أنا بالطبع أفكر في سعادة الإنسانية.

دي كومنين: وأنا أرى أن الأزهريين في حالتهم الحاضرة سعداء، وأنت حين تفكر في تغيير حالهم إنما تفتح لهم أبواب الشقاء: فالطالب الأزهري يجلس على الحصير مستريحًا إليه، ويقرأ كتابه أحيانًا وهو مضطجع أو ممدَّد الرجلين، فما الذي يستفيده حين تقهره على الجلوس فوق مقعد، والذهاب لتلقي الدروس في ساعات محدودة، وقد كان قبل ذلك من السعداء؟

مبارك: إنه ليضايقني حقًّا أن أرى الأزهريين يعيشون عيشتهم الحاضرة.

دي كومنين: أنت إذن تفكر في نفسك وتريد أن تطبعهم على الذوق الذي اكتسبته من عيشتك في فرنسا ومن معاشرة الأوربيين، ألا فلتعلم يا صديقي مبارك أن الإصلاح لا يكون خيرًا إلا إن ظمئت إليه النفوس وعشقته واطمأنت إلى الداعين إليه، ورحبت بمبادئهم كل الترحيب.

مبارك: الأزهريون غير راضين عن حالتهم الحاضرة.

دي كومنين: ابحث أولًا عن أسباب قلقهم وامتعاضهم؛ فقد تكون تلك الأسباب بعيدة كل البعد عما تظنه أنت موجبًا لضجرهم ورغبتهم في التغيير.

مبارك: يمكنني أن أفهم أن حياة شيخ الجامع الأزهر لها دخلٌ في ذلك الامتعاض، فقد كان الأزهريون قبلًا من أهل الله، وكانوا راضين عن حظوظهم في الحياة. ولكن شيخ الأزهر اليوم له ما لجميع الرؤساء من المظاهر المادية، فله مثلًا سيارة لها بوق بغيض الصوت، وله مائدة منوَّعة الألوان، وفي بيته أرائك ووسائد وأبسطة ومصابيح من الكهرباء، وله خدم وله حاشية وله مخبرون ينقلون إليه الطيب والخبيث من أخبار الناس وخاصة العلماء.

وفي هذه المظاهر الدنيوية ما يغري أهل الأزهر بالدنيا، ويجذبهم إلى ما فيها من زخرف الجاه والمال.

دي كومنين: ابدأ إذن بإصلاح شيخ الجامع الأزهر، وأرجعه إلى حياته الأولى حياة البساطة والقناعة والزهد.

مبارك: أنت تطلب المستحيل يا مسيو دي كومنين، فقد تغيرت العقلية تغيُّرًا تامًّا، وصار من العسير أن نطالب شيخ الجامع بالجلوس على الفروة والاكتفاء بركوب البغلة، والرضا بخبز الجراية والفول والكرّاث، كما كان يفعل أسلافه الأولون. ولو قد فعل شيئًا من ذلك لصار سخريةً للجميع، فشيخ الجامع مضطرٌّ إلى مراعاة الحال في أنظمته المعاشية والإدارية، وهو يفهم أنه «موظف كبير» قبل أن يمر بباله أنه شيخ المسلمين.

دي كومنين: الآن تجسمت أمامي المشكلة، ويظهر من سياق الحديث أنك تريد أن تنقل الأزهريين إلى حياة جديدة تشبه حياة إخوانهم في المدارس الثانوية والعالية.

مبارك: هو هذا.

دي كومنين: وتأمل بهذا أن تمنحهم حياة سعيدة؟

مبارك: نعم!

دي كومنين: أنت مخطئ في تقدير هذا الأمل: فقد وُجدت الأزمة في المدارس الأميرية، وأصبح خريجو تلك المدارس لا يعرفون كيف يعيشون، والظاهر أنكم في مصر تقلدوننا في أشياء كثيرة، وفاتكم أن فرنسا تعاني أزمات عصيبة بسبب تعميم التعليم؛ فإن القانون الذي فرض التعليم الإجباري حَرَم الأمة الفرنسية من نشاط أبنائها في استغلال الأرض.

فهمي: كيف؟

دي كومنين: أنتم تعلمون أن جمهور الآباء يحتاجون إلى أطفالهم في أعمال كثيرة أخصها رعاية الماشية، فتجيء الحكومة فتفرض على الطفل أن يظل في المدرسة إلى الثانية عشرة من عمره، وفي تلك المدة يتعود عادات سيئة أظهرُها حرصُه على الثياب النظيفة والتأخر في النوم، فضلًا عن النعومة التي تغلب على جسمه ويديه من الحياة المدرسية، فإذا انتهت مدة التعليم الإجباري وعاد إلى أهله في الحقول أخذ يسخط على حياته الجديدة حياة العمل؛ لأنه مضطرٌّ إلى النهوض من فراشه في الساعة الخامسة وإلى لبس الثياب الخشنة والنعال القذرة ومعاشرة أجلاف الفلاحين. ومن أجل هذا يرحل أكثرُ الشبان إلى المدن للبحث عن الرزق بوسائل تلائم ما ألفوه من الوداعة والنعومة. ونتيجة ذلك أن الأرض الفرنسية هجرها أهلها، وأصبحنا نستعين بالشبان الإيطاليين والبولونيين، ومن إليهم من الوافدين على فرنسا لزراعة أرضنا، وكنا قبل ذلك من كبار الفلاحين، ومن رأيي يا صديقي مبارك أن الذي ينقصنا وينقصكم هو التوازن في كل شيء، فنحن أو أنتم مسخَّرون لطائفة من المفكرين يعيشون عيشة مدنية وينسون الجماهير المختلفة التي تتكون منها الشعوب.

أبجد أفندي: وهذا هو ما يفعله زكي باشا في الرد على سميكة باشا.

مبارك: يعجبني فضولك والله يا حضرة الأخ، ولكن اسمع: أنا لا أكتمك أني لم أفهم حكاية المعزّ الفاطمي التي أثارها زكي باشا.

أبجد أفندي: لم تفهمها مطلقًا؟

مبارك: لم أفهم منها ما سماه سميكة باشا «حادثة المقطم»؛ فقد درستُ تاريخ الدولة الفاطمية في الجامعة المصرية على المرحوم محمد بك الخضري وأديت الامتحان يومئذ بتفوق، ولكني لم أسمع بحادثة المقطم هذه، ثم علمت أن الأستاذ محمد عنان كتب مقالًا في جريدة السياسة عن الموضوع، ولكن فاتتني ذلك العدد ولم أعرف عنها شيئًا، وبعد ذلك كتب أحد الأزهريين المتخصصين في التاريخ كلمة في جريدة البلاغ فأشار إلى حادثة المقطم إشارة يُفهم منها أنها حادثة مهمة من حوادث التاريخ، فزاد خجلي من الجهل بمثل ذلك الحادث الخطير! فماذا قال الأستاذ عنان في هذا الموضوع إن كنت قرأت مقاله في السياسة؟

أبجد أفندي: حادثة المقطم مشهورة، وخلاصتها أن المعز لدين الله الفاطمي سمع أن في الإنجيل آية تشير إلى أن المؤمن الصادق يستطيع أن ينقل الجبل، فسأل عن الصالحين من القسيسين والرهبان في مصر فأخبروه أن هناك قسيسًا معروفًا بالورع والتقوى، فاستقدمه المعزُّ وسأله أن ينقل جبل المقطم إن كان من الصادقين، فصلى القسيس بعض الصلوات ثم أشار إلى جبل المقطم فانتقل من مكانه بإذن الله! وعلى ذلك تنصَّر المعز لما رأى بعينيه من جلال النصرانية.

مبارك: هذه هي حادثة المقطم؟ الله يهديك ويهدي سميكة باشا معك! أهذه هي الوثيقة التاريخية على أن المعز تنصَّر؟

أنا أتحدى جميع الصالحين من القسيسين والرهبان أن ينقلوا دارًا صغيرة جدًّا من مكانها، ولتكن دار حزب الاتحاد، فكيف ساغ أن ينقل أحدهم جبل المقطم وينقل معه الخليفة المعز من الإسلام إلى النصرانية؟!

أبجد أفندي: أنت إذن لا تؤمن بالمعجزات؟

مبارك: معجزات في عينك وعين سميكة باشا!

أبجد أفندي: إذن ماذا تقول في كرامات السيد البدوي.

مبارك: أنا لا أعترف بغير ما أشاهد بعيني من التغيرات والتقلبات، ومن العسير أن أفتح أذني لما أسمع من أباطيل المخدوعين بين المسلمين والأقباط!

دي كومنين: خوضوا بنا في غير هذا الحديث.

أول سبتمبر سنة ١٩٣١

ذكريات صحفية

في الأعداد الأخيرة من مجلة (الإيماج) فصول طريفة عن الذكريات الصحفية، قرأتها فأَنِسْتُ بأصحابها أُنسًا شديدًا، وتمنّيت أن يتسع وقتي لنشر ما مرَّ بي من أمثال هذه الذكريات، وهي حوادث لن تُعرف مفصلة إلا يوم يظهر كتاب «أكواب الشهد والعلقم»، وهو كتاب خَطِرٌ لن ينشر إلا يوم ننفض يدنا نهائيًّا من وداد الناس، وأين الناس؟!

على أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى ثلاثة حوادث طريفة في أوقات مختلفات:

وقع الحادث الأول في سنة ١٩١٩، وكنت نشرت سلسلة من المقالات عن «دواعي الشعر» في جريدة الأفكار، وهي مقالات كلها شغب ونضال أضجرتْ كثيرًا من الشعراء، وحملت السيد حسن القاياتي على دفعها بفصول طوال نشرت بعد ذلك في كتاب «البدائع»، واتفق يومئذ أن تلقيت أبياتًا يهجوني بها شاعر سمَّى نفسه «الأخطل»، وهو شاعر أقسمت إن عرفته لأقتلنَّه، ثم مضيت أبحث عنه في الأندية الأدبية، فلما اهتديت إلى اسمه سكن غضبي؛ لأني رأيته أبًا يعول سبعة أطفال، وهو الشاعر الذي قال فيه الأستاذ الشيخ محمد سليمان: «هجاؤه أبرد من سقوط التلميذ في الامتحان»، وعدت أبحث عن قطعته لأنشرها ترويحًا عن أنفس القراء ولكني لم أجدها، ومنذ شهرين كنت أنقل أمتعتي من بيت إلى بيت، فصادفت تلك القطعة وقد اصفرت وشاخت، وهاهي تطالعهم بوجهها الأصفر الممقوت.

قال (الأخطل) يهجو صاحب «دواعي الشعر»:

رَبَّ الدواعي ما دهاك وما الذي   أغرى يراعك أن يخُطَّ هُراءَ
ماذا أصابك من خبالٍ فاحشٍ   حتى رميت بفحشك الشعراءَ

تالله ما جَبنوا ولكنْ زمرةٌ عَدِموا النُّهى كانوا هم الجبناءَ
أنت الأحقُّ بما هجوتهمُ بِهِ لو كنت تَسْوِي يا شجاع هجاءَ
تدعو الجياد إلى السباق ومَن لهم بمجال سبق يُظهر الأُصَلاءَ
إن كنت ميمونًا وكنت (مباركًا) أرنا بنفسك همةً ومضاءَ
أرنا الطريق لنهتدي بك دونَهُ وانحُ الأمام لكي نسير وراءَ

أما الحادث الثاني فقد وقع في سنة ١٩٣٢، وذلك أني نظرت فوجدت في جريدة البلاغ خمسة من النقاد ينوشونني في عدد واحد، فكرَرْتُ عليهم في مقال عنوانه: «سنفرغ لكم أيها الثَّقَلان».

وفي سنة ١٩٣٤ كثر الجدل حول أدب الشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن شكري، وما كنت رأيته من قبل، ففكرت في مراسلته لأتعرف إليه، ثم انصرفتُ عن ذلك، وما هي إلا أيام حتى تلقيت منه هذه الكلمات الطيبات:

زُوِّدتُ من قول (المبارك) دُرْبةً بالحق حين يميِّز الآراءَ
يتذوق الأقوال فَهْوَ كأَنَّهُ متنعِّم يتذوق الصهباءَ
وكأنه أُذن الطروب تَمِيزُ ما يختلُّ أو ما يستقيم غِناءَ
أو صَيْرَفٌ رجع المخادع آيسًا من أن يُسيغ البهرج الوضاءَ
ذوقٌ وتحقيقٌ وليس بقانعٍ بالذوق أحسن مرةً وأساءَ

والمستظرف أن ما هُجيت به في سنة ١٩١٩ وما مُدحت به في سنة ١٩٣٤ وقعا على رَوِيٍّ واحد، ومن شاعرين لم أتعرف إليهما من قبل.

فيا أيها الأخطل، أين أنت، ألا تزال تحقد على باحث هجوته منذ سبعة عشر عامًا؟ إن الحقد لا يليق برجل يكاد يُجمع أصحابه على أنه أرق من «النسيم».[١]

٣١ فبراير سنة ١٩٣٦

[١] هو الشاعر أحمد نسيم، وقد مات سنة ١٩٣٧، وكان — رحمه الله — من أفاضل المصححين بدار الكتب المصرية، وإليه يرجع الفضل في تحقيق ديوان مهيار.

وصف مليحة حولاء

في مكتبي جُذاذات كثيرة تُعَدُّ بالألوف، ولولا الترفق بالمسيو فيشر لقلت: إنها تعد بألوف الألوف، وهي جُذاذات تدور حول المعاني أكثر مما تدور حول الألفاظ، وكنت قيدتها لأنقلها إلى حافظتي، ولكن هيهات، فمن العسير أن أحفظ كل ما أُقيّد، واليوم عثرت على بيتين في وصف حولاء، فآثرت أن أنقلهما إلى القراء، ولولا التوقر لأفصحت عن اسم الرجل الذي أملاني هذين البيتين، وما أملاهما والله، ولكنه كتبهما بيمناه، مع أنه من أشرف الناس، وقديمًا كان الأدب يفتن الأشراف، وإليكم البيتين:

يعيبونها عندي ولا عيب عندها   سوى أن في العينين بعض التأَخُّرِ
فإن يك في العينين سوءٌ فإنها   مُهَفْهَفَةُ الأعلى رَدَاح المؤخَّرِ

وما أُحب أن تفوت فرصة الكلام عن الشعر المختار بدون أن أُتحف القراء ببيتين آخرين لم يضيعا من ذاكرتي أبدًا، والشعر الجميل كالوجه الجميل لا تملُّه النفوس ولا تزهد فيه العيون.

تظنون أني قد تبدَّلت بعدكم   بديلًا وبعضُ الظن إثمٌ ومنكَرُ
إذا كان قلبي في يديك رهينةً   فكيف بلا قلب أُصافي وأهجرُ؟

وهناك بيت يتيم عثرت عليه منذ زمن طويل في كتاب حياة الحيوان، وما أذكر أني رأيته في كتاب سواه، ولا أتذكر الآن المناسبة التي أنشده من أجلها الدميري، ولكن يخيل

إليَّ أنه جاء في تأويل الرؤيا، فإن رأيت أيها القارئ في منامك أنك جُنِنْتَ فلا تحزن، فتفسير هذه الرؤيا ... أن الدنيا ستُقبل عليك؛ لأنها لا تحب إلا المجانين!

وإليك البيت:

جُنَّ له الدهرُ فنال الغِنَى　　يا ويحه لو عقل الدهرُ!

وهو بيت ينزعج له بعض الناس، وغضبةُ الله على الدهر المجنون!

وأحب أيضًا أن أنبه القراء إلى بيت نادر وقع في قصيدة الكاشف التي زفَّها إلى صاحب الرفعة علي ماهر باشا وهو بيت يحفظ، وإنما ننص عليه لأن فيه نظرة نافذة إلى سياسة المعاش، وانظروا كيف يقول:

منافع الناس بين الناس صانعةٌ　　ما ليس تصنعه الآحاد والجُمَعُ

والسياسة كلها في هذا البيت: فالمنافع تجمِّع وتفرِّق، وهي أصل ما بين الناس من المودات والعداوات، وعندها تلتقي الأهواء، وإن اختلف المذهب والدين.

سرقات شوقي

١

قضى صديقنا الأستاذ طاهر الطناحي ثلاث سنين وهو مشغول بجمع سرقات شوقي، فليسمح لي حضرته بتوجيه نظره إلى سرقة جديدة من سرقات شوقي، وهي جديدةٌ من حيث الاستكشاف، ولكنها من حيث وقوعها قديمة العهد، وإليه البيان:

كان الناس يعجبون من براعة شوقي في بيان حكمة الجهاد، جهاد الرسول؛ إذ قال يصاول من وصفوا الرسول بحب الدماء:

قالوا غزوتَ ورُسْل الله ما بُعِثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دمِ
جهلٌ وتضليلُ أحلامٍ وسَفْسَطَةٌ ... فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلمِ
لما أتى لك عفوًا كل ذي حسبٍ ... تكفَّل السيف بالجهال والعَمَمِ
والشر إن تلقه بالخير ضقت بِهِ ... ذرعًا وإن تلقه بالشر ينحسمِ

وهي أبيات على جانب عظيم من جودة المعنى وقوة الرصف، وكان يُظن أن شوقي هو مبدع هذا المعنى، وأنه أول من أفصح عن حكمة الجهاد، ولكن سرقته انفضحت يوم أقيم موسم الشعر في الأسبوع المنصرم، فقد تبين أنه انتهب هذا المعنى من قول الشاعر محمد الأسمر الذي قال:

ودعا إلى الحسنى فلما أعرضوا ... واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحقُّ أعزلُ لا يروعُ فإن بدا ... مستلئمًا لاقى الطغاة فَرَوَّعا

والحق ليس بمعتدٍ لكنهُ   إن دافَعَتْهُ يد الضلال تدفَّعا
ومن البرية معشرٌ لا ينتهي   عن غيِّه حتى يخاف ويفزعا

والأسمر شاعر مجيد، ولشعره أفنان يقطف الناس من ثمارها ما يشتهون، وكان شوقي — رحمه الله — مغرمًا بأخذ معاني الشعراء، فإغارتُه على معاني الأسمر تدخل فيما أُثِر عنه من الطغيان، ومهمةُ النقد الأدبي هي رد الحقوق إلى أصحابها، وكشفُ سرقات الشعراء بعضهم من بعض، فلا يتهمنا أحد بالغض من شوقي والعدوان عليه وهو ميت، فإن الحق لا يبالي الأحياء ولا الأموات.

قد يقول معترض: ولكن أبيات شوقي جزء من نهج البردة، وهي قصيدة نظمها شوقي في سنة ١٣٢٧هـ ونحن اليوم في سنة ١٣٥٥هـ؛ أي أنه نظمها منذ نحو ثمانية وعشرين عامًا، فكيف يصح اتهامه بالسرقة من الأسمر؟

ونجيب بأن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الأسمر رجل عجوز جدًّا، بالرغم من تصابيه، وقصيدته التي ألقاها في موسم الشعر نظمها منذ أكثر من ثلث قرن وألقاها في معهد دمياط، ونشرها في مجلة «الأمانة»، واطلع عليها شوقي فانتهب منها ما شاء.

ولكن لا بدَّ مع هذا من إنصاف شوقي الذي لا يملك الدفاع عن نفسه بعد أن أسكته الموت، وإنصافُهُ سهل؛ فقد نص القدماء على أن السرقة لا تُعاب دائمًا، وإنما تُعاب حين يسوء الأخذ؛ أي حين يكون المعنى المسروق ورد في صورة أقل جمالًا من الأصل، وتُقبل السرقة حين يلطف الأخذ؛ أي حين يصور المعنى المسروق بصورة أبرع من الأصل، وهذا ما وقع لشوقي؛ فإن أبياته أجمل من أبيات الأسمر، وهي كذلك أروع وأرشق، وحَسْبُ الأسمر من الفوز أنه كان السابق ولم يكن المسبوق!

أكتب هذا وأنا أعرف أن أنصار شوقي ستضيق صدورهم بما أقول، ولكن لا بأس فقد احتملنا كثيرًا من المكاره في سبيل الحق، وعند الله لا عند الناس حسن الجزاء.[١]

٢٦ يونية سنة ١٩٣٦

[١] لم يفطن الأستاذ سلامة موسى إلى جوهر الدعابة في هذه الكلمة فنقلها إلى «المجلة الجديدة» شاهدًا على سرقات شوقي!

٢

أرسل إلينا حضرة (م. ع) وهو من أدباء الموظفين كلمة جاء فيها قوله:

عرضتم في حديثكم منذ أسبوع لسرقات شوقي، ونبهتم إلى إغارته على الأستاذ الأسمر في أبيات كشف عنها موسم الشعر الأخير، وبذلك فتحتم عيوننا على سرقة أخرى من سرقات شوقي كشف عنها نقلُ رفات الزعيم سعد زغلول، فقد كنا نعجب أيضًا بقصيدة شوقي على قبر نابليون التي يقول فيها:

قِف على قبرٍ بباريس دفينْ   من فريد في المعاني وثمينْ
وافتقدْ جوهرةً من شرفٍ   صدفُ الدهر بِتِرْبَيْهَا ضنينْ

حتى كان نقل رفات سعد وقرأنا للأستاذ علي بك الجارم قصيدته التي يقول في أولها:

اكشفوا الترب عن الكنز الدفينْ   وارفعوا الستر عن الصبح المبينْ
واجتلوه درةً ساطعةً   صدفُ الدهر بشَرْواها ضنينْ

فتحيرنا بأي الشاعرين نعجب؛ لأنَّا لم ندر أيهما صاحب المعنى، بل صاحب الشعر جملة؛ لتوافق معانيه وألفاظه في القصيدتين. أجل، إن قصيدة الجارم لم تظهر إلا بعد وفاة شوقي، ولكن من يدري؟ فلعل الأستاذ الجارم أنشأها قبل أن ينظم شوقي قصيدته، ولعله هو الآخر نشرها في مجلة «الأمانة» كما فعل الأستاذ الأسمر!

عفا الله عن شوقي فما أكثر ما كان يُغِير على الشعراء!

أما الموازنة بين القصيدتين فإني أَكِلُها إليك، والسلام.

ذلك خطاب الأديب (م. ع)، وهو يرى أن شوقي سرق من الجارم كما سرق من الأسمر، ولكن مهلًا، فنحن لا نرى هذا الرأي؛ لأنه لا يجوز في شرع العقل أن نحكم بلا بيِّنة، فإننا حين قضينا بسرقة شوقي من الأسمر كنا نعرف جيدًا أن الأسمر نظم قصيدة في مدح الرسول ونشرها في مجلة «الأمانة» منذ أكثر من ثلث قرن، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الأسمر رجل طعن في السن، فهو من أتراب شوقي، وكان لا يبعد

عن شوقي أن ينتهب شعره كما فعل بشعر الشيخ عثمان زناتي. أما الأستاذ الجارم فمن الشبان ولم ينشر شعره إلا من عهد قريب، وقصيدة شوقي في نابليون نُظمت قبل أن يقرأ الجارم بيتًا من الشعر، فاتقوا الله في شوقي أيها الناس ولا تكونوا من المسرفين!

١٢ يوليه سنة ١٩٣٦

أفانين من الأحاديث

يتكون المجلس في هذه المرة من سبعة أشخاص: فتاتين وسيدة، وأربعة رجال: اثنين مصريين واثنين فرنسيين.

أما الفتاتان فآيتان من آيات الحسن المشرق والأدب الجميل، وأيسر ما يوصف به وجودهما في المجلس أنهما سعادةٌ شاملةٌ تغمر الجميع بلا استثناء. وقد آثَرَتَا الصمت البليغ طول السهرة، واكتَفَتَا بالابتسام كلما أشار أو تحدث صاحبنا «أبجد أفندي» الذي يعرفه القراء.

أما مدام (د) فسيدة مهذبة نشأت في باريس مهد الاريستوقراطية الفرنسية، وهي تصحب قرينَها في مصر منذ سنوات، والصديقان الفرنسيان أحدهما من رجال التربية وثانيهما من رجال القانون، وكلاهما محدِّث بارع يذكِّر بما رُوي من أنه دخل على الحسن بن سهل رجلٌ بعد أن تأخر عنه أيامًا فقال: «ما ينقضي يوم من عمري لا أراك فيه إلا علمت أنه مبتور القدر، منحوس الحظ، مغبون بين الأيام».

فقال الحسن: «هذا لأنك توصل إليَّ بحضورك سرورًا لا أجده عند غيرك، وأتنسم من أرواح عِشرتك ما تجد الحواسُّ به بغيتها، وتستوفي منه لذتها، فنفسك تألف مني مثل ما آلفه منك.»

وكلمة «محدِّث» قلما نعرف مدلولها في مصر، وهي بالطبع غير كلمة «محدِّث» التي ترد في كتب الرواية والحديث. ونحن نريد بها ما يريده الفرنسيون من كلمة Causeur، فالفرنسيون من بين الأمم مشهورون بحلاوة الحديث. وقد يتحدث الرجل منهم نحو سبع ساعات تباعًا فينتقل من فن إلى فن في لطف ورفق، بدون أن يَشعر السامرون بأدنى سآمة أو ملال، وهم يختلفون في هذا عن الإنجليز أشد الاختلاف، فإن المحدثين من الإنجليز قليل.

وإذا أراد القارئ أن يعرف شيئًا عن مدلول كلمة «محدِّث» فإنّا نذكر له على سبيل التمثيل الشاعر الكبير حافظ إبراهيم؛ فإني لم أَرَ من بين المعاصرين من يشبه هذا الرجل في طِيب الحديث، وما رأيته مرةً إلا شعرت بالحسرة على أنه كسائر الناس قد ينتقل بعد عمر طويل إلى دار البقاء. وكان أهلًا لأن يُمْتع بطيب حديثه جميع الأجيال.

وقد تعلق به المرحوم سعد باشا في أخريات أيامه تعلقًا شديدًا، واحتجزه عنده في مسجد وصيف.

أبجد أفندي: لا، يا مسيو (ك) لا، لا، لا تُبالغ في تمجيد تاريخ الإسلام إلى هذا الحد، فإن هذا يزيد صديقنا مبارك زَهْوًا، وقد رأيتَ كيف يتحامل على من لا يعتنق دينه الحنيف.

مبارك: أنا لا أتحامل على أحد، وليس من حقك أن تأخذ عليَّ أن أعتز بديني فإنه جدير بذلك.

أبجد أفندي: ولكن لا تنسَ أن كثيرًا من رؤساء الأزهر ومشايخ الإسلام كانوا من الأقباط.

مبارك: من الأقباط؟ وكيف اتفق ذلك!

أبجد أفندي: صح النوم، صح النوم! يظهر أنك لم تقرأ التاريخ!

مبارك: لعلك تريد الشيخ المهدي وكان قبطيًّا فأسلم.

أبجد أفندي: والشيخ الفيومي أيضًا.

مبارك: أنا لا أعرف أن الشيخ الفيومي كان قبطيًّا، ولكن هذا لا ينهض حجة لك على أن كثيرًا من رؤساء الأزهر ومشايخ الإسلام كانوا من الأقباط؛ لأن القبطي متى أسلم خرج عن قبطيته وتحول إلى إنسان جديد.

أبجد أفندي: هل الإسلام يغيِّر الشخصية وينقلها من وضع إلى وضع؟

مبارك: نعم، الإسلام يغير الشخصية تغييرًا شديدًا حتى لتتنكر أصلها القديم.

أبجد أفندي: ما رأي سيداتي وسادتي؟

المسيو (ك): أنا من رأي صديقنا مبارك؛ لأن النفس لا تستجيب لدين من الأديان إلا بعد أن تتهيأ له، فانتقالُ الرجل من دين إلى دين معناه تحوله من وضع إلى وضع في أخلاقه وسجاياه، وتعديلُ ما كان له من غرائز وملكات.

أبجد أفندي: إذن يكون المسلمون غير مصريين؟

مبارك: على رسلك يا مسيو أبجد، فإن هناك فرقًا بين المصرية والقبطية، فالمصرية يُلحظ فيها الجنس، والقبطية يُلحظ فيها الدين، وقد لَحَظَتْ ذلك المعاجم العربية حين قالت: القبط نصارى مصر.

أبجد أفندي: شيء يضايق!

المسيو (ك): وكيف يضايقك هذا وأنت الذي جنيت على نفسك حين انصرفت عن الإسلام وهو دين الشرق؟

أبجد أفندي: ترى جنابك أنه كان يجب أن أُسلم؟

المسيو (ك): الذي أراه أن الإسلام أوفق الأديان للشرق: فهو يحرم الخمر، وهي أضر أنواع الشراب بأهل الشرق، ويحرم لحم الخنزير وهو سريع الفساد في جوِّ الشرق، وكذلك تستطيع أن ترجع القواعد الإسلامية إلى واجبات شرقية.

أبجد أفندي: نعم، يا سيدي، نعم، ويُبيح تعدد الزوجات، وهذا من أصلح ما يباح لأهل الشرق، أليس كذلك؟!

المسيو (ك): هذه سخرية لا موجب لها يا مسيو أبجد، فإن إباحة تعدد الزوجات من مفاخر الإسلام، ولنترك قليلًا النفاق فنذكر أننا قد نعاشر عددًا من النساء في غير حِلٍّ، ونخون الحرمات تحت أستار الظلام، وأشرف من هذا ما يفعله المسلم حين يتزوج أربع زوجات في حدود القانون.

مدام (د): ولكن الإسلام شريعةٌ للرجال.

مبارك: ما معنى هذا؟

أبجد أفندي: معناه أن الإسلام يفضِّل الرجل على المرأة على قاعدة (الرجال قوامون على النساء).

مبارك: وهذا ما عيبُه؟

مدام (د): معناه أن الرجل أفضل من المرأة في نظر الإسلام!

مبارك: ما هذا الإحراج يا مَدام؟

المسيو (د): أيُّ إحراج في هذا؟ لك أن تجيب صراحة بأن الرجل أفضل من المرأة، وما ذنب الإسلام إذا كان هذا هو الواقع؟

مدام (د): هذا هو الواقع؟ كيف؟!

المسيو (د): نحن نخضع للمرأة ولكن لا نراها أفضل منا في أي حال.

مدام (د): الرجل أفضل من المرأة حين يكون عقله أنضج من عقلها.

المسيو (د): وهو دائمًا كذلك مع استثناء الحاضرات من الجنس اللطيف! «ابتسام من جانب الفتاتين».

أبجد أفندي: خشونة غير منتظرة جرَّها علينا المسلم زكي مبارك!

مبارك: احْمَد الله، يا أبجد أفندي، ففي هذا حكم لك بالعقل!

أبجد أفندي: وبالدين أيضًا!

المسيو (ك): العقل والدين من خصائص الرجال، والعطفُ والحنان من خصائص النساء.

المسيو (د): أحب أن أشرح لكم ما معنى أن الكثلكة دين المرأة.

أبجد أفندي: لا تقل الكثلكة، ولكن قل المسيحية؟

المسيو (ك): الكثلكة، الكثلكة؛ وإن أغضبك ذلك.

أبجد أفندي: يا ساتر! أنتم كاثوليك إلى هذا الحد؟

المسيو (ك): أنا لست من المحافظين على القواعد الدينية، ولكني أحترم الديانات احترامًا شديدًا؛ لأن فيها معاني إلهية؟

أليس الحواريون الذين نشروا دين المسيح كانوا اثني عشر بحارًا؟ وهل رأيت في حياتك بحارًا يصلح لهداية؟ فنجاح أولئك البحارين في نشر المسيحية دليل على أن فيها نفحة إلهية، والنبي محمد ما شأنه؟ ألم يكن رسول تجارة؟ وهل تظن أن رسول التجارة يصلح لشيء إن لم يكن مؤيدًا بقوة إلهية؟

المسيو (د): أنا متمسك بالكثلكة؛ لأنها دين أمي، رحمها الله!

أبجد أفندي: وأنا متمسك بالأرتودكسية؛ لأنها دين جدتي ودين جدي، قدس الله روح الجميع!

مبارك: أنتم إذن غير مؤمنين!

أبجد أفندي: وأنت ما شأنُك؟ أنت والله لا يرضيك إلا أن يصبحوا مسلمين!

مبارك: من فمك إلى باب السماء!

أرجوك يا مسيو (د) أن تعود إلى شرح معنى أن الكثلكة دين المرأة.

المسيو (د): أنت تعلم أننا لا نمجد المسيح إلا متصلًا بالعذراء، فنحن عن طريقه نمجد المرأة، وتستطيع أن تستخلص من هذا أن المسيحية عبارة عن تقديس البيت Le foyer، ففي كل كنيسة وفي كل معبد تجد صورة العذراء وعلى صدرها عيسى وهو طفل، وأكثرُ ما تتجه إليه فكرة المصورين والمثَّالين هو تقديس الأمومة في تمثيل العذراء.

أبجد أفندي: المسيحية تمجد المرأة فهي إذن تمجد الجمال.

مبارك: وتمجد الجمال الفرنسي بنوع خاص! ولعل هذا هو سر غرامك بالتزوج من فرنسية!

المسيو (د): حقيقة لقد أشقَى أبجد افندي نفسه بالبحث عن فرنسية.

مبارك: وهل وجد غايته؟

مدام (د): بالطبع لم يجد؛ لأنه لا توجد فرنسيات للبيع!

مبارك: للبيع؟

مدام (د): نعم للبيع، ومن هي الفرنسية المجنونة التي تتزوج من رجل جاوز الأربعين؟

أبجد أفندي: هذه إهانة!

مبارك: لا تُرَع ولا تنزعج، يا أبجد أفندي، فهناك أخطار تنتظرك إذا تزوجت.

المسيو (د): ما هي هذه الأخطار؟

مبارك: يجب أن نلاحظ أن الإسلام أذاع في مصر والشرق الغيرة العنيفة في رعاية المرأة، ولا عبرة بما يدين به أبجد أفندي من المسيحية، فهو مسيحيٌّ دينًا ومسلمٌ غيرةً، فإذا تزوجتَ فرنسية يا أبجد فستنتقل بمشيئة الله إلى مستشفى المجاذيب في أقرب فرصة.

أبجد أفندي: هل معنى هذا أني لا أعرف كيف أصون زوجتي؟

مبارك: المرأة الفرنسية لا تسمح لزوجها بالتدخل لصيانتها، وإنما تتصون هي وتدفع عن كرامتها ما يهددها من الأهواء، ولكن الذي أخشاه أن لا تحتمل أن تعيش زوجتك في حرية؛ فأنت شرقي تأكلك الغيرة وتقتلك الوساوس بلا موجب كأكثر الأزواج.

المسيو (د): لا تظن يا مسيو مبارك أن الغيرة خاصة بالشرق الإسلامي؛ فالفلّاح الفرنسي يغار على زوجته غيرة عنيفة، ويضايقه أن يذكرها أحد بخير، أو يصف جمالها بعض الأصدقاء، أو يسأله سائل عن صحتها.

مدام (د): أظن الحالة تطورت في مصر.

المسيو (د): تطورت تطورًا سطحيًّا، ولكن المصريين في أعماق نفوسهم لا يحبون أن يتكلم أحد عن نسائهم، وقد يتفق أن أقابل بعض المصريين المهذبين فأسألهم عن زوجاتهم فيُبْهَتون، وبعد لحظة يضبطون أنفسهم ثم يجيبون ... وقد اتفق أن زارني شابٌّ مصريٌّ فسألته عن أخته — وكانت تلميذتي — فظهرت عليه علائم الخجل والضجر والحيرة، وبعد لحظات تماسك وأجاب.

أبجد أفندي: أنا على كل حال لا أخشى هذا؛ لأني واثق من امتلاك قلب زوجتي.

مبارك: وكيف تمتلك قلب زوجتك وقد ودعت عهد الشباب؟ أم كيف تطمئن إلى قلب عروس تخاطبك بمثل هذه العبارة: «يا عم أبجد، خذ القهوة وارقُدْ»؟

أبجد أفندي: على كل حال سأظل شابًّا.

المسيو (د): لنفرض أنْ سيكون الفرق بين عمريكما عشرين سنة وأنْ ستكون هي في سن الأربعين وأنت في سن الستين، ثم قدم لزيارتكما شابٌّ أنيق في سن الثلاثين ...

أبجد أفندي: في مثل هذه الحال أؤكد لكم أني سأغمض عيني!

مبارك: تغمض عينيك؟ إذن غضبةُ الله عليك وعلى جميع الأبجدين؟

المسيو دي كومنين: خوضوا، إن شئتم، في غير هذا الحديث.

١٨ سبتمبر سنة ١٩٣١

يا بحر يوسف

١

ليتني أعرف من هو ذلك السنتريسيُّ الظريف الذي نقل إلى سنتريس مَوَّال:

يا بحر يوسف، يا ما فيك كل بُلطِيَّة

فقد كنت في طفولتي أجد أنسًا شديدًا بهذا الموَّال، وكنت أغنيه في الصباح والمساء، وكان يحلو لي أن أترنم به وأنا أصطاد السمك من الترعة العامرية في سنتريس.

وكنت لسذاجتي أفهم أن «البُلطية» هي السمكة الحقيقية التي تعيش في النيل، فكنت أمنِّي النفس بسفر سعيد إلى بحر يوسف لأصطاد من البلطيات ما أشاء.

ثم تعاقبت الأيام وأخذت أتنبه إلى ما في القصائد والمواويل من الرمزيات.

وأخيرًا فهمت أن البلطية اليوسفية ليست سمكة نيلية تتشهّاها البطون، وإنما هي ظبية فيومية تتشهّاها القلوب.

الآن فهمت مغزى الموال:

يا بحر يوسف يا ما فيك كل بلطيّة

ولكني، وا أسفاه، لم أفهم إلا بعد فوات الوقت: لأن الشهرة التي ظفرتُ بها بحق أو بغير حق جعلتني ممن يُشار إليهم بالبنان، وأنا أخشى إن مضيت

لزيارة بحر يوسف أن يقال: هذا صياد البلطيات! وأهل الفيوم فيما أعرف لا يسرهم أن يكون واديهم غابة صيد!!

فيا أيها الأديب الذي اسمه «محمود» تذكَّرْني كلما شاكتك «بلطية»، وتذكَّر أن في الدنيا إنسانًا يتلهف على ما في بحر يوسف من الأسماك الحقيقية والمجازية!!

وسلام عليك وعلى بلدك من المحبّ المُشتاق.

٩ يوليه ١٩٣٦

٢

كان الأستاذ الدكتور منصور فهمي بك جمع أوائل المتخرجين في كلية الآداب في شهر مايو سنة ١٩٣٣، وأخذ يزودهم بالنصح، ويعرض عليهم استعداده لمعاونتهم إذا اقتضى الحال، وبدا له يومئذ أن يسأل كل متخرج عما يقصد إليه من الأعمال، وجاء دور الأستاذ محمود شافعي فقال: أما أنا فسأعمل مع أبي في تحرير جريدتنا (بحر يوسف)، وكنت بالمجلس فقلت: يستطيع سيدي الدكتور أن يعاون هذا الفتى فيرسل لجريدته مقالًا أو مقالين، فقال الدكتور منصور: ساعده أنت يا زكي، فإن قلمك أطوع.

وانتهز الأديب الفرصة فطلب مني مقالًا للعدد الممتاز من جريدته، فكتبت المقال، وفي هذا العام كتب إليَّ ذلك الأديب خطابًا طريفًا قال فيه: إن لجريدة بحر يوسف ضريبة سنوية على قلمي، وهو يتقاضاها، فأخذت أبحث عن موضوع أكتب فيه فلم أهتد، وأخيرًا رأيت أن أشرح الموَّال:

يا بحر يوسف يا ما فيك كل بلطية

فقلت: إني كنت أغنِّيه في طفولتي وأنا أصطاد السمك من ترعة سنتريس، وكنت لسذاجتي أفهم أن (البلطية) هي السمكة الحقيقية التي تعيش في النيل، فكنت أمنِّي النفس بسفر سعيد إلى (بحر يوسف) لأصطاد من (البلطيات) ما أشاء، ثم تعاقبت الأيام وأخذت أتنبه إلى ما في القصائد والمواويل من الرمزيات،

وأخيرًا فهمت أن البلطية اليوسفية ليست سمكة نيلية تتشهَّاها البطون، وإنما هي ظبية فيومية تتشهَّاها القلوب، وأسفتُ على أنْ لم أفهم هذا إلا بعد فوات الوقت؛ لأن الشهرة التي ظفرت بها بحق أو بغير حق جعلتني ممن يشار إليهم بالبنان، وأنا أخشى إن مضيت لزيارة بحر يوسف أن يقال: هذا صياد (البلطيات)، وأهل الفيوم فيما أعرف لا يسرهم أن يكون واديهم غابة صيد.

تلك خلاصة الكلمة التي نشرتْها جريدة بحر يوسف، وهي كما يرى القراء دعابة بريئة من الإثم والسوء، فهل يدرون كيف تقبلها الناس هناك؟ لقد رأتها جريدة الفيوم من الجرائم الأدبية؛ فكتبت تشتمني أقبح الشتم وترميني بالإفك والبهتان، وانبرت جريدة بحر يوسف للدفاع عني فنشرتْ مقالين أحدهما للأستاذ محمود شافعي وثانيهما للأستاذ عبد الحكيم عابدين، ونشرتْ كلمة ثالثة بإمضاء حضرة الأستاذ السيد الحكيم سكرتير مجلس النواب الأسبق رجا فيها أن لا أكون قصدت بكلمتي الطريفة غير مجرد المداعبة.

وكذلك كُتِبَ علينا أن لا نصبح ولا نمسي إلا مزوَّدين بالأراجيف، وهذه دنيا الأدب، وهي دنيا غادرة تنضح بالعقوق، ولا نرى فيها طيف البِرّ إلا في سِنات الأحلام.

وقد كتب إلينا الأستاذ محمود شافعي يعتذر عما سبَّب لنا من الضجر، ونُجيب بأننا غير غاضبين؛ لأن من المقبول أن يُشتَم المرء في بلد مثل الفيوم، وقديمًا قيل:

هنيئًا مريئًا غير داءٍ مخامرٍ لِعَزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ

ومن موجبات الأسى أن عهدي بالنضال الأدبي سيطول، فما فُتِح أمامي باب للهدوء والطمأنينة إلا أغلقته بيدي، فمتى أتوب عن مساجلة الناس؟ متى أتوب؟ فقد كدت أضجر من تقول المتقوِّلين، وإرجاف المرجفين، وعدوان المعتدين.

أمن الإثم أن يقال: إن البلطية اليوسفية رمز إلى الظبية الفيومية؟

أمن الوقاحة أن يقول كاتب: إن أهل الفيوم لا يسرُّهم أن يكون واديهم غابة صيد؟

يا محرر جريدة الفيوم!

إن كان ساءك أن نفسِّر الموال بالطريقة الرمزية، فانتظر فسنشرح ما يتصل ببلدكم من الرمزيات، حتى العنب والتين!

واحذر أن تعرض مرة ثانية إلى ذكر سنتريس بسوء، وإلا فسأجرِّد عليكم حملة فيها عشرة آلاف نبُّوت ... وقد أعذر من أنذر، والسلام.

١٩ يوليه سنة ١٩٣٦

الاستهداف للقتل في سبيل النقد الأدبي

أهلًا وسهلًا!

في ضحى يوم الأحد الماضي كنت أقلِّب بعض الأوراق في سآمة وملالة: ثم دق جرس التليفون فأنِستُ إليه وقلتُ: «لعله موعد غرام!» ولكني فوجئت بما أخلف فاتن الظنون؛ فقد كان محدثي خليفة الجاحظ في جمال الوجه، وهو الأستاذ عبد العزيز البشري، أثابه الله!

لا تسأل كيف كان الحديث، فإنه فوق الوصف، ولك أن تتصور أنه كان عنيفًا أقسى العنف، ولولا أني كنت أحدِّثه في منزلي وبين أهلي لَانْخَلَعَ قلبي من الرعب، ولكن الله لطف وأحياني حتى أُدوِّن هذا الحديث!

ابتدأ الأستاذ فقال: أنت الدكتور زكي مبارك؟

– نعم!

– أنا عبد العزيز البشري.

– أهلًا وسهلًا صباح الخير يا سيدي الأستاذ.

– لا أهلًا ولا سهلًا، ولا صباح ولا مساء، خلَّيتها خلًّا يا دكتور! أهذا هو التحقيق العلمي يا حضرة المحقق؟! كيف تزعم أني سكت سكوتًا مؤذنًا بالقبول؟ ومتى فهمت من كلامي أني أوافق على أن شرح نهج البردة ليس لوالدي؟ اسمع، اسمع، لقد قضيت حياتي نادمًا على هفوتين اثنتين؛ الأولى: أني لم أحسن لغة أجنبية، والثانية: أني لم أتعلم في أوربا، ثم كان صنيعك معي خير عزاء على ما جنيتُ من تفريط، فإن منهجك في التحقيق العلمي يعزِّي من خانته الظروف فلم يتمكن من التعلم في السوربون! ادَّعُوا ما

شئتم فقد أثبتت التجارب أننا خير منكم، والحمد لله، فلا تمنوا علينا وعلى الناس بأنكم أوفر علمًا وأغزر أدبًا، فتلك دعاوى لم تقيموا عليها البينات!

– يظهر أن الصيام يتعبك، يا سيدي الأستاذ!

– لا، ليس الصيام هو الذي يثير غضبي عليك، فقد قطعتَ بيديك ما كان بيننا من أسباب الوداد، وقضيتَ على ما أحكَم الأدب بيني وبينك من وثيق الصلات ...

– كيف؟ وما أسأت إليك يا سيدي الأستاذ، ولا جنيت على أحد من أهلك!

– أنت لم تسئ إليَّ، ولم تجنِ على أحد من أهلي؟ وكيف تكون الإساءة والجناية أكثر مما صنعتَ؟

– أنا لم أفعل شيئًا يغضبك، والله العظيم.

– اسمع، يظهر أنك رجل مُرازي، وأنا لن أدخل معك في حرب أعرف أن الغالب فيها أسوأ حالًا من المغلوب، ولكني سأسلط عليك من يُرازيك.

تهديد بالقتل

– وماذا تملك من مرازاتي يا حضرة الأستاذ؟

– أدبِّر لك أشياء شنيعة جدًّا.

– لا حول ولا قوة إلا بالله!

– ما هذه القهقهة العالية، يظهر أنك غافل عن مصيرك!

– وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصيرٌ بالعباد!

– أنا لا أمزح، افهم هذا، إن إخوتي مهتاجون جدًّا، وسترى ما يصنعون!

– وماذا يصنعون؟ أوضِحْ، أوضِحْ!

– إنك إن عدت إلى الكلام عن شرح نهج البردة فسيقتلونك على باب دارك!

– يقتلونني على باب داري؟

– نعم، يقتلونك، ويومئذ لا ينفعك حديث ولا شجون!

– أجِدٌّ ما تقول، يا سيد عبد العزيز؟

– هو الجِدُّ الصُّراح، وما نحن بمازحين!

– إن كان حقًّا ما تقول فاعلم أنني لا أخافك ولا أخاف إخوتك، ولو شئت لسُقْت في حربكم ألف نَبُّوت من سنتريس، يحملها قُروم فُحُول قاتلوا الدهر وصابروا الزمان، ولقد صاولتُ من قبلكم محمد بن فريد الوجدي، ومحمد بن عبد المطلب الجهني، ولطفي بن

جمعة الطنطاوي، وزكي بن باشا الجيزاوي، وطه بن حسين الجاهلي، ولطفي بن السيد البرقيني، صاولتُ هؤلاء على بأسهم وجبروتهم فما وَهَنْتُ ولا جَزِعْتُ، ومن قبلهم نازلتُ عيون المها على ضفاف النيل، ورماح القدود على شواطئ السين، فما انْشَعَبَ قلبي، ولا انصدع لُبِّي، فاتقوا الله في أنفسكم، واختاروا لأنيابكم طعامًا سواي، فإن لحم الحيات السود أسلم عاقبةً من لحمي وأشهى مذاقًا، وسوف تعلمون! ... إنك يا هذا لا تدري عواقب ما تهتف به، ولا تعرف ما يهدد مصر من الخطر حين يُقتل كاتب على باب داره في القرن العشرين، ألا تعلم أن ذلك لو وقع — وقاني الله ولطف! — لقامت أزمة وزارية يتصدع لها حزب الشعب ويهوي بها صدقي باشا في قرار من العزلة مكين، ثم تحبط المفاوضات بيننا وبين حلفائنا الصادقين آل جون بن هامان، وتُصِرُّ الدول الأجنبية على بقاء الامتيازات؛ لأن البلد الذي يُقتَل كُتَّابه وشعراؤه على أبواب منازلهم لا يؤتمن أهله على مصالح الجاليات! كيف يفوتك هذا كله وأنت العالم الأريب؟ ومع ذلك فافعل ما بدا لك، فإن روحي — يوم أموت شهيد الصدق — سينعَمُ بالراحة الأبدية؛ إذ يرى أن الأشياخ فيهم شجعان أبطال يقولون ويفعلون بعد أن طال عهدهم بالقرار والسكون!

أصل النزاع

وأصل هذا النزاع الذي شغل قراء البلاغ وعرَّض حياتي لخطر القتل — لا قدَّر الله ولا سمح! — أني قلت: إن شرح نهج البردة كُتب بقلم الأستاذ عبد العزيز البشري وإن والده رحمه الله راجعه وحرر فيه بعض الأبواب، فظن الأستاذ عبد العزيز أن هذا الكلام معناه اتهام والده بالتزوير، وهذا هو الفرق بيني وبينه في فهم نظام التأليف، فلو أن الأستاذ كُتِب له التوفيق، واتصل كما اتصلنا بالآداب الأوربية، وجلس كما جلسنا في القِبلة القديمة في السوربون، لعرف أن هذه مسألة عادية، ولو أنه سأل صديقه الدكتور طه حسين الذي تطوع بمناصرته لعرف أن كليمنصو وضع اسمه على مؤلفات ليست بقلمه، وإنما وضع أصولها وترك تحريرها لكاتب سِرِّه، وأناطول فرانس نُسِبتْ إليه كتب لم يحررها وإنما ألهم معانيها إلى كاتبه. ومؤلفو المسلمين قديمًا كانت لهم كتب وُضعت على هذا الطراز، فكانوا يملون في مجالسهم ويتركون لتلاميذهم المختارين تحرير الكتاب في صورته النهائية، وهذا هو التفسير الصحيح لما حدثنا به الغزالي في الإحياء حين ذكر أن كتاب «الأم» ليس للشافعي وإنما هو للبويطي، فكتاب الأم للشافعي؛ لأنه

أملى أصوله، وليس له؛ لأنه لم يحرره بقلمه، ومن أجل هذا لم نسمع شيئًا جديدًا حين اتصلنا تليفونيًّا برجل فاضل من صلب الشيخ سليم البشري فصرح لنا بما نصه حرفيًّا:

> نُسِب كتاب الأم للشافعي وليس له، ونُسِب كتاب «المدوَّنة» إلى مالك وليس له، ونسب شرح نهج البردة إلى الشيخ سليم وليس له.

لم يأت هذا الفاضل بشيء جديد؛ لأننا نعرف أن في شرح نهج البردة مسائل لم يحررها الشيخ عبد العزيز، وإنما حررها والده — رحمه الله —، وكان الشيخ عبد العزيز — ولا يزال — أعجز من أن يجاري والده في مضمار الفقه والحديث.

أفترى مِن هذا يا سيد عبد العزيز أني أتهم والدك بالتزوير؟ لا شيء مما تظن على الإطلاق، وإنما هي أصول النقد الأدبي نُذيعها بين الناس.

ومع ذلك فبأي حق تغار على الشيخ سليم أكثر من غيرتي عليه؟ لقد ظل الرجل شيخًا للإسلام والمسلمين قُرابةَ عشرين عامًا، وصار له في عنق كل مسلم دَين لا يفكر في التحرر منه إلا الجاحدون، فَلِمَ تستكثر علينا أن نترك لضمائرنا رعاية حقوق ذلك المحدِّث الجليل؟ أتصدِّق ما يُشيع المرجفون من أننا نهاجم رجال الدين ونستهين بعقائد الآباء والأجداد؟ لا، يا سيد، إن غيرتك على الشيخ سليم فيها نزعة من الأَثَرَة، والإسلام لا يعطيك من حق الغضب له إلا بمقدار ما يعطيني من ذلك، فلا تُثر غبارًا في غير ميدان، وانتظر إن كان يعنيك أن «ترازينا» حتى تجد المقبول من أسباب النضال.

وهل من اللائق أن يفهم الجمهور أن أبناء الشيخ سليم مستعدون لأن يدبروا للناس «أشياء شنيعة جدًّا»، وأنهم قد يفكرون في قتل المخلصين من الباحثين على أبواب منازلهم؟ أهذا هو ما تركه الشيخ سليم من الأثر الطيب في أبنائه النجباء؟ اتقوا الله في أبيكم واطوُوا هذا اللجاج.

بشائر الصلح

ولا يفهم القارئ أن المحادثة انتهت بالإصرار على القتال، لا، فقد بدرت من الأستاذ عبد العزيز عبارة عطفتني عليه؛ إذ قال: أنا أغضب لأبي، أنا أغضب لأبي! فقلت: إن أباك جدير بأن تغضب له، فقال: أنا لا أغضب لأبي؛ لأنه كان شيخ الإسلام، لا، والله لو أنه كان حمَّارًا أو كناسًا لغضبت له هذا الغضب! وما كاد الأستاذ ينطق بهذه الجملة حتى بلغ مني التأثر كل مبلغ، وذهب بي الإعجاب به كل مذهب، وقلت: رعاك الله ورحم أباك أيها

الشبل النجيب! ثم انتقلنا إلى عتاب أصفى من الصهباء، وأرق من قلوب المحبين، وقال الأستاذ: أنا معجب بك، وأنتظر مقالاتك في البلاغ وأقرؤها بتشوف واشتياق. فقلت: وأنا أقدِّم للأدب الحديث خدمات لا تخطر لكم على بال، ولو أنكم سألتم تلاميذي بالجامعة الأمريكية لرأيتم أني أقرِّبهم من كُتاب العصر وشعرائه أشرف تقريب، وإني لأحرص على أن تكون الجوائز الأدبية التي توزع في آخر السنة صورة صحيحة لجميع المؤلفين، وهناك أناس يطوون اسمي عمدًا في أحاديثهم ورسائلهم، ولكن حبي للأدب وإنصافي للمبدعين يحملني على نشر أسمائهم بين جماهير الطلاب … إنكم تستكثرون يا أستاذ عبد العزيز أن تبدر مني كلمة ينبعث لها جدل أو شقاق، وفاتكم أن الحياة الأدبية في مصر راكدة أبشع الركود، وأن الآداب الأجنبية تحتل أفئدة شباننا احتلالًا أخطر من احتلال الإنجليز للثغور والمطارات. إن أدبنا في حاجة إلى حياة، وهذه الحياة لن تصل إليه إلا عن طريق المشارط القاسية التي تجمع بين الألم والشفاء، فلا تحقدوا إن هجتكم للنزال، فقد تأتون بالبِدع الطريف حين تغضبون.

طلبة كلية الآداب

وما كدنا نصل إلى هذا الحد حتى غضب الأستاذ عبد العزيز للأدب وقال: يظهر حقًّا أننا نقاسي أزمة أدبية قاتلة، وقد عرضت على الأستاذ أحمد أمين أن أقدم بضع نسخ من كتاب المرآة هدايا لطلبة السنة النهائية من كلية الآداب، فأجاب بأن الطلبة لا يفهمون اليوم جمال الأساليب.

أهذا صحيح؟ هل من الحق أن طلبة كلية الآداب لا يفهمون جمال الأساليب؟ وماذا يصنع الأساتذة هناك؟ اسمعوا كلمة الحق أيها الناس! إن فاقد الشيء لا يعطيه، وما دام يتفق في مصر أن يتولى تدريس الأدب قومٌ ليسوا بأدباء، وليس لهم في الأدب ولا في تاريخه أثر معروف؛ فلا تنتظروا أن يكون في معاهدنا العالية نهضة أدبية … إن الأدب صورة الحياة فلا تطلبوه عن غير الأحياء. هل في كلية الآداب اليوم بصيص من النور يُؤْذِن بيقظة عقلية أو روحية؟ هل هناك أستاذ واحد يخطر في باله أنه موَّكل بحرب الخمود والجمود؟ إن الأدب سلطة قائمة بذاتها، ومَن عَرَف كيف يخضع في سبيل الرزق فليذكر أن الأمة كانت تعدُّه لغير هذا المجال!

طلائع الحياة

لقد جرَّتنا محادثة الأستاذ البشري إلى التفكير في بعث الحياة الأدبية، وقد تحمس الرجل أبلغ التحمُّس، واتفقنا على أن نقوم بإذاعة طائفة من المحاضرات في الراديو لحث الشبان على التعلق بروائع الأدب القديم والحديث، واتفقنا أيضًا على أنه لا أمل في النجاة إلا أن نحرر الفكر من ذلك التزمت الممقوت، فالحياة حركة ويقظة وحرية، ولا قيمة لأولئك الأدباء الموسوسين الذين يتوهمون أن الموت ينتظرهم في كل لحظة، وأن الفقر يطالعهم من كل باب، وأنه لا ينبغي أن يُخط حرف واحد قبل التفكير فيما يتبعه من قيل وقال … إن أمثال فلان وفلان ممن لبسوا قناع الصقل والطلاء يجب أن يخرجوا من الميدان ليفسحوا المجال للمجاهدين الصادقين.

أترون أيها الناس ما يصنعه الأدباء الأجانب للغاتهم؟ إن سينما رويال مثلًا أنفع للغة الإنجليزية من ألف مدرسة، والسينما الناطق الفرنسي يؤدي من الخدمة للغة الفرنسية أضعاف ما تؤديه المدارس الفرنسية في هذه البلاد؟

فهل استطاع دعاة الأدب في مصر أن يقيموا خَيَالةً ناطقة لخدمة اللغة العربية؟ ألا يستطيع الأستاذ البشري أن يستفيد من أصدقائه أغنياء الأدباء فيضعوا بناءً للسينما المصري الناطق الذي يذيع حضارة مصر الحديثة في الأقطار العربية؟

إنه لم يبق لخدمة اللغة في مصر إلا الصحافة، ولها قيود من الحكومة، وعليها رقابة من عقول الجامدين، فاتقوا الله في لغتكم ولا تَصرُخوا في وجه النقد الأدبي كلما صال أو جال.

أفمن هذا الحديث يغضب الأستاذ البشري والأستاذ زكي باشا ويعجب الدكتور طه حسين؟

يا قوم! أنتم تعيشون في عصر سمَّوْه القرن العشرين، فلا تعودوا بضجركم إلى القرن الرابع عشر، بحجة أنكم تعيشون في القرن الرابع عشر للهجرة، فقد دالت دولة الألفاظ وجاء عصر المعاني والأغراض، واتقوا يومًا تسيطر فيه الآداب الأجنبية سيطرة فاحشة على جميع العقول المصرية والشرقية. ولا يزال في أيديكم شيء من الأمر، فاعملوا على تثبيت أقدام اللغة العربية بأسباب القوة والحياة؛ ففي حياتها حياة لكم ولإخوانكم في الشرق، لو تشعرون.

باب المناقشة مفتوح

لقد رجانا الأستاذ البشري أن نقفل باب المناقشة، وكنا نود أن نغلقه بالضبَّة، كما يعبر أهل سنتريس، ولكن المصلحة الأدبية تحتم أن تنتقل المناقشة من فنّ إلى فنّ؛ ليتسنى للقراء أن يطلعوا على وجوه من مذاهب الحياة العقلية، فليخلع الأستاذ البشري ثوب الكسل والسكون، وليتقدم إلى الميدان بكلمات ينفض بها غبار الغفلة عن شبابنا الزاهدين في أدبنا القديم والحديث؛ فإن كتابة مقال نافع تساوي درس العلم الذي فضَّله السلف على عبادة ستين سنة، فإن لم يفعل فسأقتله أنا، لا على باب داره، ولكن على صفحات البلاغ!!! وسلامٌ عليه من العارف لفضله الجم، وأدبه الرفيع.

١٦ رمضان سنة ١٣٥١هـ

أبجد أفندي يتزوج

أبجد أفندي يتزوج؟

بالرفاء والبنين، يا رفيق الجميع!

في مثل هذه الأيام من العام الماضي قدمنا أبجد أفندي إلى القراء، وإني لأعرف أن كثيرًا منهم لم ينسَ هذه الشخصية الجذابة التي توحي الرَّوح إلى القلوب، والأنس إلى النفوس، ولكن من المحتمل أن يكون فريق منهم لم يتفق له أن يقرأ ما كتبنا في وصف هذا الصديق الظريف؛ لهذا نقدمه مرة ثانية، وبصورة ثانية، فقد عرفنا من أمره ما لم نكن نعرف، واطلعنا على كثير من خبايا قلبه المراح، ونفسه الطروب.

ولأبجد أفندي نواحٍ كثيرة تستحق الدرس، وكل ناحية منه تقدم لنا شخصية مستقلة كل الاستقلال؛ فهو موظف، وصديق، وضحوك، وعبوس، وحيوانٌ اجتماعي!

وهو كموظف يمتاز بالحركة الدائبة والنشاط الموصول، وحسبُنا أن نعرف أنه يسوِّد في مكتبه ما لا يقل عن عشرين صفحة في العام الواحد! ولا يلاحظ عليه الكسل إلا حين يُعهد إليه ترجمة أحد النصوص، ولكن كسله في مثل هذه الحال كسلٌ علميٌّ مقبول: فهو يقف أمام الكلمة الفرنسية موقف الخاشع المتبتل، ويأخذ في تأملها من جميع النواحي: فيعُدُّ حروفها ويقارن بينها وبين ما يماثلها من الكلمات القصيرة أو الطويلة، ويجتهد بقدر الإمكان في ردها إلى أصولها اللاتينية أو اليونانية، ويظل على هذا الحال بضعة أيام، ثم يفكر آخر الأمر في ترجمتها إلى العربية، وهنا يبتدئ النزاع: هل اللغة العربية لغة حقًّا؟ وهل هي لغة عِلم؟ وهل هي لغة حضارة؟ كيف وهي تضيق عن التعبير عن بعض الأغراض؟ ويستمر هذا النزاع أسابيع ويشترك فيه جميع زملائه بالديوان، إلى أن يقضي الله بترجمة النص المطلوب!

وهو كصديق آية في الإخلاص: لا يكذب ولا يتجنى ولا يخون، يدعوك إلى طعامه، ويدعو نفسه إلى طعامك، واللحظاتُ معه أيام سعادة وإيناس، ولا عيب فيه إلا أنه يقترح أشياء كثيرة جدًّا، فإذا قُدِّمت المائدة كان نصيبه منها أقل من نصيب الطفل العليل. وأبجد أفندي عزيز جدًّا على أصدقائه، ومن آيات ذلك ما شهدته بنفسي عشرات المرات من صديق فرنسي جليل يرفق بأبجد أفندي ويعطف عليه، وينسى له جميع الهفوات. وهذا حظٌّ يُحسد عليه أبجدنا المفضال.

أما ضحكه وعبوسه ففي يد المقادير، ولا تعرف متى يضحك أو متى يعبس، وأكبر الظن أنه يحمل قلبًا جريحًا، ولكن في أي معركة جُرح ذلك القلب؟ عِلم ذلك عند علّام الغيوب.

وأصدقاء أبجد أفندي يعرفون طبعه، وصديقنا الفرنسي يصفه بالتعاسة والبؤس، وهو وصف يبدو كبيرًا على أبجد أفندي، ولكنه عند التأمل يظهر من أصدق الأوصاف.

وهو كحيوان اجتماعي شخصية عجيبة تستحق بعض التفصيل، ولنترك خوفه من الكلاب، فهو في ذلك مضرب الأمثال، ويكفي أن نذكر أن الكلب (دوك) لا ينبح إنسانًا سواه، بحيث يمكن الجزم بأن أبجد أفندي جبان أو خبيث؛ لأن الكلب الألوف لا ينبح إلا اللئام أو الجبناء، ومن المؤكد أن أبجد أفندي غير لئيم، فلم يبق إلا أن يكون جبانًا، ولو قليلًا، فإن شقَّ عليه ذلك فليتشجع ويقابل (دوك) في صباح أو مساء لنشهد بأنه غير جبان!

ولأبجد أفندي عداوات موسمية تخلقها الظروف؛ فهو اليوم عدو فلان وغدًا عدو علّان، ثم ينسى هذه العداوات نسيانًا تامًّا حين تتغير المناسبات، وهو حين يُعادي خبيث اللسان إلى حد الإسفاف، وقد جهدنا في تقويمه ولم نفلح، مع أنه مهذَّب في حضرة (دوك)! وقد يلاحظ أن له فوق عداواته الموسمية عداوات دائمة يَحسُن طيها عن القراء.

وهذا الحيوان الاجتماعيُّ دميم الشكل، ولكنه عند أهله غزال! وقد اتفق لكاتب هذه السطور أن يزوره مرة في منزله فدهش عندما رأى الفرق الهائل بينه وبين أخواته الملاح، وقد بَدَرَتْ مني الكلمة الآتية لإحدى أخواته: «كيف يتفق لكِ هذا الجمال يا آنسة مع دمامة أخيك؟»

فصاحت في وجهي قائلةً: «دا أخويا قمر!»

ثم دعت أمها وقصت عليها ما قلتُه فغضبت الستُّ وكادت ترفع العَشاء!

تجلنَزَ أبجد أفندي حينًا، وتفرنسَ حينًا، ولكنه لم يتمصَّر في روحه ووجهه إلا قليلًا، وسرُّ هذا أنه ظل شاهدًا على أن الفراعنة احتلُّوا زمنًا بلاد الصومال، وسِحنتُه الصومالية

نفعته يومًا في باريس، وكاد مخزن اللوڤر يتخذه حاجبًا ليرفِّه بطلعته (البهية) عن أنفس الزائرين. ولا يزال مخزن اللوڤر يسعى لتحقيق ذلك الغرض، وآيةُ سعيه ما نرى من عناية مندوبه بمصر وسهره على إدراك هذا المطلب، وإلا فما الذي يجمع بين أبجد أفندي والمسيو بوسان؟

ومن العسير على أبجد أفندي أن يحفظ نظام المحادثة خمس دقائق؛ فهو يقفز من حديث إلى حديث بطريقة مضجرة لا يحتملها إلا الصابرون، وعلى المحادثين أن يغتفروا له ذلك، وإلا سكت وعَلَتْهُ الكآبة وغمرَ المجلس بأثقال الضجر والاكتئاب.

ولأبجد أفندي قهقهة عالية لو أُخِذَتْ في إسطوانة لعادت عليه بالرِّبح الجزيل، وله شدق واسع جدًّا لا يظهر خطره إلا عند أكل المانجة، ولهذا يحسن أن نسميه (أبجد أفندي الأشدق).

أبجد أفندي جاوز الأربعين، ولا يزال مع ذلك عَزَبًا والعياذ بالله، ومشروعُ زواجه مشروعٌ قديم يرجع إلى عشرين عامًا، ولا يُفتح الحديث في منزله أو مكتبه أو ملهاه أو سامره إلا عن الزواج، وما زارت أمَّه أو أختَه جارةٌ أو صديقةٌ أو قريبةٌ إلا سألت عن زواج أبجد أفندي، وتُختم المحادثة دائمًا بهذه العبارة الدُّعائية: «ربنا، يا ستي، يرزقه ببنت الحلال!»

وبنت الحلال المنشودة هي المشكلة؛ فهي في نظر الست أم أبجد يجب أن تكون (بنت بلد) تعجن وتخبز وتطبخ وتغسل. وفي يوم الخميس من كل أسبوع تحضر فلّاحةٌ وسيمةٌ لتوريد ما يلزم المنزل من البيض والبط والدجاج فتأخذها الست أم أبجد على ناحية وتُسرُّ في أذنها الكلمات الآتية: «تعرفيش يا أختي، واحدة عندكم بنت حلال؟»

فتجيبها الفلاحة الوسيمة: «علشان مين، يا ستي؟ أظن علشان بسلامته المحروس أبجد أفندي، أعرف يا ستي واحدة ست بيت وبنت ناس بس إيدك عالفلوس، دا الحلو يستاهل، يا أم أبجد!»

أما «بنت الحلال» في نظر أبجد أفندي فيجب أولًا أن تكون:

هيفاءَ مُقْبِلةً عَجْزَاءَ مُدْبِرَةً لا يُشتَكَى قِصَرٌ منها ولا طُولُ

وهو لهذا لا يحفظ من الشعر إلا قول أبي نواس:

بانوا وفيهم شموسُ دَجْنٍ تُنْعِلُ أقدامها القرونُ
تعومُ أعجازهن عَومًا وتنثني فوقها المُتونُ

وقول مسلم بن الوليد:

إذا أطاعتْ عصاها ثِقْلُ رادفها كالدِّعْص يَفْرَعُهُ غصْنٌ من البانِ

وقول ابن التعاويذي:

تميل على القلوب بذي اعتدالٍ له من نَشْوَةٍ وصِبًا مَمِيلُ
ويُقعِدها إذا خَفَّتْ نهوضًا لحاجتها مؤزَّرُها الثقيلُ

ويتلخص ذوق أبجد أفندي في الهيام بالمرأة العَجْزاء، وهو يحفظ من اللغة ألفاظًا خاصة في وصف المرأة السمينة كالرَّضراضة والخَدلَّجة والمَرمارة والعَضَنَّكة والرَّبْلة والعُطبول والمؤكَّمة والوركاء، وقد يضيف إلى ذلك اللخفاء، ويحفظ كذلك كل ما يتصل بالعَجُز والوركين كالقَطَن والغُرابَين والحَجَبتين والمأكمتين والحُقّ والفائل والحارقة والخُربتين والصَّلَوين والحَرْقَفتَين والعَجْب والقُحْقُح والعُصْعُص والرانِفة والكرمة والزّرين والوابِلَتين والمحارَتَين؛ إلى آخر ما يعرف من الأسماء والأوصاف.

ومن عجيب أمره أنه لا يصدِّق أن للمرأة جمالًا في غير تلك المنطقة الخطِرة، فإذا حدثته عن صباحة الوجه، وأسالة الخد، ووضاءة البَشَرَة، وملاحة الأنف، ورشاقة القدِّ، وعذوبة الثغر، وحلاوة العينين، ولباقة الشمائل، وظرف اللسان؛ سَخِر منك وعدَّك طفلًا لا تفهم أسرار الجمال.

وهو في هذه النقطة من المجدِّدين في اللغة، فهو يقول: امرأة رَدْفَاء وكَفْلَاء: إذا كانت وثيرة الردف والكفَل، قياسًا على قولهم في عظيمة العَجُز: عجزاء، وهو من أهل البصر بهذه الشؤون!

وبعد فقد اجتمعنا في سنتريس مساء الخميس الماضي، وتحدثنا عن زواج أبجد أفندي، وكان المجلس مُكوَّنًا من ستة أشخاص فيهم صديقنا الفرنسي الجليل، وثلاث

سيدات فرنسيات، إحداهن عذراء غَضيضة الطرف، غَنَّاء الصوت، رَزَانٌ قَدُوع، وعَطيفٌ شَمُوع.

المسيو (ك): مضت مدة لم نسمع فيها شيئًا من أخبار أبجد أفندي في «البلاغ».

أبجد أفندي: ومن ذا الذي يجرؤ على نشر أخباري في البلاغ؟ إن الدكتور مبارك يعرف ما ينتظره إن عرض لي بكلمة واحدة! أتظنونني بلا عِزْوة؟ أنا والله أستطيع أن أحضر خمسين نَبُّوتًا لمعاونتي إذا اقتضى الحال، أنا أيضًا فلّاح، ولي أهل يحسنون عمل النبابيت كأهل الدكتور مبارك، فليقف كل امرئ عند حده، ولا يغتر السيد مبارك بأبناء عمه، فلي بحمد الله آباء وأعمام، وأستطيع دفع الشر بالشر، وسيعلم أهل سنتريس، إن جدَّ الجِدّ، كيف يكون قِراع الشماريخ، وجلاد النبابيت!

المدموازيل لوسي: أبجد أفندي تُنشر أخباره في البلاغ؟

المسيو (ك): لا تعرفين هذا؟ اسألي المدام (ك) والمدام (ج) فقد عرفتا قصته قبل أن تحضري من باريس.

المدموازيل لوسي: ومن أي نوع أخبار أبجد أفندي؟

المسيو (ك): إنها لا تخرج عن الزواج.

المدموازيل لوسي: ألا يزال عزبًا في هذه السن الشمطاء؟

أبجد أفندي: وهل ترينني كهلًا، يا مدموازيل؟ أنا بحمد الله لا أزال غَضَّ الشباب، لَدن الإِهاب، ولولا دِقةُ الذوق لتزوجت من زمان.

المدموازيل لوسي: وكيف منعتْك دقة ذوقك من الزواج؟

المسيو (ك): لأنه يريد امرأة عجزاء!

أبجد أفندي: وباريسية.

الكاتب: وباريسية أيضًا؟ الله يفضحك يا أبجد، وكيف تكون الباريسية عجزاء؟ إنك تطلب المستحيل، يا أخا الصومال!

أبجد أفندي: نعم، أريد باريسية عَجْزاء.

الكاتب: قلت لك: إن الباريسية لا تكون عجزاء، وقد عشت زمنًا في باريس ولم أر امرأة عجزاء ولا لفَّاء.

أبجد أفندي: الباريسية الأصيلة يجب أن تكون عجزاء، وأنا أعرف أنك لم تخرج من الحيّ اللاتيني، وبنات ذلك الحي كلهن طالبات، والبنت تحتاج إلى وقت حتى يستدير كَفَلها ويلتفّ فخذاها، والفرنسيون كلهم يرون في الحسن رأيي، ولو تأملت الصور المرسومة في سقوف اللوڤر لرأيت النساء في ذوق الفرنسيين كنَّ دائمًا ثِقال الأرداف.

الكاتب: أنت مخطئ، يا سيد أبجد، فإن النساء المرسومات في سقف اللوڤر لا يمثِّلن الذوق الفرنسي، وإنما اتجه الفنانون بأذواقهم إلى تماثيل اليونان، واليونان شرقيون يحبون أن تكون المرأة ذات فخذٍ ألَفّ وكَفَلٍ ثقيل.

المسيو (ك): ولِمَ لا يتزوج أبجد أفندي مصرية؟

أبجد أفندي: لأن المصرية غير متعلمة.

المدام (ك): في مصر كثير من المتعلمات.

أبجد أفندي: مهما تعلمت المصرية فلن تصل إلى الفرنسية.

المدام (ك): أتظن الفرنسيات كلهن متعلمات؟

أبجد أفندي: نعم! حتى الخادمات، وأنا أعرف خادمة على جانب عظيم من الثقافة، وعندي منها رسائل تنطق بما هي عليه من العلم الواسع والأدب الرفيع.

المدام (ك): وعندك رسائل لغير الخادمات؟

أبجد أفندي: هذا إحراج!

المسيو (ك): وماذا تنتظرين أن يكون عنده من الرسائل؟ إن الرجل رحل إلى باريس مرة ومعه ذوقه الخاص في فهم المرأة، ومن المحتمل أن لا يكون مالَ إلا إلى الخادمات؛ لأنهن في الأغلب يُبتلَيْن بالسمنة لقلة الخروج، وأكثرهن جاهلات لا يعرفن شيئًا من روح العصر الذي يفرض أن تكون المرأة مسمورة هيفاء. إن أبجد أفندي رجل «عبيط»، ولولا ذلك لفهم قيمة المرأة المصرية، فإنه لا يوجد أرض تحلو فيها العيون كما تحلو عيون النساء في هذه البلاد، ولو أنني كنت على شريعة محمد وسمحت لي زوجتي لاقترنتُ بفتاة مصرية وخضعتُ طائعًا لسحر تلك العيون.

أبجد أفندي: وما قيمة العيون إن لم تكن المرأة عَبْهَرةً رَضْرَاضَةً لفَّاء وَركاء؟

الكاتب: يظهر أن أبجد أفندي يحب واحدة سمينة في حارتهم!

المسيو (ك): لا تبعدوا بالله عن أصل الحديث. أنا أرى المرأة المصرية نموذجًا في الجمال، ولو كنت أعرف اللغة العربية لخاطرت بحياتي في الهيام بامرأة مصرية، وذُقت من خمر حديثها ما يشرح ما في عيون المصريات من آيات السحر والفتون.

الكاتب: ليت شعراءنا نظروا إلى المرأة المصرية بعينيك الثاقبتين، أيها الفرنسي الجليل، إذن واللهِ كان فيهم ميسيه ولامرتين.

أبجد أفندي: البركة في الدكتور زكي مبارك!

الكاتب: نعم، ليس عندنا ميسيه ولا لامرتين، على ما تراه العيون من كل رَقْراقة غَيْدَاء، وبَهْنَانة دَرْماء، ومَمْكُورة لفَّاء، وخَدَلَّجة وَرْكاء، ورَدَاح عَنْقاء، ورُعْبُوبة رَءُود، ومُبَتَّلة خَرُود، وعَبِقة أَنُوف، ولَبِقة رَشُوف.

أبجد أفندي: دخلنا في «أفنان الجمال»، وسننتقل بعون الله إلى «مدامع العشاق»!!

الكاتب: ليس عندنا اليوم شعراء يحسنون النَّسِيب، والأغاني نفسُها قلَّت فيها النفحات الوجدانية، مع أن ماضي الشعر العربي أشرف ماضٍ من هذه الناحية، وقد بلغ شعراؤنا الأقدمون أقصى الغايات في الكشف عن دفائن الوجدان، وإني لأرجو أن يكون في هذه اللفتة إلى جمال المرأة المصرية حافزٌ للشعراء على التغني بالمصريات الملاح.

أبجد أفندي: خرجنا عن الموضوع، فاسمحوا أن أعود إلى بيان ما اعتزمتُه من الاقتران بفتاة باريسية.

المدام (ك): إلى متى الصبر على نَزَقِك يا أبجد؟ أما لك في حارات شبرا غنًى عن حسان باريس؟

المسيو (ك): لا تنزعجي يا عزيزتي، فلن يتزوج أبجد باريسية ولا قاهرية، إنه مسكين يسرِّي همه بالحديث عن النساء، وأخشى أن تقف به همته عند الاكتفاء بمضغ الحديث!

٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢

الأدب بين الفطرة والذكاء

كثير من الناس يعجبون بآثار الكُتّاب والشعراء من غير أن يبحثوا عن مصدر ذلك الإعجاب، وفي رأيي أن المطالعة لا تُثمِر إلا إن تبيَّن للقارئ جيدًا ما هو السر في جمال ما يقرأ من النثر الجيد والشعر البليغ. وقد يكون السبب في اختلاف النقاد على الأثر الأدبي الواحد أنهم لا يتنبهون إلى تحديد الأصل الذي يبنون عليه حكمهم بقوة الأثر الذي يختلفون فيه أو ضعفه، ولو قد فعلوا لذهب كثير من أسباب الخلاف.

وقد نظرت في أصول الأدب فوجدتها تنتهي إلى أصلين: الفطرة والذكاء. فكل أثر أدبي يرجع إلى سلامة الفطرة التي أوحت به، أو قوة الذكاء التي ابتدعته. فعلى القارئ أن يتأمل أصول ما يقرأ ليعرف أهو معجبٌ بآثار الفطرة أم بآثار الذكاء. وعلى من يختلفون في تقدير الآثار الأدبية أن يرجعوا إلى هذا الأصل لعلهم يتفقون.

ولنوضح هذه النظرية ببعض التوضيح: قد نقرأ خطبة واحدة لعلي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — مثلًا، فنرى فيها فقرات أوحتها الفطرة وفقرات أرسلها الذكاء.

فمن وحي الفطرة قوله:

> وأي امرئ منكم أحسَّ من نفسه رباطة جأش عند اللقاء، ورأى من أحد من إخوانه فشلًا فليذبَّ عن أخيه بفضل نجدته التي فُضِّل بها عليه كما يذُبُّ عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله.

فهذه الفقرة تبدو ساذجة لا تنميق فيها ولا تهويل؛ لأن الخطيب أرسل النصح على سجيته بلا تكلف، ولكن لننظر كيف استعان ذكاءه حين قال:

> وكأني أنظر إليكم تكِشُّون كشيش الضِّباب لا تأخذون حقًّا ولا تمنعون ضيمًا.

فهذه صورة بشعة لمواقف الجبناء، لم توحها الفطرة، وإنما ساقها الذكاء.

وأوضحُ من هذا أن الشاعر قد يقدِّم لنا حجة داحضة ولكننا نقبلها معجبين؛ لأنه استعان مواهبه العقلية في بعض الصور الشعرية: كقول البحتري يعتذر إلى صديق قصَّر في توديعه يوم الرحيل:

الله جارك في انطلاقكْ تلقاء شامك أو عراقكْ
لا تعذلنِّي في مسيـ ـرك يوم سرت ولم ألاقكْ
إني خشيت مواقفًا للبين تسفح غرب مَاقكْ
وعلمت أن بكاءنا حَسَبُ اشتياقي واشتياقكْ
وذكرت ما يلقَى المُودْ دِعُ عند ضمِّك واعتناقكْ
فتركت ذاك تعمُّدًا وخرجت أهرب من فراقكْ

فهذا شعر مقبول، ولكنه لا يمس القلوب؛ لأننا نرى فيه حيلة المُحتال، لا وجد المشوق. وأقربُ منه إلى القلب قول ابن زيدون وهو يتوجع على أن لم يُطل خطوات التوديع:

ودَّع الصبر محبٌّ ودَّعكْ ذائعٌ من سره ما استودعكْ
يقرع السِّنَّ على أن لم يكن زاد في تلك الخُطا إذ شيَّعكْ
يا أخا البدر سناءً وسنًا رحم الله زمانًا أطلعكْ
إن يُطل بعدُك لَيْلِي فلكَمْ بتُّ أشكو قِصَرَ الليل معكْ

ومن المعروف أن المبالغات من صنع الذكاء، ولكنها تبدو أحيانًا وفيها نفحة من الفطرة، كقول ابن الأحنف:

ويا فوزُ لو أبصرتِني ما عرفتِني لطول نُحُولي بعدكم وشُحُوبي

ففي هذا البيت مبالغة، ولكن صدق الشاعر في لوعته يكاد يقنعنا بأنه من صنع الوجدان، وفي هذا المعنى نفسه يقول الحسين بن مطير الأسديّ:

فلو أن ما أبقيت مني معلَّقٌ   بعود ثُمام ما تأوَّدَ عودها

فإنه لا يمتري أحد في أن هذا البيت مصنوع، ولكنه لا يزال رائعًا بفضل ما فيه من أثر الذكاء، وقد سقط المتنبي حين قال:

كفَى بجسمي نحولًا أنني رجلٌ   لولا مخاطبتي إياك لم ترني

لأنه بالغَ في استغلال قدرة الذكاء، ومثله قول بعض المتأخرين:

عادني ممرضي فلم ير مني   فوق فرش السقام شيئًا يراهُ
قال لي: أين أنت؟ قلتُ: التَمِسْني   فبكى حين لم تجدني يداهُ

فهذا شعر قتلته الصنعة؛ لأن الشاعر لم يهتم إلا بإعلان ذكائه وتفوقه في تصيد الخيال.

وأين هذا من قول مدرك الشيباني وقد أوحت إليه الفطرة هذه الأبيات في محاورة من عاده وهو عليل:

أنا في عافية إلــ   ــلَا من الشوق إليكا
أيها العائد ما بي   منك لا يخفى عليكا
لا تعُد جسمًا وعُد قَلــ   ــبًا رهينًا في يديكا
كيف لا يُقتَل مرشو   قٌ بسهمَيْ مقلتيكا

وقد يفهم القارئ مما أسلفنا أننا نُؤْثر وحي الفطرة على صنع الذكاء، ونحن نرى أن الحال يختلف باختلاف الموضوعات؛ فهناك شؤون يجب أن يُترَك الرأي فيها للفطرة الخالصة، وشؤون يترك الإفصاح عنها لعمل العقل. والأديب المتفوق هو الذي يفرق بين مقتضيات الأحوال؛ فلا يخلط بين مقام الفطرة ومقام الذكاء.

ومن أمثلة الخلط بين المقامين قول بعض الوراقين في شكوى حاله:

عيشي أضيقُ من محبرة، وجسمي أدق من مسطرة، وجاهي أرق من الزجاج، ووجهي عند الناس أشد سوادًا من الحبر، وحظي أحقر من شِق القلم، وبدني أضعف من قصبة، وطعامي أمرُّ من العفص، وسوء الحال ألزم لي من الصمغ.

فهذه قطعة تدل فقط على أن منشئها من الأذكياء، ولكنها — لبعدها عن الفطرة — لا تعطف عليه القلوب.

وإلى القارئ مثالًا من صنع الذكاء الخالص، وقد وقع أحسن موقع؛ لأن كاتبه لم يرد إلا إتحاف القارئ بطائفة من الأخيلة جمع بعضها إلى بعض في نظام جميل.

وهذا المثال من صنع أبي منصور الثعالبي، حسب ما وصلنا إليه، وقد جمع أهل الصناعات في صعيد واحد، وأنطقهم بوصف البلاغة عن طريق صناعاتهم.[١]

فقال الجوهري: أحسن الكلام نظامًا ما ثقبته يد الفكرة، ونظمته الفطنة، ووصل جوهر معانيه في سموط ألفاظه، فاحتملته نحور الرواة.

وقال العطار: أطيب الكلام ما عُجن عنبر ألفاظه بمسك معانيه ففاح نسم نشقه، وسطعت رائحة عبقه؛ فتعلقت به الرواة، وتعطرت به السراة.

وقال الصائغ: خير الكلام ما أحميته بِكِير الفكر، وسبكْته بمشاعل النظر، وخلَّصته من خبث الإِطناب، فبرز بروز الإبريز في معنًى وجيز.

وقال الصيرفيّ: خير الكلام ما نقدته يد البصيرة، وجلَته عين الروية، ووزن بمعيار الفصاحة، فلا نظر يزيِّفُه، ولا سماع يبهرجه.

وقال النجاد: أحسن الكلام ما لَطُفتْ رفارف ألفاظه، وحسنت مطارح معانيه، فتنزهت في زرابيّ محاسنه عيونُ الناظرين، وأصاخت لنمارق بهجته آذان السامعين.

وقال الكحال: كما أن الرمد قذى الأبصار، فكذا الشبهة قذى البصائر، فاكحل عين اللكنة بمِيل البلاغة، واجلُ رمص الغفلة بمرود اليقظة.

وهذه فقرات اقتطفناها من ذلك الحديث، وهو مثبت برمته في الجزء الأول من زهر الآداب، فليَرجع إليه القارئ إن شاء. والمهم هو بيان أن هذا نوع من المران العقلي يتقبله القارئ بارتياح، ولا يغض منه أن كان من أثر الذكاء وحده؛ لأن آثار الذكاء هي كذلك مما تشتهي النفوس.

ولكن هل يمكن الفصلُ بين عمل الفطرة وعمل الذكاء في الآثار الأدبية؟

---

[١] لهذا الكلام تفصيل في الجزء الأول من كتاب (النثر الفني).

قد يقع ذلك في بعض الأحيان، وإلا فأي فطرة أوحت إلى أبي العلاء وصف الليل والنجوم حين قال:

فكأنِّي ما قلت والليل طفلٌ وشباب الظلماء في عنفوانِ
والثريا كوجنة الحِبِّ في اللو نِ وقلب المحب في الخفقانِ
ليلتي هذه عروسٌ من الزنـ ـج عليها قلائدٌ من جُمانِ

ومن هنا كان ابن المعتز أقرب منه إلى القلوب حين قال:

زارني والدجى أحمُّ الحواشي والثريا في الغرب كالعُنقودِ
وكأن الهلال طوقُ عروسٍ بات يُجْلَى على غلائلَ سُودِ
ليلة الوصل ساعفيني بطولٍ طوَّل الله فيك غيظ الحسودِ

لأن ابن المعتز تأثَّر بما رأى فكان خياله وليد الفطرة والذكاء، وعملُ الذكاء قد يَرِقُّ ويلطُف حين تسري إليه نفحات الإحساس.

وقد عُنِيَ الدكتور طه حسين غير مرة بوصف البواخر والشواطئ والوديان الفرنسية، فكان يتكلم عن كل أولئك بعبارات بارعة تُعجز المُبصرين، ولكنه لم يقنع القارئ إلا بأنه من الأذكياء، وكانت أجمل عبارة قرأتها له في هذه الأوصاف قوله: «وكانت السفينة تلتمس مرساها».

وجمال هذه الجملة يرجع إلى ما فيها من دقة التعبير عن إحساسه بحركات السفينة وهي تواجه الميناء.

وقد زرته مرة في باريس وهو يسكن في فندق يطل على ميدان الأوبسرڤتوار، فسألته كيف تخير المقام في هذه الضوضاء، فأجاب: «أنا أحب ضوضاء باريس!»

وعبارة «أنا أحب ضوضاء باريس» أثر من آثار الفطرة الخالصة، وهذه العبارة لا يدرك القارئ مدلولها تمام الإِدراك إلا إن ذكَّرناه بقول الشريف الرضي:

فاتَني أن أرى الديار بطرفي فلعلي أرى الديار بسمعي!

وقد جلس بشار بن برد مرة في مجلس فيه نساء، فقال لصاحب له: إن فلانة جميلة المضحَك، فقال له صاحبه: كيف عرفت ذلك ولم تر أسنانها؟ فأجاب: إنها تكثر من الضحك، وفي ذلك دليل على أن ثناياها عِذاب!

وهذه لمحة من لمحات الذكاء عند بشار، وقد عاب الناس عليه قوله:

إن في برديَّ جسمًا ناحلًا لو توكأتِ عليه لانهدمْ

لأنه كان جسيم البدن لا يعرف ما النحول، ولم يتنبهوا إلى وحي الفطرة في قوله:

لو توكأتِ عليه لانهدم

لأن حاجته إلى عصًا يتوكأ عليها هي التي ساقت إليه هذا الخيال.

بقي أن نذكر أن هناك آثارًا أدبية نحار في ردها إلى الأصل الذي نبعت منه؛ لأنها أسمى من أن تخضع لتحليل النقاد، فمن ذا الذي يستطيع أن يعيِّن سر الحسن في قول ابن المعتز:

يا ليلةً نسيَ الزمانُ بها أحداثَهُ كوني بلا فجرِ
باح المساء ببدرها ووشتْ فيها الصَّبا بمواقع القطرِ
ثم انقضَتْ والقلبُ يتبعها في حيثما سقطت من الدهرِ

فإن البيت الأخير أُعجوبة من أعاجيب الخيال … ومن ذا الذي يستطيع الإفصاح عن أسرار الحسن في قول أبي نواس:

ألا لا أرى مثلي امترى اليوم في رسمِ تَغَصُّ به عيني ويلفظه وهمي
أتَتْ صور الأشياء بيني وبينهُ فظني كَلَا ظنٍّ وعلمي كَلَا علمِ
فطِبْ بحديثٍ من حبيبٍ موافقٍ وساقيةٍ بين المراهق والحُلم

ضعيفة كرِّ الطرف تحسب أنها قريبة عهدٍ بالإفاقة من سُقْمِ
وإني لآتي الأمر من حيث يُبتغَى وتعلم قوسي حين أنزع من أرمي

وبعد فهذه إشارات عن أثر الفطرة والذكاء في الأعمال الأدبية، نقدمها للقارئ الذي يهمه أن يتلمس أسباب الإجادة فيما يقرأ من الرسائل والخطب والقصائد، وهي فيما نظن بعض الصواب، إن لم تكن كل الصواب.

باريس في ٥ مارس سنة ١٩٣١

ويصا واصف

انتهت حفلة الأربعين، ومضى كل امرئ لشأنه، ولم يبق للأستاذ ويصا واصف إلا الذكرى، فلنقل نحن هذه الكلمة قبل أن تنتهي المناسبات.

وكلمة (المناسبات) هنا لها معناها، فإن الشعوب تَنسى كما ينسى الأفراد، ولا حظَّ لامرئ إلا ما قدَّم من العمل الصالح. والويلُ لمن يكتفي من المجد بما يبقى على ألسنة الناس.

فإن كان القارئ في شك من ملال الشعوب فلنذكر له المرحوم سعد باشا، أفيظن أن الصحف ترحب مثلًا بمقال يكتب اليوم عن ذلك الزعيم؟ ومع هذا فلنترك سعد باشا؛ لأنه قريب العهد، أفيظن أن الصحف ترحب بمقال يُكتب عن محمد فريد أو مصطفى كامل؟

إن الناس يُشغَلون بساعتهم الحاضرة، فمن العبث أن نطلب منهم ما لا يستطيعون، وجدير بكل مجاهد أن يروض نفسه على العمل في سبيل الله والواجب دون أن يفكر في جزاء الناس، فإن الجزاء منهم قليل.

ويصا واصف معروف من أمد بعيد، ولكن أول مرة تنبهت فيها إلى خطره كانت حين وقف في مجلس النواب يدعو إلى الحياة الحرة. وهي الخطبة التي طلب لأجلها صدقي باشا أن يُنص على تقدير النواب لذلك الرأي النبيل، يوم كان صدقي باشا تحت راية الائتلاف.

ثم أذاعت الجامعة الأمريكية أنه سيخطب في حفلتها السنوية في نفس الموضوع «الدعوة إلى الأعمال الحرة»؛ فسارعت إلى استماع خطبته، ولكنه لم يرضني كخطيب؛ لأن اللحن كان يسبق إليه في بعض التعابير، مع أنه كان من كبار المفكرين.

ثم مضت الأيام والرجل يزداد شهرة ونباهة، وكنت أحب أن أراه، ثم تقع حوائل، إلى أن تلاقينا في الليسيه فرانسيه في ربيع سنة ١٩٢٩ عند زيارة الوزير بوتفو لمصر، ويومذاك تعارفنا وتصادقنا في سرعة؛ لأن نفوسنا كانت مُعَدَّة للصداقة، وكان — رحمه الله — من أوفى الأصدقاء.

ثم كان الحادث العظيم حادث تحطيم سلاسل البرلمان، فبلغ الرجل من الشهرة مبلغًا ما كان يخطر له ببال. وقد اتفق أن رأيته بعد ذلك بأيام فوق ظهر الباخرة مرييت باشا، وكانت الساعة الرابعة بعد ظهر أول يوليه سنة ٣٠، وأمام شواطئ كورس، وكان معي صديقي الأستاذ عزيز ميرهم. وأذكر أني رأيته يوم ذاك في صحة جيدة، فلم أكتمه أن حادث تحطيم السلاسل زاد في قوته وجدد في شبابه. وقد لاحظتُ أن نظراته أمعنت في التعقيد وصار من الصعب أن يدرك محدثه من هو؟ وماذا يريد؟ وكذلك كان الرجل توغل في انتهاب محاسن أبي الهول؛ فهو يتكلم ويفصح، ولكنه يظل مكتوم السريرة مجهول الأعماق.

قلت: أنا أريد أن أرسل باسمك حديثًا للبلاغ.

وإذ ذاك انتفض الرجل وقال: وماذا تُغني الأحاديث؟

– تُحطِّم بها سلسلة جديدة، يا سعادة الرئيس.

– سلسلة جديدة؟

– نعم سلسلة جديدة، فإن ميدان الجهاد لا يزال ينتظر الأبطال، وليس بعد سلاسل يونيه إلا سلاسل يوليه.

ولم أكد أُتم هذه العبارة حتى خرج الرجل عن وقاره وقال: ليس المهم أن تُحطِّم سلسلة وضعتها الحكومة. إنما المهم أن تقوى الأمة حتى يكون لها من الرهبة ما يمنع الحكومات اللاعبة من التفكه بمثل تلك الألاعيب! لقد آن الأوان لأن نرهف عزائمنا ونسهر على تربية الأمة وتكوينها تكوينًا صحيحًا من الوجهة العلمية والأخلاقية والسياسية، ولا يليق بنا أن نظل هكذا عرضة لتقلبات الظروف، ولا ينبغي لساستنا وذوي الرأي فينا أن يطمئنوا إلى أن الجمهور أصبح يتابع الحركة الوطنية، فإن هذا وحده لا يكفي، وليس للوطني أن يطمئنَّ إلا في اليوم الذي تصبح فيه الأمة على يقين لا يشوبه أدنى شك بأن الاستقلال ضرورة من ضرورات الحياة، وأن من العار والصَّغار أن يرضَى الرجل بأن تكون أمته أمةً محكومة مُستعبَدة ولو أغرقها مستعبدوها في الترف والنعيم. ولقد مضى الزمن الذي كنا نعدِّد فيه مزايا الحرية ومساوئ الاسترقاق، ولم يبق إلا أن نفكر جِديًّا

في قطع دابر ذلك التواكل الممقوت الذي جعل منا أمة مبددة الشمل مفككة الأواصر، لا تفكر في حقوقها إلا في فترات متقطعة، ثم تعود للخمول.

قلت: يظهر أن سعادة الرئيس متشائم، مع أن الظواهر كلها تدل على أن الأمة حية، وأنها حريصة على حريتها أشد الحرص.

فأجاب: آسف لأن أصارحك بأن الأمة لا تزال مقصرة، ولو أنها عرفت حق المعرفة أنه لا قيمة للحياة بغير الاستقلال لتغير الموقف، ولما كان التغيير والتبديل يأتي من مصادر أجنبية بعيدة عن إرادتها كل البعد، ولَمَا وُجد فيها من يسخر منها كلما بدا له أن يعبث أو أن يسخِّر غيره للعبث بكرامتها وسلطانها وهي مصدر ما يملك مدَّعو حبها من كرامة وسلطان.

عندئذ قال الأستاذ عزيز ميرهم: لا ينبغي أن نبتئس ما دمنا نرى الظروف تخدم الحرية وتأخذ بيد الشعب إلى صفوف العزة والكرامة. ألم تغير نهضة سنة ١٩١٩ معالم الحياة المصرية في وقت ظن فيه الغاضبون أنه لم يبق في الأمة رجل رشيد، ولم تُبق فيها المظالم المتتابعة نزعة من نزعات الإباء؟

وحادث تحطيم السلاسل، من الذي فكر فيه؟ ألم يظهر لوقته ولحظته بدون روية وكأنه في وجه المستبدين أجلٌ مفاجئ أو طاعونٌ مبيد؟

قلت: يسرني أن يكون هذا رأي رئيس مجلس النواب، فأنا لا أحب لمثله أن يرضى بما ليس فيه الرضا، فكيف والأمة لا تزال في يد غيرها، وهي سليلة من أقاموا دعائم الملك المنظم يوم كانت الأمم الأخرى غارقة في بحار الهمجية.

ولكن حدِّثْني، يا سعادة الرئيس، عن شعورك يوم تحطيم السلاسل.

فأجاب: أنا عمري ما خِفت ولا جَبُنت، ولقد صدر الأمر باعتقالي وأنا أترافع في قضية والبوليس ينتظرني، فما ترددت ولا تلعثمت، ولا ندَّ مني غرض أرمي إليه، ولا شردت مني كلمة أطلبها، ولا لاحظ جمهور الحاضرين أنني تغيرت أو تلفتُّ، ولكني يوم حادث البرلمان وُجِدْتُ في مأزِق ضيق حين سألني بوليس البرلمان: ماذا يكون الحال لو أرسلت لنا الحكومة قوة مسلحة؟ فأجبته بدون تردد: «ادفع القوة بالقوة» وأنا أعلم أنني أُشير بأمر خطير.

ومع هذا ما قيمة تحطيم السلاسل ما دمنا لا نطمئن إلى أن للأمة من الرهبة والسلطان ما يزعزع أمل الرجعيين ويقوض أحلام الطامعين.

فعدتُ أنا والأستاذ عزيز ميرهم نطمئنه فقال: لا تحسبوا أني يائس، فأنا أعلم أن الأمة لها وجود قويٌّ متين، وسنرى يوم الشدة أنها عند ظننا، وأنها ستُرِي الحكومة أن

كلمة الشعب هي العليا، وأن الحكومة التي لا تخضع لإرادة الأمة مقضيٌّ عليها بالخذلان. غير أني مع هذا أرتاب في أن يفهم كل مصري أن الموت خير من العبودية، وأن الشرف هو الرزق الأعظم، ولا رزق لرجل رضي بأن يكون من العبيد، ولو كانت قُيوده من ذهب وأغلاله من حرير.

قال هذه الكلمات ثم مضى لا يلوي على شيء.

وعدت أنا والأستاذ عزيز ميرهم نتجاذب أطراف الحديث ونتطلع إلى شواطئ كورس، وبعد لحظة عاد إلينا الأستاذ ويصا واصف وقال: أصحيحٌ أنك سترسل ما سمعته مني إلى البلاغ؟

قلت: نعم!

فقال: اكتبه ملطَّفًا جدًّا، وإلا فإنك ستضطرني إلى تكذيبه.

قلت: سأكتب ما سمعت، ولك أن تكذِّب حين تشاء!

فقال: أنت رجلٌ لا يُحتمَل!

قلت: ومع ذلك حملتني السفينة!

ثم تركَنَا مرة ثانية، وعاد الأستاذ عزيز ميرهم يرجوني أن أكتب الحديث، وأن أطلعه عليه قبل أن نفترق، ولكنني أجبته بأني لا أستطيع أن أدوِّن شيئًا فوق ظهر الباخرة؛ لأن صحتي تعاني بعض الانحراف.

ثم دونت الحديث بدون أن أطلعه عليه وأرسلته للبلاغ، وظللت أنتظر وصول الجريدة لأقدم إليه نسخة منه، ولكنها لم تصل؛ لأن الوزير صدقي كان عطلها إشفاقًا على المحررين من العمل في الصيف، وكان قد سمع أن الأستاذ عبد القادر حمزة يكلف زملاءه في التحرير ما لا يطيقون!

ولكن اتفق أني لقيت الأستاذ ويصا واصف مصادفةً في باريس، فأخبرني أنه اطلع على الحديث مترجمًا في الليبرتيه.

فقلت: وهل أرسلت التكذيب؟

فأجاب: وكيف أكذبك وأنت لم تُرِدْ إلا إذكاء نار العزيمة في صدور المصريين؟

وكانت آخر مرة لقيت فيها ذلك الرجل النبيل.

ويمرّ الآن بالبال العنوان الذي وضعه الشاعر خليل مطران لقصيدته في رثاء أم المحسنين، وهو: «آخر تحية لآخر عودة».

ويعزّ عليَّ أن أُحرَم مودة ذلك الرجل؛ فعهدي به — رحمه الله — كان يذهب إلى الليسيه فرانسيه ليتعرف أخبار أبنائه هناك، ثم كان لا ينصرف حتى يفكر في مقابلتي.

ففي ذمة الله تلك الصداقة القصيرة التي عصفت بها الأيام، ورحمة الله على أول قبطيٍّ قال: أنا مصريٌّ فقط، ثم انضم إلى الحركة الوطنية في عهد مصطفى كامل.

ولأجل ذلك كان أيضًا أول قبطي مشى الشعب كله في جنازته. أليس ذلك برهانًا على أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا؟

٩ يوليه سنة ١٩٣١

الأخلاق عند الضعفاء

أظهرُ ما يميِّز الرجال فهمُهم للأخلاق.

والأخلاق نوعان: أخلاق إيجابية وأخلاق سلبية، ولهذين النوعين حقائقُ نافعة وظاهرٌ بَرَّاق، والحقائق من حظوظ الأقوياء، أما المظاهر فهي من حظوظ الضعفاء.

وإني لأذكر أنه حين اشتجر الخلاف بيننا وبين الطليان على جغبوب في وزارة زيور باشا كنت في منزل أحد المشاهير من المصريين الذين يفهمون كثيرًا ولكنهم لا يتذوقون ما يفهمون، وكان لذلك الرجل الشهير مكتبة غنية بمراجع التاريخ وتقويم البلدان، فمدَّ يده فأخرج أطلسًا كبيرًا، ثم أخرج منه خريطة أفريقيا الشمالية، وبعد أن تأمل طويلًا قال: «انظر، انظر، هذه جغبوب، ألا ترى أنها أقرب جغرافيًّا إلى مستعمرة الطليان؟»

وبذلك علل الرجل نفسه والتمس المعذرة لوزارته الضعيفة. ولو أنه تأمل قليلًا لعرف أن الطليان هم الأجانب هناك، ولكنه رجل ضعيف يتمسك «بالعدل» في الحدود التي يفهمها الضعفاء. فالخريطة واحدة للجميع، وهي عادلة للجميع، ولكن «العدل» يدعو القويّ إلى السيطرة والفتح، على حين ينظر الضعيف إلى العدل فيُؤْثر الاستكانة والخشوع.

ومنذ أيام لقيت أحد أساتذة كلية العلوم فسألته عما نُشر في البلاغ عن التعليم بالعربية لا الإنجليزية، راجيًا أن يكون الرجل استفاد من ملاحظات الجمهور الغاضب من صبغ كلية العلوم بالصبغة الإنجليزية. ولكن الرجل انفعل وقال: «أنتم يا أخي تنظرون إلى المسألة من جهة قومية!»

وكان ذلك هو الجواب المقنع الذي اطمأنَّ إليه المصري المتجلنز الذي علمه أساتذته أن العلم شيء والقومية شيء آخر، وهي — والله — فلسفةٌ تدل على نظر بعيد!

والذي يهمني هنا أن أَدُلَّ القارئ على أن المسألة لا تزال مسألة أخلاق، ولا يزال الخُلُق الطيب موضع نزاع بين الأقوياء والضعفاء؛ فالأقوياء يرون أن الكرامة هي في المحافظة على القومية، أما الضعفاء فيتفلسفون ويرون أن المحافظة على القومية لون من ألوان الهمجية لا يليق على الأقل بالقرن العشرين!

ولن أنسى ما حييت أني حضرت مؤتمر اللغات الحية في باريس، وكان المؤتمرون قد اتفقوا على أن يتكلموا الفرنسية في محاوراتهم إكرامًا لمقر المؤتمر وهو السوربون، فلما جاء دور مندوب ألمانيا قام فتكلم بالألمانية فصاح الحاضرون محتجين، فأجاب في هدوء: «سأترجم لكم الخطبة بعد أن أؤديها بلغتي».

ومع هذا العناد لم يتهمه أحد بالهمجية، ولكنهم عذروه حين آثر المحافظة على القومية.

فيا فلاسفة العصر في وادي النيل … تذكَّروا أن «القومية» هي كذلك فلسفة مشرِّفة يحرص عليها أمثال أولئك الجرمان الذين يريدون أن تكون «ألمانيا فوق الجميع».

وبعدُ فلكم أن تتفلسفوا كيف تشاءون. ولكن احذروا أن تؤثروا فلسفة الضعفاء.

٣ ديسمبر سنة ١٩٣١

الآداب الباقية

كنت بينت للخصم الشريف سلامة موسى وجه الخطأ فيما ذهب إليه من الدعوة إلى الإقلال من العناية بالأدب العربي، وكانت حجتي أنه يُعنَى بالأدب الفرعوني مع أنه أدب مُوغِل في القدم، وأن الأستاذ عبد القادر حمزة يبذل جهودًا عنيفة في شرح الأساطير الفرعونية، ولم يقل أحد إنه يضيع وقته فيما لا يفيد، فكيف يلام رجل مثلي إذا قَصَرَ عمره على درس الأدب العربي، مع أنه أدبٌ حيٌّ لا يزال يسيطر على أذواق الناس في المشرق والمغرب، وهو فوق ذلك يفسر غوامض النفس العربية التي تلقت الإسلام ونشرته في العالمين.

وللباحث أن يؤمن بالإسلام وأن لا يؤمن، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أن الإسلام يسيطر على كثير من الشعوب، والباحث لا مفرَّ له من درس اللغة التي أُدِّيتْ بها مذاهب ذلك الدين، وهو يفعل ذلك علمًا إن لم يفعله تدينًا؛ أي أنه لا مندوحة من درس أصول ذلك الدين من النواحي اللغوية والتشريعية، والمسلم وغير المسلم في ذلك سواء؛ لأن العلم لا يوجب على العالم أن يؤمن بالإسلام قبل أن يدرس الإسلام، ولا يفرض عليه أن يعتنق المسيحية قبل أن يدرس المسيحية، وإنما يأتي الإيمان بعد الدرس، وقد لا يأتي أبدًا، فما أحسب صديقي سلامة موسى سيُسلم وإن سبق الناس إلى فهم القرآن!

وأعود اليوم فأقرر أن لدراسة الأدب العربي غايات أخرى غير تلك الغايات الدينية، وأبدأ فأنقض حجة الأستاذ سلامة موسى؛ إذ يرى أن غاية الأدب هي توجيه الحياة الاجتماعية، وأن الأدب الحديث أنفع دائمًا من الأدب القديم؛ لأنه أقرب ولأنه يصلح الحياة التي نعيشها تمام العيش، أما الأدب القديم فيتحدث عن حياة مضت وانقضت، ولم يبق ما يوجب أن نتلفت إلى ما كان فيها من محاسن وعيوب.

ماذا تريد أيها الصديق؟

أتحسب أن الأدب لا غاية له إلا توجيه الحياة الاجتماعية؟

عَدِّ عن هذا، فالأدب كما يكون ضربًا من الإصلاح، يكون نوعًا من الوصف، وهو وثيقة تسجَّل فيها مظاهر الحياة الاجتماعية، وقد يصير دستورًا تخضع له الحياة الاجتماعية.

فإن كنت في ريب من ذلك فراجع كتب الأدب في القديم والحديث، وستراها سِجِلَّات دُوِّنَتْ فيها أزمات القلوب والنفوس والعقول، ستراها نماذج وصفية قبل أن تراها شرائع وقوانين.

والفرق عظيم بين الأدب وبين التشريع، فإن التشريع يَرسُم حدود المعاملات وفقًا لما اطمأنَّ إليه الناس في فهم الحقوق والواجبات. أما الأدب فيصور الألم من القبح والدمامة في المحسوسات والمعقولات، ويصوِّر النماذج العالية التي يصبو إليها الكُتَّاب والشعراء.

فرجل القانون يعيش في عالم الواقع، أما الأديب فيعيش في عالم المِثَال، رجل القانون يعيش في أجواء يَحُدُّها الضُّرُّ والنفع، أما الأديب فله وَثَبَات وبَدَوَات لا يدركها إلا المصطَفَوْن الأبرار من أهل الأرواح.

والكُتَّاب الاجتماعيون يعيشون في عالم الواقع كما يعيش رجال القوانين، ولذلك نراهم يهتمون بشؤون لا يلتفت إليها أحد من الشعراء، والأستاذ سلامة موسى كاتبٌ اجتماعي وليس بأديب، واللغة عنده ليست إلا أداة تفاهم، وكل تأنق في العبارة والأسلوب يبدو لعينيه وكأنه لَغْوٌ وإسراف، والأدب القديم لا يمكن أن يحتل رأسًا مثل رأس الأستاذ سلامة موسى، وهل في الأدب القديم جنيهات وبورصات وصناعات واقتصاديات حتى يهتم به هذا الصديق الذي يضع على عينيه نظارة من ورق البنكنوت؟

أما الأديب — وا رحمتاه للأديب! — فهو إنسان لا يعرف غير عالم المعاني، وليس للدنيا في نفسه حدود ولا تواريخ، فهو يتلمس الحكمة حيث وقعت، الحكمة الجميلة التي تحمل طابع الحق والخير والجمال.

والذي ينظر إلى الدنيا بعين الاقتصاد لا يستطيع أن يفهم ذوق الأديب، فالعباس بن الأحنف هو عند أهل الاقتصاد مجنون؛ لأنه قضى عمره يتغنى بمحبوبة واحدة قَصَرَ عليها فنه وهواه. وعمر بن أبي ربيعة مخبول؛ لأنه لم يكن يحلم بغير مناسك الحج، ولم تكن تلك المناسك في قلبه إلا معالم فتنة وملاعب شباب. وميسيه أحمق؛ لأن باريس لم تكن في نفسه إلا مطارح صبابة، ومنازل هواء، ومراتع فتون.

ولكن هؤلاء المجانين فيما يرى الاقتصاديون هم عندنا أعقل العقلاء، ومجموعة ميسيه في الشعر والقصص أحب إلى قلبي مما تحتويه خزائن البنك الأهلي، وبيتٌ من

ديوان المتنبي أعزُّ على نفسي من بيت في الزمالك وهي روضة البحرين. ولا أُنكر أني أجازف حين أرمي بمثل هذا القول، ولكني أعرف أني وقعت غير مرة في مثل هذا الطيش، فقد بعت ساعتي وملابسي وأنا في باريس لأقتني كتابًا نادرًا هو ترجمة دي ساسي للتوراة، وفي سنة ١٩١٥ تحدث الناس أن القاهرة في خطر وأن الألمان سيقذفونها بالمهلكات، فلم أَخَفْ يومئذ إلا على مكتبتي فنقلتها إلى سنتريس، وعدت إلى القاهرة في طمأنينة، كأن نفسي لا تهمني، وإنما يهمني أن تعيش مكتبتي وأن تحيا فيها أرواح الكُتَّاب والشعراء.

وليس معنى ذلك أن الأديب لا يعرف قيمة المال، أو أنه شخص مجذوب لا تستهويه إلا بوارق الخيال، لا، إن الأديب قد يعرف أخطار المنافع المادية، ولكنه ينظر إليها نظرة المأخوذ بما فيها من القدرة على تلوين الوجود، والأديب حين يمرّ على البنك الأهلي يتمثل ما في المال من سحر وطغيان، فهو يُذل الكرام ويُعز اللئام، وهو الذي يرفع ويضع، ويقدِّم ويؤخِّر، ويُكرم ويُهين، وهو الذي يؤجِّج نار الحرب حين يشاء، ويضع قواعد السلم حين يشاء، وبفضله تُصان أعراض، وتُذال أعراض، وباسمه تُقَضُّ مضاجع وتَهدأ جُنُوبٌ، ولولا المال لتساوى الناس فلم يكن فيهم وضيع ولا رفيع. وأكثرُ القِيَم المعنوية لا تخلقها فضائل العقل والوجدان، وإنما يخلقها المال الذي يستطيع أن يجعل من العجوز الحيزبون عروسًا حسناء!

وخلاصة القول أن الأديب ينظر إلى المصارف المالية نظرة شعرية، ويتمثلها خياله على نحو من السيطرة والجبروت قد لا يرتقي إليها علماء الاقتصاد.

ما لي ولكل هذا؟ الذي يهمني هو أن أقرر أن الأديب لا يَشُوقه غير المعاني، وهو من أجل ذلك لا يتقيد بالحدود التاريخية ولا الجغرافية، وهو لا يُعنَى بالمشاكل إلا من الوجهة الإنسانية، أما الأوضاع الاجتماعية فموقفه منها موقف الوصَّاف الذي يشرح المحاسن والعيوب. والأديب ليس دائمًا من الحكماء، وإنما هو فنان ينتفع بمظاهر الرشد والغيّ، والبِرّ والفجور، والجِدّ والمجون.

وهذا لا يمنع أن يكون الأديب من أهل الكفاح Homme d’action، وهو حين يكافح يصبح قوةً خطرةً في الحياة الاجتماعية؛ لأنه يحلِّق دائمًا في الأجواء العالية، ولا يقنع بالقليل، وتمتاز الحياة العربية بكثرة من ظهر فيها من الأدباء المكافحين؛ فقد كان امرؤ القيس وأبو فراس والمتنبي وابن العميد من رجال الكفاح، وكان أئمة النثر الفني في دواوين الإنشاء من أهل الكفاح، وكانوا يسيطرون على الحياة الاجتماعية والسياسية،

ولكنهم كانوا مع هذا نماذجَ من الخرق والطيش في عالم الاقتصاد؛ إذ كانوا يتسابقون في ميادين التبذير والإسراف، وكانت المعنويّات هي التي تسيطر على أذواقهم وعقولهم، فلم يتركوا شيئًا يدل على تعمق في فهم أصول المعاش. والذي لا مِرْية فيه أن الأدباء لا يخلُون من انحراف، وقليلٌ منهم من يوصف باعتدال المزاج، ولكن ذلك الانحراف هو أصل تلك العبقرية التي تبني وتهدم، وتأسو وتجرح، وهم حين يسيطرون على الحياة الاجتماعية والسياسية يرفعون عنها آصار البلادة والخمود، ولولا أهل الأدب من كُتّاب الصحف والمجلات لأصبحت حياة الناس تجري على وضع رتيب لا يقظة فيه ولا إحساس، فهم على ما فيهم من عيوب مِلحُ هذه الدنيا، ولا يطيب في غيبتهم عيش، ولا يجمُل بدونهم وجود.

ومن طبيعة الأدباء أن تضيق عليهم دنياهم فلا يجدون فيها كفايتهم الروحية والعقلية من ذخائر المعاني، فهم أبدًا متنقلون بالفكر والخيال من أرض إلى أرض، ومن عهد إلى عهد، ولا يعلم إلا الله كيف فُطِرَتْ تلك النفوس التي لا تفرِّق بين قديم وحديث، وإنما تعشق المعنى الأصيل، ولا يهمها أن تعرف أين يقع من التاريخ.

وبفضل تلك الفطرة الذوقية تحيا آداب وفنون تطاوَلَ عليها الزمان. وما الذي يروع الناس من خرائب الكرنك ومقابر وادي الملوك؟ وما هي قيمة الأهرام حين تنظر إليها بعين العقل؟ إن القناطر الخيرية أجمل من الأهرام وأنفع، ولكنها لا تجذب أحدًا من المتشوفين للنفائس؛ لأنها بِنْت الأمس، ولأنها بُنيت في سبيل النفع، ولم يُلحظ فيها أن تكون مَشرقًا من مشارق الفن الجميل، أما الأهرام فمَرَاد سحر وفتون، ولها في قلوب المتشوِّفين منزلة عالية؛ لأن الذين بنوها فكروا في معنًى شعريّ بديع هو معنى الخلود.

ولو نظرنا إلى الأهرام بعين الاقتصاد أو بعين سلامة موسى لرأيناها سُبَّةً في تاريخ مصر، والفراعنة الذين بَنَوها فعلوا ما فعلوا في غيبة البرلمان، في عهد «نسيم» ذلك الزمان، وإلا فكيف يمكن حكومةً برلمانية أن ترضى بتسخير الفلاحين جميعًا في إقامة بناء لا تدخله شمس ولا هواء، ولا يصلح إلا للأموات؟

ومع هذا فمن ذا الذي ينكر أن الأهرام من بقية السِّحر في مصر، وأنها عنوان ما كان في هذا الوادي من عناصر القوة في الأبدان والعقول والأذواق؟

الأهرام بُنيت بفضل الظلم والطغيان، ولكن للشعر فيها مواقف، وللهوى إلى منادحها نزاع،[1] وما ضاع من أموال الناس وأرواحهم في بناء الأهرام لا يُساوي قُبْلَةً مختلَسة ينهبها شاعرٌ من محبوبته في رحاب تلك الصروح الشمَّاء.

أقول هذا وأستغفر الله لمن ينتهبون القُبُلات في ذلك الحرم الأمين!

١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥

[1] النزاع: هو الشوق.

في فقه اللغة

أثارَ الباحث المفضال الأستاذ محمد مسعود مشكلة لُغوية في جريدة الأهرام حول كلمة «فيلق» التي يكتبها الصحفيون مُذكَّرة فيقولون: «الفيلق الرابع»، ويريدها الأستاذ مؤنثة فيقال: «الفيلق الخامسة»، وقد اهتم فريق من المتأدبين بمناصرة الأستاذ، وأضافوا إلى بيناته شواهد تثبت وجوب التأنيث موافقةً لمن أنثها من الشعراء الأقدمين.

وأريد في هذه الكلمة القصيرة أن أوجه نظر الأستاذ إلى أن تأنيث كلمة «فيلق» لا يتفق مع روح اللغة؛ لأن الكلمة مأخوذة من الفَلْق بمعنى الشَّق والقَطع، وكلُّ ما ورد من الكلمات العربية على وزن «فَيْعَل» مذكَّر قُصد به المبالغة في المعنى، ومن ذلك ضَيْغَم وفَيْصَل ونَيْرَب وصَيْقَل وفَيْتَن وحَيْدَر وعَيْلَم وخَيْبَر وفَيْخَر وغَيْلَم وحَيْذَر وفَيْكَر وفَيْقَر. ويلحق بهذه الكلمات ما جاء على وزن «فَوْعل» مثل صَوْمَل وجَوْهر وكَوْثر وهَوْدج وحَوْمل وشَوْحَط وكَوْكب وكَوْدن ولَوْلب.

ويؤكد تذكير ما جاء على وزن «فيعل» أن التاء تُضاف إليه في المؤنث فيقال في نيرب: نيربة، وفي حيدر: حيدرةٌ، إلى آخر ما نصّت عليه المعاجم، وإضافةُ التاء للتأنيث دليلٌ على أن المجرد منها أصيلٌ في التذكير.

ولنلاحظ أن فيلق ورد مفسرًا بالجيش في المختار والقاموس. وأضاف الفيروزآبادي أن الفيلق الرجل العظيم، وهذا صريح في أن الكلمة تداولتها المعاجم بالتذكير والتأنيث، ولم تنص على التأنيث وحده كما يظن الأستاذ محمد مسعود.

قلنا إن ما جاء على وزن «فَيْعل» غلب عليه التذكير، فلنضف إلى ذلك أن ورود كلمة «فيلق» مؤنثة في بعض الشواهد لا يخرج عن أمرين: فهو إما أن يكون بمعنى الكتيبة وإذ ذاك تؤنث مراعاة للمعنى، وإما أن يكون لحنًا سبق إلى ألسنة شعراء الجاهلية؛ لأن الجاهليين أيضًا يلحنون، وإن استبعد ناسٌ ذلك. وورود كلمة فيلق مذكرة في صحفنا

وعلى ألسنتنا يؤكد ما كتبتُه مرة في مناقشة الأستاذ عباس الجمل من أن اللغة تسير طوعًا للفطرة إلى موافقة القياس.

والواقع أن الشذوذ لا يكثر في اللغات إلا في عهد الطفولة، ولكنها حين تَقْوَى وتستبحر يطَّرد فيها القياس ويعود الشاذ والمسموع من المهجورات، فلا ينبغي لنا إذن أن نذكِّر الكُتّاب بالشواذ التي أُثِرتْ عن شعراء الجاهلية؛ لأن في ذلك محاربةً للنمو والقوة، وإنما يجب أن نقوِّم الأغلاط التي تصرف الكُتَّاب عن مسايرة التطور المقبول.

على أن كلمة «فيلق» إن وردت مؤنثة في كلام القدماء مرة أو مرتين فقد سرت في كلامنا مذكَّرة ألف مرة، ولسنا أقل من أعراب البادية شعورًا باللغة ولا أقل إدراكًا لما يَعْتَوِر الألفاظ من التذكير والتأنيث وفقًا لما تخضع له من تلوُّن المدلول … ونحن عربٌ بالفطرة، وإن لم نشهد مرابع الشِّيح والقَيْصُوم.[١]

١١ ذي القعدة سنة ١٣٥٠هـ

[١] من المؤكد أن الأديب المصري أكثر انطباعًا على اللغة العربية من العرب أنفسهم؛ لأنها وصلت إلى دمه وروحه منذ أجيال طوال، ولأنها أصبحت عنده لغة علم ومدنية، فهو يُعبر بها عن مقاصد وأغراض لم يعرفها العرب القدماء.

حجازيات الشريف الرضي

– أين نحن من الليل؟

– أي ليل تعني، يا صاح؟!

– ليل هذا الزمان!

– أنت إذن تعني الليل البهيم؟

– وما البهيم؟

– كان يجب أن تفهم وأن لا تحتاج إلى إيضاح، أَمَا تعرف قول الشاعر:

أَعِنِّي على الليل البهيم فإنَّهُ   على كل عين لا تنامُ طويلُ

– أعرف هذا البيت، ولكنه كان لعهد معرفتي به خاليًا من كلمة «البهيم».

– أنا الذي حولته إلى هذا الوضع ليأتلف مع ليل الزمان؟

– وما هو الأرَق في مثل هذا الليل؟

– هو يا صديقي وصل الأحزان بالأحزان والهموم بالهموم، في الأزمان التي يكون فيها الفقر علامة لكرام الناس.

– وما عسى أن تكون الغَفَوات للمحزونين في مثل ذلك الليل؟

– هي البلادة الذهنية والروحية التي تُنسي الرجل أشجان الرجال!

– فهمت! ولكن ماذا عسى أن يصنع من يكرُم عليه قلبه وعقله فلا يتبلد تبلد الأغفال؟

– يلتمس من يُعينه على الليل البهيم!

– وكيف يكون العون في مثل هذه الحال؟

– للكرام، يا صديقي، ألوان من العُلالات، وخير ما أتعلل به حين يطول الأرق في ليل الزمان هو الاغتباق بأكواب الشعر الجميل ... إليك المكتبة فإن شئت كلَّفت خاطرك — كما يعبر بعض الناس — فخطوت خطوات إلى الصِّوان الخاص بدواوين الشعراء.

– البحتري، أبو تمام، ابن المعتز ...

– هات ديوان الشاعر الذي يودِّع الباخرة «زمزم».

– وهل كان القدماء يعرفون الباخرة «زمزم»؟

– كانوا يعرفونها، وكانت تُسمى لعهدهم «سفينة الصحراء».

– شيء عجيب!

– العجيب هو أن لا تعرف ذلك!

دعتني إدارة الباخرة زمزم للعبور من الإسكندرية إلى بورسعيد، فلبَّيتُ الدعوة ثم تخلفتُ؛ لأن البحر يخيفني أعنف الخوف، ولست أخاف الغرق فإن أشرف الأكفان عندي هو الماء الأجاج، ولكني أخشى الدُّوَار الذي عانيتُ أهواله عشرات المرات في عبور بحر «العرب» من الإسكندرية إلى مرسيليا، فقد كنت في كل مرة أتمنى لو تُقَطَّع بيني وبين البحر أسباب اللقاء، لا قدر الله ولا سمح!

وكانت هذه الدعوة الكريمة مما لَفَتَ النفس إلى صورة موسم الحج في أنفس الشعراء القدماء، وكنت فيما سلف شغلتُ نفسي بتلوين هذه الصورة حين ألَّفت كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره»، ثم عدت فتذكرت أن للشاعر عمر بن أبي ربيعة خليفةً قرشيًّا هو الشريف الرضيّ: إمام شعراء الوجدان في القرن الرابع.

ومن الحديث المُعاد أن أتكلم عن ابن أبي ربيعة في هذا الفصل الذي أكتبه للبلاغ، فليكن حديثي عن الرجل المهيب الجليل الورع العفيف الشَّهم الذي لم تمنعه هيبته ولا جلالته ولا ورعه ولا عفته عن تدوين النوازع الوجدانية التي كان يفيض بها قلبه أيام الحجيج.

كانت إلى الشريف الرضي إمارة الحج فاتفق له بذلك أن يشهد الموسم شهود النبلاء، وكان موسم الحج عند القدماء يجمع بين فرصتين: الفرصة الدينية التي تؤدَّى فيها الفريضة، والفرصة الاجتماعية والوجدانية التي يتعرف بها الرجل إلى أعيان الناس ويمتع عينه وقلبه بما يُحشَر في موسم الحج من ألوان الجمال، ولنتذكر أن ذلك وقع يوم كان العرب يجمعون بين التقى والفتوَّة، ويصلون بين الدنيا والدين، ومَثَلهم في ذلك مَثَل

أهل أوربا في العصر الحديث، ففي أوربا لعهدنا هذا مواسمُ للحج يذهب إليها المتقون تديُّنًا، ويزورها الشعراء تظرفًا، فيجد فيها أولئك وهؤلاء مُتْعَة العين ومُتْعَة الروح.

فلا يحسب بعض القراء أن إسراف الشريف الرضي في وصف ما اجترحتْ عينه أيام الحج خروجٌ على وقار تلك الأرض المقدسة، هيهات، فلو كان ذلك مما يَغُض من قدره لما تيسَّر له أن يتولى إمارة الحج، وأن يتولى نقابة الأشراف، وأن يجد من يرشّحه للخلافة الإسلامية ... إنه لا مفر من الاقتناع بأن صورة الدين تختلف في أذهان الناس باختلاف ما هم عليه من قوة وضعف، ونباهة وخمول، ومن الحق أن نقرر أن الناس لا تكثر وساوسهم في فهم الدين إلا في العصور التي يضعف فيها الدين، ومَثَلهم في هذا مَثَل العليل لا يكثر تفكيره فيما يضر وما ينفع إلا حين تهجم العلة ويَعزُّ الشفاء. أما الصحيح فلا يفكر فيما يأتي وما يدع؛ لأن العافية تُنسيه عواقب الإفراط في الطعام والشراب.

فيا أيها القارئ المتحفظ، لا تظنّ أن الشريف الرضي كان رقيق الدين، ولكن تذكَّر أن الغزل والتشبيب علامة العافية والفتوَّة، وتذكر قبل كل شيء أنه رجل قرشيٌّ، وأن القرشيين كانوا معروفين بوثبات العزائم، وصَبَوَات القلوب.[١]

[١] هذه القطعة مقدمة لمقالات نشرها الكاتب في البلاغ (مارس سنة ١٩٣٤)، ثم اتفق للكاتب أن ينظر في حجازيات الشريف نظرة ثانية، وأن يكتبها بصورة جديدة وهو في بغداد سنة ١٩٣٨ بحيث صارت ركنًا من كتاب «عبقرية الشريف الرضي».

ملاحظات أدبية ولغوية

بس!

بَسْ: كلمةٌ مستعملة في لغة التخاطب، ولكنها متروكة في اللغة الأدبية، وهي مع ذلك من الكلمات التي عرفتها المعاجم، وقد عثرت في بعض كتب الأدب على شاهد طريف لهذه الكلمة؛ إذ حدَّث بعض العلماء وقد تزوج: لما حُمِلت المرأة إليَّ جلست في بعض الأيام على العادة أكتب شيئًا والمحبرة بين يديّ، فجاءت أمها فأخذت المحبرة فلم أشعر بها حتى ضَربتْ بها الأرض وكسرتها. فقلت لها في ذلك، فقالت: بَس! هذه شرٌّ على ابنتي من ثلاثمائة ضرة!

جواب شاعر

قال بعض الشعراء في وصف الصهباء:

حمراء مثل دم الغزال وتارةً　　　بعد المزاج تخالها زِرْيابا
وإذا المِزَاج علا فشجَّ جبينها　　　نَفَثَتْ بألسنة المزاج حَبابا

فاستدعاه المهديُّ وقال: لقد وصفتَ الخمر فأحسنت في وصفها إحسان من شربها، وقد استحققت الحَدَّ! فقال الشاعر: أيؤمنني أمير المؤمنين حتى أتكلم بحجتي؟ قال: قد أمَّنتُك، فقال: وما يدريك، يا أمير المؤمنين، أني أجدت وصفها، إن كنت لا تعرفها؟ فقال المهدي: أُعزُب، قبَّحك الله!

حذوك النعل بالنعل

عرفنا هذا التعبير في شعر عمر بن أبي ربيعة حين قال:

فلما توافَقْنا عرفتُ الذي بها — كمثل الذي بي حذْوَك النعل بالنعلِ

ثم رأيناه بعد ذلك في كلام رواه الأصمعي إذ قال: مررت بالبادية على رأس بئر وإذا على رأسه جَوَارٍ، وإذا واحدة منهن كأنها البدر، فوقعت عليَّ الرِّعدة، وقلت:

يا أحسن الناس إنسانًا وأملحهم — هل باشتكائي إليك الحب من باسِ
فبيِّني لي بقولٍ غير ذي خُلُفٍ — أبِالصَّريمة نمضي عنك أم ياسِ

قال: فرفعت رأسها وقالت لي: اخسأ! فوقع في قلبي مثل جمر الغضا، فانصرفت عنها وأنا حزين، ثم رجعت فإذا هي على رأس البئر فقالت:

هلمَّ نَمْحُ الذي قد كان أولهُ — ونُحدث الآن إقبالًا من الراسِ
حتى نكون ثَبيرًا في مودتنا — مثل الذي يحتذي نعلًا بمقياسِ

والشاهد في الشطر الأخير. وأذكر أني ذهبت لزيارة قبر شهيد الوطنية محمد بك فريد في ديسمبر سنة ١٩٢٠، فوقف الدكتور محجوب ثابت يخطب فقال: لقد عرفت فريدًا يوم كان يلازم مصطفى باشا كامل حذوك النعل بالنعل.

وكانت هفوة؛ فقد ظن الدكتور محجوب أن كل ما ورد في الشعر القديم يمكن الانتفاع به في خُطب هذا الزمان.

طغيان النساء

سَوْرةُ الضعيف مرهوبةٌ مَخُوفة، ولذلك قال الشاعر في وصف الخمر:

وضعيفةٍ فإذا أصابت فرصةً — فتكت كذلك سَوْرةُ الضعفاءِ

والمرأة ضعيفة، ولكنها حين تَطْغَى تصبح عاتية عاصفة، ومن أمثلة ذلك ما وقع من أم أوفى العبدية وقد دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت: يا أم المؤمنين، ما تقولين

في امرأة قتلت ابنًا لها صغيرًا؟ فقالت: قد استحقت النار. فقالت: إنها أصغر مما تظنين! قالت: قد استوجبت النار، فتنمَّرت أمُّ أوفى وقالت: فما تقولين في امرأة قتلت من أبنائها الكبار ألوفًا؟ فعرفت عائشة أنها تُعَرِّض بيوم الجمل فصاحت: «خذوا بيد عدوة الله!»

شاعرة يهودية

كان في اليهود من العرب شعراء، أشهرهم السموءل، وكان في اليهود المستعربين شعراء، أشهرهم ابن سهل، وكان من المستعربين منهم شواعر، وهذا غريب، ومن أشهر الشواعر اليهوديات قَسمونة بنت إسماعيل الأندلسية، وكان أبوها شاعرًا فاعتنى بتأديبها، وربما صنع من الموشحة قِسمًا فأتمّتها هي بقسم آخر ... قال لها أبوها أجيزي:

لي صاحب ذو بهجة قد قابلتْ   منعًا بظهر واستحلتْ جُرمها

ففكرت غير كثير وقالت:

كالشمس منها البدر يقبس نورَهُ   أبدًا ويكسِفُ بعد ذلك جِرمها

فقام كالمختبل وضمها إليه، وجعل يقبِّل رأسها ويقول: أنت والكلماتِ العشر أشعر مني!

ونظرت في المرآة يومًا فرأت جمالها وقد بلغت أوانَ التزويج، فقالت:

أرى روضةً قد حان منها قِطافها   ولست أرى جانٍ يمدُّ لها يدا
فوا أسفي يمضي الشباب مضيَّعًا   ويبقَى الذي ما إنٍ أسمِّيهِ مفرَدا

وسمعها أبوها فنظر في تزويجها.

العربدة

يتحدث الناس كثيرًا عن العربدة، عربدة السكارى، وقد تحدث شوقي عن القلب النشوان فوصفه بالعربيد، وأكثر الناس لا يعرفون من أين جاءت كلمة عِربيد، فليعرف من لا يعرف أنها من العِرْبد، وهي حية تَنفُخ ولا تؤذي. وأكثر السكارى يتصايحون ولكنهم جبناء!

المعيدي

المُعَيْدِيّ بسكون ياء التصغير وتشديد ياء النسب هو تصغير المعدِّيّ بتشديد الدال والياء، نسبة إلى مَعَدّ بتشديد الدال، وإنما خُففت الدال في (المعيدي) استثقالًا للتشديدين مع ياء التصغير. وفي الناس من لا يعرف تصريف هذا الاسم على شهرته، مع أن أكثرهم معيديون!

حتى عند الموت!

من المعروف أن من غلب عليه فن من الفنون أُولع بألفاظه وأخيلته، وقد حُفِظ من ذلك شيء كثير في اللغة العربية، ومن أظرف ما قرأته أن أحد الرياضيين دعا ربه وهو يُحْتَضَر فقال: «اللهم يا من يعلَم قُطر الدائرة، ونهاية العَدد، والجذر الأصمّ، اقبضني إليك على زاوية قائمة، واحشرني على خط مستقيم!»

إن هذان لساحران

كتبت في العدد الأخير من مجلة (أبوللو) مقالًا ووردت فيه عبارات عن بعض التعابير القرآنية، وقلت: إن في القرآن تعابير لا تُقبَل إلا في القرآن؛ لأنها نموذج لبعض لغات ذلك العهد، ومنها (إن هذان لساحران) فهي مقبولة في القرآن، ولكنها لو وقعت في كلام كاتب لقلنا بلحنه؛ لأن القاعدة الغالبة لا تجيز رفع اسم إن، وكنت في هذا قد استأنست بكلام نقله ابن فارس، ثم اطلعت على تأويل غريب لأبي زكريا يحيى بن علي وهو يقول في (إن هذان لساحران): إن الهاء اسم إن، وذان لساحران جملة خبر لإنْ، ولا تحتاج لرابط لأنها تفسيرية، والمعنى عنده: وأسروا النجوى قالوا إنْهَا؛ أي نجوانا، (ذان لساحران)، فما رأي العلماء في هذا التأويل؟

أبو العير وأبو العجل

كان أدباء العرب يتخيرون بعض الأسماء المضحكة ليضيفوا إليها ما يحلو لهم من الفكاهات، وقد تخيل أحدهم أن أبا العَير ولَّى أبا العِجل ولاية عريضة، وكتب له بذلك عهدًا فقال:

> يا أبا العِجل! وفقك الله وسددك! ولَّيتك خراج ضياع الهواء، ومساحة الهباء، وكيل ماء الأنهار، وعدّ الثمار، وصدقات البوم، وكيل الزقوم، وقسمة الشوم، بين الهند والروم، وأجريت لك من الأرزاق، بغض أهل حمص لأهل العراق، وأمرتُك أن تجعل ديوانك ببرقة، ومجلسك بأفريقية، وعيالك بميسان، وإصطبلك بهمذان، وخلعت عليك خُفَّيْ حُنَين، وقميصًا من دَين، وسراويل من سخنة عين، فَدُر في عملك كل يوم مرتين، والحمد لله على ما ألهمنا فيك، فقابلنا بالشكر فيما نُوليك!

٢٠ يوليه سنة ١٩٣٤

آراء أبجد أفندي في الأدب الحديث

مَن أبجد أفندي؟

يسألني كثير من الأصدقاء عن شخصية أبجد أفندي، ولا سيما مندوب البلاغ في عالم الإنس والجن الأستاذ الغمراوي الذي أخذ يدور في ملاعب القاهرة ومشاربها علَّهُ يتعرف إلى صديقنا المفضال أبجد أفندي، أو أبجد بك، كما يكتب على بطاقته الغرّاء، وما كنت والله أنتظر أن تَخفى شخصية أبجد أفندي على أحد، وهو أعرفُ المعارف في هذا البلد الأمين، ولكن هكذا اتفق أن يسأل الناس عنه كأنه أنكرُ النكرات، لذلك أراني مضطرًا لتقديمه إلى القراء حتى لا يضايقني المتشوِّفُون بالسؤال عنه كلما أصبحت أو أمسيت. وصديقنا أبجد أفندي هو نجل صاحب السعادة سَعْفَص باشا الذي انتقل إلى جوار ربه منذ ثلاثة عشر عامًا، وكان أحد رؤساء الأقلام بوزارة المالية، وابن أخي حضرة صاحب العزة كلَمُنْ بك أحد الأعضاء الصامتين في مجلس الشيوخ، وشقيق الأستاذ هَوَّز أفندي أبرع الكاتبين في تاريخ مصر القديم، أما والدته الكريمة فهي الست حُطِّي صاحبة الفضل في حرب ما جدَّ من البدع في عالم النسائيات، وله أختان إحداهما الأنسة قَرَشَتْ المدرسة بإحدى مدارس المعلمات، أما أخته الثانية فهي فتاة لا تزال في أحضان الخَفَر والحياء، ونرى من الأدب طيّ اسمها عن القراء.

وأبجد أفندي من المفتونين بنسبهم وحَسَبِهم، وهو يزعم أنه من سلالة ضَظَغُنْ، وضَظَغُنْ هذا الذي يزعم الانتساب إليه هو أحد ملوك مَدْين الذين وضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم، ثم هلكوا يوم الظُّلة فقالت إحدى بناتهم:

كَلَمُنْ هدَّم ركني　　　هُلكهُ وسط المحلَّةْ
سيد القوم أتاه الـ　　　ـحتف نارًا وسط ظُلّةْ
جُعِلتْ نارًا عليهم　　　دارهم كالمُضْمَحِلَّةْ

وأنا أشك كثيرًا في نسبة أبجد أفندي، والدكتور طه حسين يشك أيضًا فيما نسب إلى آبائه المزعومين من الشعر. وغرورُ أبجد أفندي هو الذي حمل الدكتور طه على التطرف في شرح نظرية الشعر المنحول. فليذكر القراء هذا، فسيحتاج إليه تاريخ النقد الأدبي يومًا من الأيام!

وبعد، فقد لقيني أبجد أفندي في عصر الثلاثاء الماضي، وكنت عائدًا من عملي، وكان هو في مشرب بودجا يستنشق نسمات الأصيل، ويتوسم وجوه السارحات في شارع عماد الدين، فناداني فنزلت من المترو على عجل لأروِّح عن النفس بمغازلة ما تصبو إليه شفتاه من قهوة أبي نواس – ثم تساقينا أكواب الحديث:

أبجد أفندي: هل تذكر يا سيد مبارك مقالك الذي نشرته في العام الماضي عند صدور البلاغ؟

الكاتب: ذكِّرني فقد نسيت.

أبجد أفندي: المقال الذي تشيطنتَ فيه وبسطتَ لسانك في لطفي السيد وعلي عبد الرازق وطه حسين.

الكاتب: ما أذكر أني أسأت إلى أحد من هؤلاء الفضلاء.

أبجد أفندي: هل نسيتَ المقال الذي عنوانه «قلمي بين الصدأ والصقال؟»

الكاتب: أذكره.

أبجد أفندي: هل تذكر أنك قلت فيه: «وسيكتوي ناسٌ بهذا القلم، ولكنهم سيذكرون صاحبه بخير حين يَكشف عنهم آصار الخمول؟»

الكاتب: أذكر ذلك.

أبجد أفندي: إذن فما هذه اليد الرفيقة التي تُربِّت بها على جنب الدكتور زكي أبو شادي؟

الكاتب: ماذا تريد أن تقول — لا أصلحك الله —؟!

أبجد أفندي: أريد تلك الجملة الناعمة التي مسحت بها على وجه هذا الفتى حين قلت: «إن هناك ناسًا يؤمنون بأن هذا الفاضل يستطيع أن يكون كل شيء، ولكنه لن يكون شاعرًا مُجيدًا إلا إذا تغير فهمه للشعر، وعرف أن الشعر فنٌّ وروح، ولا يكفي أن يكون كلامًا محبوسًا في قوافٍ وأوزان».

الكاتب: أنت تعرف أن الرفق واجب في محاورة الأصدقاء.

أبجد أفندي: الأصدقاء؟ وطه حسين لم يكن صديقك حين زيفت آراءه في نشأة النثر الفني؟

الكاتب: لقد زيفت آراءه في أدب ولطف، ولم تكن لي مندوحة من ذلك.

أبجد أفندي: أعرف اللطف الذي عاملت به أستاذك، فقد صوَّبت إليه سهمًا مسمومًا، ولكنك بلؤمك رِشْتَهُ بخيوط من حرير!

الكاتب: عَدِّ عن هذا يا أبجد أفندي، ولا تستغلَّ كرمي في مخاطبتك، قلت إن الدكتور أبو شادي صديق، والرفق واجب في محاورة الأصدقاء.

أبجد أفندي: فَلَقْتُمُونَا يا ناس! تأبَون إلا أن تحملوا راية النقد الأدبي، ثم نحسن بكم الظن، ونكِل إليكم حمل تلك الأمانة الغالية، فتأخذون في المداورة والمجاملة والمداراة، كأن النقد الأدبي لا يخرج عن رعاية المعارف والأصحاب والأصدقاء والأُلفاء والعُشَراء والسُّجَراء والندمان والخِلَّان، أَمَا لهذه السفسطة من حد؟

الكاتب: الدكتور أبو شادي رجلٌ طيب، وهو فوق طيبته صديق.

أبجد أفندي: رجل طيب؟ وما دخلُ الطيبة في الموضوع؟ أتحسبنا نريده إمامًا في مسجد، أو راعيًا في كنيسة؟ الطيبة شيء، والشعر شيء آخر، أترانا نقدِّم الشَّبراوي على أبي نواس، بحجة أن الشبراوي كان من البررة المتقين، وأن أبا نواس من الماجنين الفاجرين؟

الكاتب: وهو — فضلًا عن طيبته وصدق مودته — رجلٌ نافع.

أبجد أفندي: ما معنى ذلك؟

الكاتب: إنه أول أديب اشتغل بتربية النحل والحمام والأرانب والدجاج.

أبجد أفندي: دع الأدب لحظة فسنعود إليه، واسمح لي أن أصارحك بأن ناسًا من المعروفين بوزارة الزراعة ينكرون معرفته بالنحل.

الكاتب: لا تصدقهم فإنهم حاقدون، فقد رأيته بنفسي في معرض رابطة النحل يمسك الخَلِيَّة بيده ويُرشد الزائرين إلى طرائق اليَعْسوب، ويقول إن اليعسوب أنثى، ويستدل بذلك على أن المرأة تَصلح للملك!

أبجد أفندي:

هـكـذا هـكـذا وإلا فـلا لا   ليس كل الرجال تُدعَى رجالا

ألم أقل لك إن الأدباء مجانين؟ وما دخلُ العلم في هذه الخرافات الأدبية؟

الكاتب: ليست خرافات، فإن ما تصلح له الأنثى كان — ولا يزال — مشكلة معقَّدة أشد التعقيد، وقد اختلف المتقدمون في صلاحية المرأة للنبوة، وقال قائلهم:

وما كانت نبيًّا قط أنثى

فإن صح أن اليعسوب أنثى كان ذلك دليلًا على أن الرجل ليس أفضل من المرأة في جميع الأحوال.

أبجد أفندي: اعقلوا مرة، يا أدباء آخر الزمان! أنا أقول إنك تضيع وظيفة الناقد الأدبي بما تحرص عليه من المجاملات كلما نقدت زميلًا أو صديقًا، وأنت تأبى إلا أن تدور بنا في مجاهل من الفكاهة يضيق بها صدري في أكثر الأحيان!

الكاتب: أبو شادي شاعر، فهل تنكر ذلك؟

أبجد أفندي: شاعر؟ آمنت بالله! أنشدني إن شئت بعض شعره لننظر كيف يُجيد القَصِيد.

الكاتب: اسمع ترجمته لإحدى رباعيات حافظ الشيرازي:

حين أزرارُ ذلك الورد تنفضــ   ــضُ كؤوسًا ويحمل الخمر نرجِسْ
آهِ، ما أسعد العليم بفنٍّ   قِرمزيٍّ يحرِّز الرُّوح والنفسْ
يَمِّمِي والسلاف يا فتنتي النهـ   ــر فنُفني طيَّ الكؤوس الهمومْ
إن وقت الحياة أيامها العشـ   ــر كورد في البشر لا في الوجومْ

يا أُولي الحب في عناق الأيادي حينما الوقت دائرٌ منسيًّا
أوقفوه متى تمثَّل دوري لتَرَى ذكريات نيسان فيًّا
بين حسناءَ في ابتسام وعودٍ توقظ الفجر ثم نجم تحللْ
وملاذٍّ وخمرةٍ رقصت لي بدمي لستُ جودَ حاتم أسألْ

أبجد أفندي: أشعرٌ هذا؟

الكاتب: الحاضر!

أبجد أفندي: لا، يا عمّ، يفتح الله! ولِمَ اخترت هذه الأبيات؟ أخشى أن يكون لك من وراء هذا غرضٌ دفين!

الكاتب: أصبت يا سيد أبجد! فقد اخترت هذه الأبياتن لأن لها قصة طريفة، نقدها في الأهرام أديبٌ فاضل هو الشيخ أحمد الزين، فجاء الدكتور أبو شادي وانهال عليه سبًّا وشتمًا في مجلة أبوللون، ورماه بقلة الفهم وسقم الذوق؛ لأنه لم يقرأ شيئًا من الأدب الأوربي.

أبجد أفندي: وماذا صنع الزين بعد ذلك؟

الكاتب: اضطرب وخاف ولاذَ بالصمت؛ لأن كلمة (الأدب الأوربي) أفزعته، والمسكين لا يعرف شيئًا عما وراء البحار من أدب وتاريخ، ويكفي أن يلوِّح له أبو شادي بكلمةٍ إفرنجية ليطمئنَّ إلى أن القوم يعلمون ما لا يعلم، وأن الصمت خير من الكلام!

أبجد أفندي: ولم يتقدم أحد لإنصاف الزين؟

الكاتب: أنصفه بعضهم شفويًّا!

أبجد أفندي: من هو؟

الكاتب: هو الأستاذ الهراوي الذي يجلس على مصطبة الحلمية!

أبجد أفندي: إذن أنت غير راضٍ عن أبي شادي يا صاحبي؟

الكاتب: بالعكس أنا راضٍ عنه أتمَّ الرضا، ولا آخُذ عليه إلا فراره من الحق، فقد نقدته في البلاغ نقدًا خفيفًا ورجوته أن يضع فهرسًا لمجلته، وأن يقتصد في نشر شعره فلا ينشر ثلاث قصائد بكل عدد، وأن يسمّي المجلة «أبوللون» مطابقةً للنطق الأصيل، لا «أبوللو» كما ينطق الإنجليز، وأن لا يسرف في العُجمة من غير موجب، فلما ظهر العدد الثاني رأيته أهمل الفهرس عنادًا، ونشر فيه ست قصائد، وكنت أستكثر أن ينشر ثلاثًا، وزعم أنه إن أضاف «نونًا» إلى «أبوللو» فقال: «أبوللون» فقد يعرِّض نفسه إلى غضب قلم المطبوعات!

أما دفاعه عن كلمة «كلاسِّيك» فكان مضحكًا، وكان دليلًا على أنه لا يعرف من الأدب الأوربي إلا القشور؛ فقد زعم أن «الكلاسيك» هو التقليدي، وأن «الرومانتيك» هو الإبداعي، ومن الطريف أنه لم يبتكر الخطأ في كلمة «رومانتيك»، وإنما قلد في ذلك الأستاذ الزيات الذي انفرد بالسبق إلى هذا الخطأ المبين. والترجمة الصحيحة لكلمة «رومانتيك» هي «وجدانيٌّ»؛ لأن الرومانتيك يعتمد على إيثار العاطفة والخيال، في حين أن الكلاسيك يعتمد على العقل. ولا أنكر أن كلاسيك ورومانتيك كلمتان لهما معانٍ أخرى، فقد يكون الكلاسيك دالًّا على الطرائق المدرسية، ويكون الرومانتيك دالًّا على ما يخالف مذاهب القدماء في أساليب البيان. ولكن المعنى الذي اخترته هو الذي يطابق مدلول الكلمتين حين يراد بهما تعيين بعض المدارس الأدبية.

أبجد أفندي: ولماذا يورِّط أبو شادي نفسه في هذه المزالق؟

الكاتب: علم ذلك عندك، يا سيد أبجد!

أبجد أفندي: أيظن صاحبنا أن كل شيء في مصر جائز؟

الكاتب: أنا أنزِّهه عن ذلك!

أبجد أفندي: وأنا أرجح أنه يتحدث عن علمه الواسع بالآداب الأجنبية، كما يفعل بعض من تعرف وأعرف، رغبةً في ستر الجهل بالآداب العربية.

الكاتب: نحمد الله على أن الآداب العربية أصبحت بمنجى من غرور الأدعياء.

أبجد أفندي: تعتقد ذلك؟

الكاتب: أعتقد على الأقل أن الأدعياء يترددون ألف مرة قبل أن يتحدثوا عن الآداب العربية؛ لأن في مصر قومًا يستطيعون أن يقولوا للمخطئ أخطأتَ، ولا كذلك الآداب الأجنبية التي لا يعرف عنها الجمهور إلا القليل، وآية ذلك أننا نرى بعضهم يلوذ بأكناف الأدب الروسي فيطيل الحديث عنه والتغني بروائعه، ثم لا يعرِّج على الأدب الفرنسي أو الإنجليزي إلا قليلًا؛ لأن في مصر ناسًا مطلعين على أدب الإنجليز والفرنسيس.

أبجد أفندي: لا أحب أن يُذهلنا الاستطراد عن نقد ما ترجمه أبو شادي للشيرازي، فما رأيك في تلك الترجمة؟ وما هو — على التعيين — وجه الخطأ في نظم تلك الرباعية؟

الكاتب: أبو شادي لا يعرف الفارسية فيما أظن، فهو إذن نقل عن الإنجليزية، فيكون الشيرازي تغير مرتين بهذه الترجمة. ومن المحتمل أن تكون المعاني باقية ولكن الروح والأسلوب ضاعا ضياعًا تامًّا، وللروح والأسلوب أعظم الأثر في رفع قواعد الشعر البليغ.

أبجد أفندي: أنا ألاحظ أن شعر أبي شادي ينقصه دائمًا الروح والأسلوب، فما رأيك؟

الكاتب: هو ذلك، ولكن بعض أصدقائه يغفر له هذا النقص.

أبجد أفندي: وكيف؟

الكاتب: يقولون إن له مذهبًا في الشعر يتلخص في أن جميع الكلمات بطبيعتها شعرية، فلا موجب لإيثار كلمة؛ لأن في ذلك استبدادًا ينافي روح العصر الحديث، ومن رأيه فيما يقولون إنه لا موجب أيضًا للحرص على الموسيقا الشعرية؛ لأن في ذلك خلطًا بين الفنون؛ فالشعر ينفرد بالنظم، والموسيقا تُقْصَر على الأنغام والألحان، والنثر يفوز بالخلاص من جميع القيود!

أبجد أفندي: ولكنَّ هذا ينافي جميع التقاليد الأدبية.

الكاتب: الدكتور أبو شادي يعرف هذا جيدًا، ويعرف أنْ ليس لشعره وشعر أمثاله سوق، ولذلك يعلل نفسه بالأمل في تغيير المقاييس الأدبية، كما صرح في مجلته الغراء!

أبجد أفندي: إذن نحن مقبلون على فوضى أدبية؟

الكاتب: يجوز!

أبجد أفندي: ولِمَ لا تتدخل الحكومة إذن فتقطع دابر هذا الاضطراب؟

الكاتب: إي والله، يا أبجد أفندي، هذا ما بقي من الميادين خاليًا من سلطان الحكومة!

أبجد أفندي: اسمح لي أن أشرح رأيي، إن قلم المطبوعات يحظر على الصحف نشر ما يفسد الأخلاق، فكيف يبيح نشر ما يفسد الأذواق؟

الكاتب: لأن الأمة لا تعيش بغير خُلُقٍ، ولكنها قد تعيش بدون ذوق!

أبجد أفندي: أعوذ بالله! اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمر!

الكاتب: إن هذا حقًّا من أشراط الساعة!

أبجد أفندي: ألا يضر ذيوع الشعر السخيف بسمعة الأمة المصرية ويقلقل زعامتها في الشرق؟

الكاتب: سمعةُ مصر أقوى وأمنع من أن تُزعزَع بذيوع كتاب ضعيف أو ديوان سخيف.

١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢

مناوشات

مذهب داروين

أراد أحد الكتاب أن يَسخَر ممن يدَّعون التفرد (بالمذهب العلمي) على غير بينة، فساقه ذلك إلى الكلام عن الإنسان وشَبَهه بالقرد، ثم قال: «وقد مَرَّ على مذهب داروين مئات السنين» إلخ.

وظاهر أن هذه زلة سيستطيل بها عليه خصومه الشياطين «سكان» قهوة الفن في شارع عماد الدين؛ لأنه لم يمر على داروين ومذهبه مئات السنين، فقد عاش مؤلف كتاب أصل الأنواع إلى سنة ١٨٨٢م.

فالمرجوُّ من صاحبنا أن «يأخذ باله» كلما عرض لأمثال هذه الشؤون!

على أن له مخرجًا من هذا المأزق، فلمذهب داروين أصول قديمة تنبه إليها العرب واليونان، والجاحظ يحدثنا بأن الشبه ظاهر بين القرد والإنسان، ويُرَى ذلك في ملامح القرد وتغميض عينيه وضحكه وحركته وحكايته وفي كفه وأصابعه في رفعها ووضعها، وكيف يتناول بها، وكيف يجهز اللقمة إلى فيه، وكيف يكسر الجوز ويستخرج ما فيه، وكيف يتقن كل ما أُخذ به وأعيد عليه.

ويقول أبو الحسن بن عبد العزيز: «نحن نجد القرد أكثر شبهًا بالإنسان من سائر الحيوان، ولذلك سماه القائلون بالتناسخ بالصورة المكشوفة. ويزعم أهل الشرع أنهم لم يجدوا في ضروب الحيوان أشبه منه بالإنسان تركيبًا وأعضاءً وجوارحَ، ولم يروا أقرب خِلقة وصورة وأدنى إليه شبهًا ومشاكلة من القرد، وأن مَن تقدَّم جالينوس من الأطباء لم يفصِّلوا قط إنسيًّا، ولم يشرِّحوا آدميًّا، وإنما عرفوا تلك الأمور الغامضة والسرائر

الكامنة بما فصَّلوا من أجسام القرود وبعض من وُجد من القتلى على نُدرة في بعض معارك الملوك.»

إذن كان الأطباء منذ آلاف السنين يشرِّحون القرد ليعرفوا أعضاء الإنسان، وإذن كان صاحبنا متواضعًا جدًّا حين قرر أن مذهب داروين مرت عليه «مئات» السنين!

فكاهات

بمناسبة القرد نذكر الفكاهات الآتية:

(١) يُحكى أن رجلًا قبيح الصورة قال لمنصور بن الحسين الحلاج: إن كنت صادقًا فيما تدَّعيه فامسخني قردًا،فقال الحلاج: أَمَا لو هممت بذلك لكان نصف العمل مفروغًا منه!

(٢) قال بعض الخلفاء لأحد ندمائه: عرفت أن في وجه بختيشوع قردية، فقال: الغلط من غيرك، يا أمير المؤمنين، بل في وجه القرد بختيشوعية!

(٣) يقال: إن أنصار داروين كلهم قباح الوجوه، وكان بعض أساتذتنا يؤكد أن اهتمام داروين بمذهب التطور مرجعه أن في وجه داروين شبهًا بالقرد، وكان يقول: نظرةٌ إلى صورة داروين في معجم لاروس تقنعك بذلك، وقد أغراني هذا بالتأمل في وجه صديق مصري مفتون بمذهب التطور؛ فلاحظت أن له شمائل تذكِّر بالمخلوق الذي قيل فيه: «القرد قبيح، ولكنه مليح».

زرت ذلك الصديق مرة في منزله بالفجَّالة فأطلعني على صورة له وضعها أحد الرسامين وقال في لهفة: «ما رأيك في هذه الصورة؟»

فقلت: في غاية الإتقان، ولكن ينقصها شيء!

فقال في وحشة: ما هو؟

فأجبت: «كان يجب أن تكون فوق شجرة!»

ولا مؤاخذة يا صديقي، فأنت تعلم أن الحديث ذو شجون.

كما قال شكسبير

كلما لقيت صديقي الأستاذ توفيق اليازجي سألته: كيف حالك؟ وهو يجيب دائمًا بما نصه: «بخير، إلا من الناس. كما قال شكسبير».

ويظهر أنه يرى هذا الجواب من بدائع شكسبير، فليعلم إذن أن هناك جوابًا أبرع منه سبق جواب شكسبير بقرون، ذلك أن يقول: «بخير، إلا من الأصدقاء».

وهذا جواب أصدق؛ لأننا لا نشكو كل الناس، وإنما نشكو مَن نعرف أو من نصادق من الناس، فقد كان أبو الحسن بن الفُرَات يقول: «جزى الله عنا من لا نعرفه ولا يعرفنا خيرًا»، وكان يقول: «أحصيتُ ما أنا فيه من المكاره فما وجدت منه شيئًا لحقني إلا ممن أحسنت إليه».

وقد عقَّب على هذه الكلمات أبو الحسن الأهوازي فقال:

> وهذا صحيح، ولكن حدث عند فساد الزمان، وإلا فالأكثر من عدد الناس كان قديمًا على تصرف زمانهم عندما يعتقدونه من مودات إخوانهم. فلما فسدت الطباع وتسمَّح الناس في شروط موداتهم صار الإنسان سالمًا ممن لا يعرفه، لا يلحق به شره ولا يناله ضره، وإنما يلحق الآن الضرر من المعارف وممن يقع عليهم اسم الإخوان، وذلك أنهم يطالبون في المودة بما لا يفعلون مثله، فإن أسدى الإنسان إليهم إحسانًا عرف طعمه فهي العداوة القليلة، وإن حفظ الإنسان ما يصنعونه أبدًا حصل تحت الرق، وإن قارضهم الأفعال ثارت العداوة، وتواترت عليه المكاره. هذا إذا سلمت من أن يبدأك من تظنه صديقًا بالشر والتجني والمعاملة القبيحة بالتوهم والتظني من غير تثبت ولا استصلاح، فأما إذا كان ليس بينكما أكثر من المعرفة فالضرر منها بالثقة؛ لأن كل مكروه يلحقك إذا حصَّلته كان ممن يعرفك ويقصدك به على علم بك، فأما الضرر ممن لا تعرفه فبعيد جدًّا، ومَثَلهم مَثَل لصوص يقطعون عليك الطريق غرضهم أخذ المال منك أو غيرك؛ فإن أشد الضرر من اللصوص ما وقع عن تعيين وعلى معرفة بالإنسان. فمهما أمكن العاقل أن يُقِلّ من المعارف واجتلاب من يسمى أخًا في هذا الزمان فليفعل، وليعلم أنه أقلَّ من الأعداء، وكلما استكثر منهم فقد استكثر من الأعداء.

ولا جدال في أن هذه الفقرة أدل على معناها وأدق وأصرح من كلمة شكسبير، ورحم الله المتنبي؛ إذ قال:

عرف الناسُ قبلنا ذا الزمانا　　　وعناهم من أمره ما عنانا

فلسفة قديمة

كتب الأستاذ الشيخ محمد عبد المطلب مقالة مطولة عن سفور المرأة، ثم تلاقينا أمس فصارحني بأنه سيمضي فيما سماه (الغارة الشعواء) على أنصار السفور، فلنقدم إليه بعض الملاحظات ليتبين صدق قول الخنساء:

ومن ظن ممن يلاقي الحروبَ　　　بأن لن يصاب فقد ظن عجزَا

وهو يقول: «إن الحكماء — فلاسفة كانوا أو متصوفين — أجمعوا على أن الإنسان يتركب وجوده من إنسانين، هذا روحاني من السماء، والآخر أرضي عنصري من عالم الكون والفساد، والأول هو الروح التي أجمعوا على أنها من الجواهر المجردة العاقلة، وأن من السماء مهبطها ومنشأها وإلى السماء مصيرها».

فمن أين عرف الأستاذ أن هذه الأشياء مما أجمع عليه الحكماء من فلاسفة ومتصوفين؟

الروح جوهر مجرد عاقل؟

يا سلام! من الذي (أجمع) على هذا؟

تلك فلسفة قديمة، يا حضرة الأستاذ، وهي بعينها الفلسفة التي أخرت الأزهريين ووقفت بهم من نعيم الدنيا عند الكراث والفول، كما وقفت بأتباعها من اليونان عند الإتجار بالسردين والزيتون.

والأستاذ ينقل لنا أبيات ابن سينا في النفس، ثم يتعب في شرحها ليصح له أن يقول: «هذا بيان للناس واضح في أصل النفس».

آمنا وصدقنا، ولكن كيف نقبل من الأستاذ النتيجة الآتية: «إذا تكونت المادة العنصرية بشرًا سويًّا أُهبطت إليه من الملأ الأعلى تلك الروح»؟

وهذا معناه أن المادة العنصرية تتكون بشرًا سويًّا بدون روح، وهو غير معقول فضلًا عن أن يكون محل إجماع.

ويقول الأستاذ: «الروح قبل اتصالها بالبدن عُلوية كاملة ذات وجه واحد تواجه به ما حولها من عوامل الكمال لا صلة لها بغيره ولا نظر إلى سواه، ولها في هذا الطور نور نفسيٌّ كامل تتحرك به في تلك العوالم العُليا، وتدرك به ما لتلك العوالم من الصفات».

كلام لطيف جدًّا يريد الأستاذ أن يصل به إلى هذه النتيجة: «الروح جوهر نورانيٌّ لا يعرف البلاء والعناء إلا حين يتصل بالبدن؛ لأنه من عالم السفليات».

فحدثني بالله: لماذا ينحط «ذلك الجوهر المجرد العاقل» إلى عالم الأرض وكان نورًا يتألق في السماء؟

أتراه انجذب إلى العوالم الأرضية؟ إنه إذن يجد هواه في الأرض؛ لأن فيه عنصرًا أرضيًّا، وإلا فهو أضعف من الأرض؛ لأن الجاذب أقوى من المجذوب.

لقد كانت للقدماء مذاهب فلسفية تجد من معاصريهم بعض القبول، فلنروِ تلك الفلسفة بتحفظ شديد؛ لأن العقول الحديثة طغت على تلك الفلسفات، وللأستاذ عبد المطلب أن يتسامح فيما سماه «الإجماع» حتى لا يجد من يقول له: أخطأت في هذه المرة!

كلام غير مفهوم

ووصف الأستاذ أنصار السفور بأنهم مفتونون بتقليد أوربا، ومع ذلك لا يتمسكون من برودها إلا بخملها وأطراف أهدابها، إلى أن قال: «فمَثَلهم في ذلك مثل من يحاول ارتقاء أعلى درجة من سلم البيت من غير أن يتدرج إليها مما هو تحتها، وما أبعد هذا المرتقى على من يريد الارتقاء».

ولعل الأستاذ يراجع نفسه ليرى أن هذا التشبيه مقلوب!

إليكم ترد التهمة

يرى الأستاذ أن أنصار حريَّة المرأة لا يخدمون إلا شهواتهم، وفي هذا شيء من الحق؛ لأننا في حاجة طبيعية إلى المرأة، ونريد أن تكون بحق جنسًا لطيفًا مهذبًا يَفهمنا فهمًا أعلى وأشرف مما كانت تفهمنا به المرأة الجاهلة بأصول الحياة. ونريد بدعوتنا إلى حرية المرأة أن يكون لنا منها رفيق أنيس، وشريك ألوف يُذهب عنا وحشة الدنيا، ويشاطرنا ثقل

ما نحمل من آصار التكاليف، وما نبرِّئ أنفسنا من حب المرأة؛ لأننا نكره الرياء والنفاق في سبيل الإصلاح، ونحرص مع هذا على أن تكون المرأة المستنيرة على جانب عظيم من شرف الأخلاق.

وأعداء حرية المرأة، ماذا يريدون؟ إنهم في الواقع يخدمون أشنع شهوة، وهي شهوة السيطرة والتحكم والاستبداد؛ فهم يريدون أن تكون المرأة متاعًا خالصًا أصم، لا روح فيه ولا حراك. والرجل لا يغار إلا على منفعته حين يغار على المرأة؛ لأنه لا يحب أن يتوهمها مملوكة لسواه. والعفاف صار على هذا فضيلة؛ لأنه يضمن للرجل الحق المطلق في امتلاك المرأة. فللشيخ عبد المطلب أن يفهم أن أعداء حرية المرأة يخدمون شهواتهم أيضًا، ولا عيب في هذا؛ لأن الشهوات من العناصر الأساسية في الحياة، ولو خمدت لكان من واجبنا أن نذكيها، ولكن العيب أن يتهم الرجل خصومه بتهمة قد يكون وزرها عليه، وقد يكونون من آثامها أبرياء.[١]

٩ أكتوبر سنة ١٩٣١

[١] في كتاب «التصوف الاسلامي» تشريح وتفصيل للجذوع الشهوانية التي قامت عليها فروع الأخلاق.

أهواء وآراء في مجلس سمر في باريس[1]

حضرة الأستاذ صاحب البلاغ.

لقد تعودتُ التدقيق والتنقيح في الرسائل التي أبعث بها إليكم، وكان سبيلي في ذلك أن أعفيكم من مراجعة ما أكتب حرصًا على وقتكم الثمين، وفي هذه المرة أحاول أن أصف ما جرى في مجلس سمر بين جماعة من المصريين دعاهم الأستاذ محمود عزمي إلى تناول الشاي، وأريد أن أسرد بعض ما جرى في ذلك المجلس الجميل، وفيه كما سترى أزهار وأشواك، فهل لك أن تتفضل بنشر هذا الحديث برمته، مع ملاحظة أني هذبته بعض التهذيب وخلصته من كل ما يجرح إحساس القراء؟

أما أنا فأرى أن لا بأس بنشر هذه المناوشات الكلامية؛ لأن فيها، أولًا، بعض الفوائد الأدبية والاجتماعية، ولأنها، ثانيًا، تمثل بعض ما يقع في مجالسنا من إغفال التحفظ فيما يمس الأشخاص.

مَدَام عزمي: يا ناس حرام عليكم، لغتكم لا تزال فقيرة؛ فليس عندكم كلمة تقابل كلمة Citoyen.

[1] شهد الأستاذ الدكتور محمود عزمي في خطبة ألقاها في نوفمبر سنة ١٩٣٧ على جمهور من أهل بغداد بأن هذا الحديث نموذج في صدق الرواية وأمانة النقل.

زكي مبارك: عندنا كلمة مُواطن.

محمود عزمي: كلمة مواطن لا تقابل كلمة (سيتويان) ولكنها تقابل كلمة (كونسيتويان).

زكي مبارك: ولكن كلمة مُواطن فيها الكفاية ولم نشعر بالفقر إلى كلمة ثانية.

محمود عزمي: وما الذي يمنع أن نقول (واطِن) في مقابل (سيتويان)، وما دام عندنا فعل واطنَ وهو رباعي، فما الذي يمنع من وجود وَطَن على وزن ضَرَبَ؟ أليس لكل رباعيٍّ ثلاثي؟

زكي مبارك: القياس لا يمنع من ذلك، ولكني أرى أن كلمة (واطن) لا تؤدي ما تؤديه كلمة (مواطن)؛ لأن الكلمة الأخيرة أشاعها الاستعمال ونفخ فيها من روح الحياة، وفيها معنى المؤالِف.

بشر فارس: اللغة العربية فقيرة فيما يخص كلمة وطن، بخلاف سائر اللغات الحديثة.

زكي مبارك: اللغة العربية لم تحتج إلى مشتقات كثيرة للفظة وطن؛ لأن العرب لم يكونوا يفهمون من الوطن ما يفهمه أهل هذا الزمان، وعند العرب كلمتان: الأولى عَطَن، وكانت تجري فيما يتعلق بمراتع الإبل، ومن هنا قالوا: «حنين الإبل إلى أعطانها»، وقال الشاعر وأظنه ابن ذَريح:

هوى ناقتي خَلفي وقُدَّاميَ الهوى وإنـي وإيـاهـا لـمـخـتـلـفـانِ

والكلمة الثانية وطن، ويراد بها المكان الأول الذي درج فيه الإنسان، وألِف مشاهده ومناظره من أرض ونبات وحيوان وماء، وفيه ألَّف الجاحظ رسالة «الحنين إلى الأوطان»، وفي ذلك يقول الشاعر:

بلادٌ بها شُدَّت عليَّ تمائمي وأولُ أرضٍ مس جسمي ترابها

ويقول ابن الرومي:

وحبَّبَ أوطان الرجال إليهمُ مآربُ قضَّاها الشباب هُنَالِكَا

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ　　عهود الصِّبا فيها فحنُّوا لِذَلِكَا

ولم يكن العرب يفهمون من الوطن ما يسميه الفرنسيون Patrie؛ لأنهم لم يكونوا يتقيدون بقُطر دون قطر، وإنما كانوا يبحثون عن الغنى والجاه في أقطار الأرض بين الشرق والغرب.

بشر فارس: قد تكون هناك مشتقات لم نصل إليها لكلمة وطن.

التوني: وكيف غابت عنا الآن؟

عزمي: ونحن ماذا نَعلم؟ إنه لا يوجد لدينا إلا معاجم قديمة لا يقتنيها غير أفراد، ومن أجل ذلك ظلت ثقافتنا اللغوية والأدبية محدودة ضيقة. وقد أتيح لي مرة وأنا أدرس الاقتصاد أن أصل إلى ألفاظ كثيرة اصطلاحية في كتاب المخصص. فلو كانت لنا حكومة رشيدة تنقذنا من هذه الجهالة لكان للشباب المصريين مجالٌ واسع في تحصيل المصطلحات الضرورية في العلوم والآداب.

توفيق صليب: آفتُنا في مصر هي ضعف التعليم الثانوي.

التوني: هذا صحيح! إن الشاب الفرنسي يعرف أشياء كثيرة لا يعرف بعضها الشاب المصري.

مبارك: موادُّ التعليم الثانوي عندنا كثيرة، ولعله لأجل ذلك يظل الطلبة جهلاء؛ لأنه يندر أن يوجد لدى المدرس من الوقت ما يسمح له بالتعرض للشرح والتعليل، وبهذا يلجأ الطلبة إلى الحفظ المطلق الذي ينتهي بالخروج من قاعات الامتحان.

* * *

فارس: شيء غريب!

مبارك: ما هذا؟

عزمي: لا شيء!

مبارك: يا أستاذ عزمي! إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان! ومع ذلك فهي قُصاصة من جريدة مصرية، وما أحسبها من الأسرار بعد أن نُشرت في مصر وجاءت إلى باريس.

عزمي: ولكن في هذه القصاصة ما لا يرضيك!

مبارك: وكيف كان ذلك؟

عزمي: زعموا أن الدكتور منصور فهمي صار من المؤمنين!

مبارك: وذلك هو ما تُسِرُّه إلى فارس؟

وهنا يقرأ الأستاذ عزمي تلك القصاصة، وفيها ما معناه: «وبعد أن انتهى الأستاذ الثعالبي من محاضرته صاح الحاضرون: نريد أن نسمع الدكتور منصور فهمي!

فرفض الدكتور منصور، فألح الجمهور في الطلب، وألح الدكتور في الرفض، ثم اضطر في النهاية إلى الكلام فقال: «أيها السادة! ماذا تريدون من رجل قالوا: إنه ملحد؟ إن الذين هاجموني لم يعرفوا أن للشباب هفوات. ومع هذا فلي الشرف أن أعلن أني متمسك أشد التمسك بالإسلام. ومن أجل هذا أعانق هذا الرجل المسلم!»

مدام عزمي: هذا جُبْنٌ، إن منصور جبان!

عزمي: نحن لا نقبل رأيك في منصور؛ لأنك تكرهينه!

مبارك: الدكتور منصور جبان؟ لو كان الدكتور منصور جبانًا لأعلن إسلامه يوم كانت مصالحه تتوقف على كلمة واحدة يُرضي بها رؤساء الجامعة المصرية، وهو اليوم وقد اطمأن على مركزه ومستقبله وأصبح غير محتاج إلى مُصانَعَة أحد، أفتظنون أن عواطفه نحو الإسلام في هذه الظروف نوعٌ من الجبن؟ إنكم لا تعرفون الدكتور منصور. لقد مرت به أوقات كان لا يؤمن فيها بأكثر التقاليد القديمة، فكان يجاهر بتركها، غير مبال بما يلحقه من الأضرار الاجتماعية في بلد دَرَجَ أهله على تقديس التقاليد.

مدام عزمي: أنت لا تعرف منصور كما نعرفه، لقد ربَّيْناه! نحن نعرفه منذ ثلاثين عامًا أو تزيد.

مبارك: ومع ذلك لا تعرفونه يا مدام، إن الدكتور منصور مَلَكٌ من الملائكة، وحسبُهُ أنه الرجل الوحيد الذي عرفناه يترفع عن الدسائس والصغائر في عصرٍ كله نفاق وخداع.

عزمي: حقيقةً الدكتور منصور رجل طيب!

مبارك: لا يخفى عليَّ خبثُك يا سيد عزمي!

عزمي: قلت لك: إنه طيب، فهل تريدني على أن أقول أكثر من ذلك فأزعم أنه فيلسوف؟

مدام عزمي: فيلسوف؟ لقد احتقرتُه يوم عرفتُه، فقد قال لي: أنا تولستوي مصر! فيا للوقاحة!

توفيق: إن رسائله لا تدل على تفكير عميق.

مبارك: تنقصها الطنطنة فقط لتصير من التفكير العميق!

توفيق: إنه ضعيف في اللغة.

مبارك: وأنا لم أزعم أنه تخرَّج في الأزهر أو دار العلوم. ولكني أؤكد أنه كأستاذ فلسفة يُعَدُّ من كبار الأساتذة، ولا يعرفه إلا من أخذ عنه.

عزمي: يظهر أننا لن نتفق معك في تقدير منصور.

مبارك: الذي يهمني من هذا الجدل شيء واحد، هو أن الدكتور منصور تطور في آرائه الدينية والاجتماعية، فهو الآن في طور الإيمان، وهو رجلٌ لا يعرف ما الجُبن ولا يدري ما النفاق.

فارس: إسلام منصور فهمي هو عندي أفضل من إسلام طه حسين يوم أعلن عن طريق قلم المطبوعات أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر!

توني: ومع ذلك طه حسين شجاعٌ؛ لأنه ترك بقية الصِّيغة فلم يقل: وإن عذاب القبر حق، وسؤال الملكين حق، والصراط حق، والميزان حق، والحساب حق، إلى آخر الحديث.

مبارك: الدكتور طه شجاع، والذي وقع منه كان رأي مدير الجامعة المصرية؛ فهو الذي اقترح منشور الإيمان!

مدام عزمي: مدير الجامعة؟ يا ساتر! هو أيضًا يَدَّعي أنه فيلسوف، يا حفيظ! يا حفيظ! اسمعوا فسأحكي لكم حكاية عن لطفي السيد: في يوم قال لي: (يا بنتي.) فقلت له: بنتك؟ أنا بنتك يا شيخ!

فقال في تخاذل: زوجك يبقى ابني، فقلت: إذا كان زوجي ابنك، فما ذنبي أنا حتى أكون بنتك!

ولطفي السيد يحب أن يكون الناس كلهم أبناءه، وقد قال في يوم لعبد الحميد بدوي باشا: كلكم أبناؤنا، فقال له عبد الحميد باشا: حاسِبْ يا لطفي، حاسب! كيف تعودت أن تخاطب الناس بلهجة واحدة بلا تمييز!

توفيق: المزعج حقًّا أن يكون لطفي السيد فيلسوفًا.

مبارك: وما الذي يمنع من ذلك؟

توفيق: انظر ترجمته لأرسططاليس.

مبارك: ما عيبُها؟ إنها ترجمة في غاية من الدقة والوضوح.

توفيق: إنه ترجم عن الفرنسية، والفيلسوف يجب أن يُترجم أرسطو عن اليونانية.

مبارك: هذا جزاء من يصنع الجميل!

عزمي: أنت يا أستاذ مبارك لا تُحتَمل. صدَّقنا أن منصور فيلسوف، وأن طه شجاع، أَفَتُرِيدنا أيضًا على أن نصدق أن لطفي خليفة أرسططاليس؟

توفيق: لطفي يعجبني ككاتب بليغ.

عزمي: يعجبك، ولكنك لا تدري في كم ساعة كان يكتب مقالته، لقد كان يكتبها في أربع ساعات، وكان هو الصحفي الوحيد الذي له حاجب يلبس بذلة شبيهة بالرسمية، وكان في «الجريدة» دهليز طويل يوصل لحجرته، فكنت إذا أردت زيارته يجري إليك الحاجب على أطراف قدميه ويقول: (البيك بيكتب الافتتاحية) فتعال بعد ساعتين! هيه بعد ساعتين!

مبارك: بمناسبة حاجب لطفي بك أذكر أن الشيخ عبد العزيز البشري وصفه فقال: (إن التكلف عنده هو الفطرة والفطرة هي التكلف).

عزمي: أبدع من هذا كلمة حافظ ابراهيم؛ إذ يقول: (أظن أن لطفي السيد حين يريد النوم يتمدد على فراشه ويقول: فلننم!).

مدام عزمي: أقدِّم لكم قهوة؟!

مبارك: أهي تهدئ الأعصاب؟

مدام عزمي: أتريد أن تقول إني عصبية؟

مبارك: العفو يا مدام، أنا الذي تصدّعتْ أعصابي!

فارس: هو أخو الشيخ علي صاحب كتاب الخلافة وأصول الحكم؟

مدام عزمي: نعم الشيخ مصطفى هو أخو الشيخ علي.

مبارك: والشيخ علي هو أخو الشيخ مصطفى! ولكن ما هي المناسبة؟

مدام عزمي: الشيخ مصطفى هو ميسيه مصر، إنه لرقيق الإحساس!

مبارك: إنكِ بهذا تقضين عليه؛ لأنه مدرس فلسفة، فيجب أولًا أن يكون من الفلاسفة، ولا مانع بعد ذلك من أن يضاف إلى رجال الآداب.

مدام عزمي: فلسفة! فلسفة! الشيخ مصطفى لا يعرف شيئًا من الفلسفة، ولكنه بالذمة أديب!

عزمي: يا ستي! من فضلك، الرجل أستاذ فلسفة، فهو إذن فيلسوف لا أديب.

مدام عزمي: أقول لكم الحق، اتركوا الرجل في حاله، إنه لا يحب الشَّكَل ولا الضوضاء.

مبارك: وما رأيك يا مدام في الدكتور صبري؟

فارس: يا سلام من كِبره، إنه حين يصافحك يُفهمك أنه يتصدق عليك، وكذلك يكون الأدعياء!

مبارك: صبري لا يتكبر إلا على المتواضعين، أما أهل الكبرياء فهو في حضرتهم ضعيف!

عزمي: براڤو! براڤو!

فارس: هل صحيح أنه مدرس جيِّد؟

عزمي: مدرس؟ لا، إنه لا يستطيع أن يحصر فكره في نقطة واحدة أكثر من دقيقتين، لكنه أول مصري اشتغل بالتاريخ الحديث، فقد كان الفرنسيون يؤرخون مصر على أهوائهم، وكذلك الإنجليز، وهو يريد أن يحقق تاريخ مصر على الوجهة المصرية.

مدام عزمي: صبري جامع أسانيد، وتنقصه فلسفة التاريخ.

عزمي: صبري يفعل في التاريخ ما كان يفعله الأصبهاني في الأدب، وكما وُجد مهذِّب للأغاني هو الشيخ الخضري رحمة الله عليه، فكذلك سيوجد خضري جديد لتهذيب كتب صبري!

* * *

التوني: يظهر أننا نمضي بخطوات سريعة في الدراسات العلمية والأدبية.

عزمي: سريعة جدًّا، وليتك رأيتنا يوم أرسلتنا الجامعة المصرية إلى باريس قبل الحرب، وكنت أنا ومنصور من الطلاب، وكان سيد كامل وتوفيق الساوي من الذين أتموا دراساتهم العالية في مصر، ومع ذلك كان هذان الأستاذان أعرَف بالنقص؛ فقد كنا نجتمع كل أسبوع مرة لنرى ما يجب علينا درسه لنقرُب من مستوى الشباب الفرنسيين.

مبارك: يظهر أن ذلك كان قبل إنشاء قهوة داركور!

عزمي: كانت داركور موجودة، ولكن كانت لها ساعاتها.

التوني: وهل داركور تشغل الشبان المصريين إلى الحد الذي تتصوره يا سيد مبارك؟

مبارك: هي لا تشغلهم كثيرًا، ولكني لاحظت فقط أن هناك شبانًا يقضون فيها أعوامًا بدون أن يعرفوا كيف يؤلفون جملة صحيحة بالفرنسية!

التوني: اسمعوا، هذا عجيب، والله عجيب، آية قرآنية تصور تكوين الجنين تصويرًا لم يعرفه الأوربيون إلا بعد اثني عشر قرنًا من نزول القرآن.

عزمي: إن ما نحسبه جديدًا لدى أطباء أوربا قد يكون عُرِف قبل ذلك عند أطباء العرب مثل ابن سينا.

فارس: وقد يكون ابن سينا أخذ عن اليونان.

عزمي: ولكن، أولًا، هل ابن سينا عربي؟

مبارك: نعم، هو عربي، ولا يقدح في ذلك أن يكون من سلالة غير عربية.

عزمي: هذا تناقض، ويحسن يا سيد مبارك أن تلاحظ أن هذه مسألة ليس فيها منصور فهمي ولا لطفي السيد ولا طه حسين!

مبارك: لا تناقُض في ذلك؛ لأن المدنية العربية صبغت كل من اتصلوا بها بصبغة عربية، فأنت لا تستطيع أن تحكم بأن الزمخشري غير عربيّ؛ لأنه من سلالة فارسية، مع أنه فيما أعتقد أعرف بلغة العرب من شعراء المعلقات.

عزمي: أنا لا أفهم ذلك.

فارس: هذا واضح، يا أستاذ.

عزمي: أخشى إن قلنا مدنية إسلامية أن يخرج غير المسلمين، وأخشى إن قلنا مدنية عربية أن يَخرج مَن ليسوا عربًا، فهل لكم أن نصطلح على (بلاد العربية) أو (بلاد الإسلام).

مبارك: المشكلة عندك يا أستاذ عزمي هي في الألف واللام، وذلك يذكرني بالفكاهة الآتية: جلس رجل على قارعة الطريق فمر به أحد العابرين وسأله: أين الطريق إلى البغداد؟ فدله عليه، وبعد لحظة مرَّ عابر آخر فسأله: أين الطريق إلى بصرة؟ فدله عليه، ثم قال له: أدرك هذا الرجل فإن عنده (ألف ولام) زائدة عن حاجته، وأنت إليها أحوج!

التوني: قولوا: البلاد العربية، أو بلاد العربية، كيف شئتم، ولا داعي لهذه الوسوسة، ألا ترون كيف يقولون الشعوب اللاتينية اكتفاءً برابطة اللغة؟

هذه خلاصة موجزة لحديث استمر ثلاث ساعات، ثم انصرفنا فدارت بيننا المحاورة الآتية:

التوني: إنه لجميل حقًّا أن يكون للإنسان زوجة مثقفة مثل مدام عزمي.

فارس: أنا بالعكس أرى أن الرجل المفكر يجب أن تكون له زوجة ساذجة على نمط جان جاك روسو فقد اكتفى بزوجة من طبقة الخادمات ليظل طليقًا في حياته الفكرية.

مبارك: أنا لا أدري كيف يكون للأستاذ عزمي رأي خاص، وهذه زوجته تبحث في كل شيء، وتتدخل في كل شيء. ولعل هذا هو السر في أنه كثير الاضطراب؛ فهو يومًا وفدي ويومًا دستوري، ويومًا مستقل عن سائر الأحزاب.

توفيق: اختيار الزوج مشكلة خطيرة.

مبارك: أتريدون الحق؟ المهم هو أن يكون للرجل ثروة تساعده على الحياة الذاتية. وإني لأتمنى أن يصبح الأستاذ عزمي غنيًّا ليستطيع أن يظل هو هو بإرادته في جميع الظروف.

فارس: لقد كانت جلسة خطيرة وانتَهَبَت الوقت في مثل لمح البصر.

مبارك: كنت أود تلخيص ما جرى فيها لجريدة المساء، ولكن الناس لم يتعودوا نشر مثل هذه الأحاديث.

توفيق: ابدأ فعوِّدهم على ذلك، أتظن العادات والأذواق تتكون بنفسها ثم تظهر إلى الوجود؟

مبارك (وقد عاد إلى بيته): سأصف هذا المجلس الطريف، وسأستدرج الأستاذ عبد القادر حمزة إلى نشره، وأحسب أنه يكفي أن أقول له: كن أكثر تسامحًا من قلم المطبوعات!

فإن ظهرت هذه الرسالة فليعلم القراء، أن الحيلة حازت على محرر المساء، والسلام.

١١ مارس سنة ١٩٣١

يوم بين المجانين

(١) خطر لي مرةً أن أزور إحدى دُور المجانين، ثم انصرفت عن ذلك اكتفاءً بما أشاهد من المجانين المتعاقلين الذين يملأون الأندية والمعاهد العلمية، ويلقَوْن من التبجيل المزيف ما يعصف بما بقي في رؤوسهم من بقايا العقل والتمييز، ولكني ضقت ذرعًا بأولئك المتعاقلين الثقلاء، وصممت على الترويح عن النفس بمشاهدة المجانين الذين حقت عليهم كلمة الجنون، وأسلمتْهم المقادير إلى الرضا عن حالهم في غيابات المستشفيات، موقنًا بأن الادعاء الكاذب هو شر أنواع الجنون، وأن المصائب التي نلقاها في حياتنا ليست إلا محنًا يسوقها إلينا المجانين المتعاقلون الذين اصطلح الناس على وصفهم بالعقل والخبرة وصدق الظن واليقين. ويا ويل من ابتُلِي بمصاحبة ناس يتمتعون بشيء من السمعة العلمية أو العقلية أو الإدارية، فإنهم قد يبطشون به باسم العقل على حين لا يُغريهم بالظلم إلا مستور الجنون!

(٢) في صباح الأحد الماضي بكرت لزيارة مستشفى الأمراض العقلية بالخانكا إجابةً لدعوة صديق مهذب يؤدي عمله هناك، فأشرفتُ على أرض واسعة مساحتها خمسمائة فدان، قد زُيِّنت سهولها الرملية بالشجر والنبات. وما كدت أتخطى عتبة الباب حتى رأيت جماعة من المجانين يعملون في رصف الطريق؛ فنظروا إليَّ في سخرية خفيفة ولسان حالهم يقول: هذا رسول المجانين المتعاقلين! ثم مضيت حتى وصلت إلى صديقي في مكتبه فسلمت عليه وعلى إخوانه، والتمسنا الإذن بزيارة المجانين من وكيل المستشفى الطبيب الفاضل الدكتور شفيق، ورجونا الدكتور العروسي أن يصحبنا في هذه الزيارة ليوضح بعض ما نحتاج إليه من أعراض الأمراض.

(٣) ابتدأنا بزيارة المجانين الذين يغلب عليهم الهياج والاضطراب، وقد لاحظت أنهم وُضِعوا في مكان مسوَّر بأسوار عالية؛ حتى لا يتاح لهم تسلق الحيطان، وكنت ظننت أننا قد نحتاج إلى من يحمينا من عدوان أولئك المهتاجين، فلما دخلنا دهشتُ لما يسود في جوّهم من الهدوء والسكون، وعرفت أن لحسن التغذية والنظافة والنظام دخلًا في تهدئة الأعصاب.

(٤) أخذ الدكتور العروسي يشرح أسباب الجنون، وكان من أهم ما قاله أن للتكوين الطبيعي دخلًا في ذلك، وأن هناك ناسًا يجنُّون؛ لأنهم لم يُخلقوا خلقة كاملة يرزقون بها تمام العقل، وأخذ ينادي المهتاجين واحدًا واحدًا ليدلني على مواطن النقص في أجسامهم، ثم وَجَّه نظري إلى مجنون تختلف أذناه في التكوين اختلافًا بَيِّنًا فنظرت إليه فوجدته شابًّا مسكينًا ألوفًا يحسن الحديث، فسألته: ما أتى بك هنا؟ فأجاب في اطمئنان: جئت لأخدم الحكومة!

(٥) وفي هذا القسم — قسم المجانين المهتاجين — رأينا رجلًا حسن الوجه، طويل الشاربين، مفتول الجسم، يجلس في ناحية جلسة العاقل الرزين، فاقتربنا منه، ودارت بيننا وبينه المحاورة الآتية:

الدكتور العروسي: ألا تزال مصرًّا على دعواك؟

المجنون: لا فائدة من الكلام معك، وقد صممت على أن لا أجيب إلا إذا سُئلت بصفة رسمية، فافهم ذلك وأعفني من اللجاج.

الدكتور: إنك تدعي النبوة، ولكنك لم تُظهر أيّ معجزة، فكيف نُصدِّق دعواك؟

المجنون: وماذا تريدون بعد ما قدمتُ من المعجزات؟ ألم يكف أن أحول الإنسان إلى حِصان؟

الدكتور: ليس بصحيح أنك حولت إنسانًا إلى حصان؛ لأنا لم نر شيئًا من ذلك.

المجنون: انظر في هذه الحجرة ففيها خمسة أفراس كانت قبل ذلك من الناس!

الدكتور: لا أرى شيئًا!

المجنون: انتظر حتى يمنحني الله معجزة إبراء العميان.

الدكتور: هل تستطيع أن تحولني حِصانًا.

المجنون: العفو! أنت تستحق أن تكون باشا!

الدكتور: لو كنت نبيًّا حقًّا لاستطعتَ الخروج وحدك من هذا المكان!

المجنون: وهل استطاع يوسف أن يخرج وحده من السجن؟

الدكتور: وهل ترى أنك في منزلة يوسف الصِّدِّيق؟

المجنون: أنا خير من يوسف؛ لأنه لم يهتم إلا بإصلاح مصر، أما أنا فأهتم بإصلاح العالم كله، وسترى كيف أحوِّل الصحاري إلى بساتين فيحاء.

الدكتور: متى يكون ذلك؟

المجنون: متى خلصت منكم.

الدكتور: ومتى تخلص منا؟

المجنون: حين يَقْدم الحواريون لصدع هذه الجدران!

وهنا جذبني الدكتور العروسي من يدي فانصرفنا والرجل يقول: «مجانين والله، وسبحان من يعلم أينا العاقل وأينا المجنون!»

والمهم أن أقيد ما لاحظته من أن ذلك الرجل يعيش في طمأنينة تامة مبتعدًا عن بقية المجاذيب، وعلى سيماه الاقتناع التام بأنه نبيٌّ مغبون، وأن في مقدوره أن يمنع الحروب، ويقيم العدل بين المخلوقات بحيث تعيش الحُملان في أمن مع الذئاب، فليت عصبة الأمم تعلم شيئًا من أخبار هذا النبي السجين فتنتفع بأسراره في الإصلاح بين الشعوب!

(٦) رؤية المجانين تُشعر الإنسان بصدق الحكمة التي تقول: «العقل السليم في الجسم السليم»، فأكثر المجانين تنقصهم سلامة الأجسام، وهيهات أن تصل المستشفيات إلى تعويض ما ضاع من قوُاهم في مختلف الظروف. ومن علامات الجنون فيمن رأينا من المرضى الهادئين قطع أوصال الحديث، فقد يبدأ المجنون فيتكلم في عقل واتزان، ثم ينتقل فجأة إلى موضوع غريب لا يمتُّ إلى الموضوع الأول بأية صلة، وأكثرهم يتحدث بعبارات مقتضبة عن الأشخاص البارزين في السياسة المحلية والدولية، وقليل منهم من يتكلم في قوة؛ إذ كان يغلب عليهم الضعف والخمود.

(٧) دفعني التطلع إلى السؤال عن عبد اللطيف عبد الخالق الذي اعتدى على المرحوم سعد باشا، وكنت أقدِّر أنه يمتاز عن بقية المرضى بشيء من حضور الذهن، ولكن الدكتور العروسي أكد لي أن المسكين فعل ما فعل في غير وعي، ولما ذهبنا إليه لم نُثِر اهتمامه إلا بصعوبة، فلما حادثناه وجدت عينيه خاليتين خلوًّا تامًّا من أمارات اليقظة، وليس فيه إلا جسم عريض الألواح، وسأله الدكتور لماذا اعتدى على سعد باشا، فأجاب

بأنه لم يَعْتَد على أحد، وأن ذلك محض اختلاق! وهنا أجاب بعض المجاذيب بأن ذلك وقع منه بتحريض المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش، فسألت عن هذا المجنون الذي أسرع بالجواب فقيل: إنه مخلوق جيء به إلى المستشفى بعد أن أُخِذ متلبسًا بجريمة.

(٨) وهناك مجنون يلقب بالباشا، وهو شخصية جَذَّابة جدًّا، يتكلم الفرنسية في طَلاقة وعُذوبة، ويكتب العربية في إجادة وبيان، وقد عرف الدكتور العروسي رغبتي في محادثته، فمضى بنا إلى مكتب خاص لأتمكن من أخذ ما أشاء من البيانات؛ لأن كبرياء «الباشا» أبى عليه محادثتي إلا إن كنت موفدًا في مهمة رسمية، فأفهمته أنني جئت خاصة لبحث الشكايات التي قدمها إلى المراجع العليا؛ فتهلل وجهه وأخذ ينظم ما لديه من المكاتبات والمذكرات. والرجل واضح الحديث، خفيف الروح، ليس فيه من أمارات الجنون إلا توهمه أن الحكومة لا تحجزه مع المجانين إلا طمعًا في ماله، وحسدًا للمستقبل الذي كان ينتظره في تولي أحد الأقاليم المصرية أو السيطرة على بلاد العرب، وزعمه أنه إن مات في المستشفى فستغرم الحكومة لورثته نصف مليون من الجنيهات!

قضيت مع «الباشا» — شفاه الله — نحو ساعة عرض عليَّ فيها مذكرات كثيرة وخطابات مطولة بعث بها إلى رئيس الوزراء، وقد لاحظتُ أن أطباء المستشفى كانوا في جميع المرات يكتبون له إفادات منظمة عن المطالب التي يقدمها إليهم ليطمئن إلى أنه يشكو إلى سميع مجيب. وتلك طريقة حكيمة في تهدئة مرضى العقول.

طلبت من «الباشا» أن يقدم إليَّ إحدى مذكراته، فطلب مني أن أقدم له اسمي، فأعطيته بطاقة الزيارة، فلما وجد اسم «زكي مبارك» صاح: لقد خدعتني! فأنا أعرف أن زكي مبارك ليس موظفًا في الحقانية، ومد يده فأخرج نسخة من السياسة الأسبوعية وفيها مقال يشتمني فيه أحد أدباء فلسطين، فابتسمت وقلت: ومع ذلك أحب أن أظفر بإحدى مذكراتك، فدفع إليَّ مذكرة كتبت في ورقة حمراء كانت لفافة تبغ، وفيها الكلمات الآتية:

> ملحوظة في يوم السبت ٦ مايو سنة ١٩٣٢، وهو يوم زيارة زوج كريمتي مع شقيقي.
>
> أما بعد؛ فيجب أن تكون كل مصلحة مستقلة برأيها في عملها، متخصصة بقانونها الذي وُضع لها، خاضعة للنظام العام الذي يقضي عليها بالاحتفاظ على النفس وعلى الشرف وعلى الحقوق التي وكل بها الاحتفاظ عليها، وعلى النفس وعلى الشرف من قبل ذلك النظام.

> وكل تلك الزورات التي لا تتعقب بخروج المَزُورين مع زائريهم ضربات مخيفة قد تقضي على النفس القضاء الأخير، كل واحدة منها بمثابة ضربة قوية من مقمع من حديد في يد زبون موكل يقمع كل رأس تنتصب وتتحفز للخروج من عذابها – لا يشعر بهذا الطبيب في المستشفى ولا المدير ولا وكيله ولا معاونه على تعذيب النفوس وإرهاقها أخيرًا وفي النهاية، ولا الأجنبي عن المستشفى إلا إذا لحق بهذا الفريق الذي كتب له أن يبقى فيه سنوات عديدة أو مدة حياته إلا إذا اتبع الطريقة المتبعة من البهائم الراتعة، وهي طريقة دفع الفداء أو قبول شروط مخصوصة لذلك ستبدو فيما آت. كتب على ذلك الفريق البقاء في هذا المكان الذي تعتبره الميزانية العمومية سنويًّا «مستشفى»، ويعتبره مديروه ووكلاؤه وأطباؤه ومعاونوه وبقية خَدَمَته سجنًا مؤقتًا للبعض ومؤبدًا للبعض الآخر، أو منفى مؤقتًا للبعض ومنفى مؤبدًا للبعض الآخر … إلخ.

وفي هذا كفاية. وقد أحزنتني حال هذا الرجل؛ لأنه مهذب حقًّا لولا ما أصيب به من عارض الجنون. على أن جنونه لا يُعرف في جميع شمائله، وإنما يضطرب كلامه من حين إلى حين، ثم يعود إلى ربط الحديث.

وعند الانصراف رجاني أن أقابل شاهين باشا وأن أحدثه عن قصته، وأن أخبره أنه لولا طمع الحكومة في ماله لما مكث بهذا المستشفى ساعة من زمان!

(٩) قلت: إن الأرض التي بُني بها مستشفى الخانكا تبلغ خمسمائة فدان، فلأذكر الآن أن هذا المستشفى أنشئ سنة ١٩١٥، وأن التقاليد جرت بأن يُزرع جزء كبير من تلك الأرض، وأن يكون الزارعون هم المرضى أنفسهم ليدخل في أذهانهم أنهم أصحاء وأنهم ناس في الوجود.

وتلك سياسة حكيمة في شفاء العقول. وقد حضرت وقت الغداء فوجدت كل مريض يُعطى ثلاثة أطباق ورغيفًا، وهو غذاء كافٍ جدًّا، ومع هذا فهناك نحو عشرة من المرضى يأكلون على حسابهم في جناح خاص وعليهم أمارات النعيم، والغنى ينفع أصحابه في كل مكان، حتى ليمكن الحكم بأن الغني المجنون «أعقل» من الحكيم الفقير، فاتقوا الله في أنفسكم وحافظوا على أموالكم أيها القراء!

(١٠) بعد أن عدت من الخانكا إلى القاهرة حدثت صديقًا أديبًا بتلك الزيارة، فلما عرف من حديثي أن أكثر المرضى هادئون، سأل: وما الذي يمنع من إطلاقهم؟ والآن أجيبه بأن بقاء المرضى بالمستشفى أنفع لهم؛ لأن ذلك الهدوء قد يكون مصدره انتفاء أسباب

الاضطراب، فإن عادوا إلى الجماعات التي نشأوا بها كان من المؤكد أن تعاودهم نزوات وأحقاد قد تردُّهم إلى أسوأ الأحوال.

يضاف إلى ذلك أن في حَجْز مرضَى العقول مانعًا من التزاوج والتوالد، وقد أثبتت الأبحاث الطبية أن الوراثة لها دخل عظيم في تقدير أسباب الجنون؛ فقلما يوجد مجنون إلا وله شبيه في أهله الأقربين أو الأبعدين، حتى ليلاحظ على زائري هؤلاء المرضى قرب أكثرهم من حالة الانجذاب.

(١١) وليست الوراثة وحدها هي سبب الخَبَل، فليعلم الناس أن الأمراض الخبيثة شديدة الخطر من هذه الناحية، وأكثر المجانين ذهبت عقولهم ضحية تلك الأمراض، ورب إشارة أبلغ من عبارة!

(١٢) أشرت إلى أن بعض أسباب الجنون يرجع إلى نقص الخلقة فلأضف إلى ذلك أني رأيت في المستشفى شخصًا فيه سمات ظاهرة من الحيوانية، من ذلك أنه يأكل عَبَل الجزْوَرِين ويستطيبه بشهية لا تقلُّ عن شهية الحيوان، وهو يأكل أطراف الأشجار، وقد حدثني الدكتور العروسي أن ذلك الشخص يجترُّ عَبَل الشجر بعد مضغه ببضع ساعات كما يفعل الحيوان. وقد سألناه بضعة أسئلة فلم يحسن النطق فضلًا عن الجواب، وهو في تكوين وجهه يمثل القرد أكثر مما يمثل الإنسان، بعكس صديقنا فلان الذي يمثل الإنسان أكثر مما يمثل القرد!

(١٣) من أغرب ما علمته أن الموظفين بمستشفيات الأمراض العقلية يقل وقوعهم في مخالب الخبل والجنون، وسبب ذلك فيما قيل يرجع إلى احترازهم من شمائل المجانين، والتطبُّع سبيل إلى الطبع، والمنتظر بعد نشر هذه الكلمة أن يطلب كثير من الموظفين نقلهم في مثل درجاتهم إلى الخانكا أو العباسية!

(١٤) وبعدُ فقد كنت أظن أن ساكني البيمارستان يختلفون اختلافًا بينًا عن الجماهير المعروفة بسلامة العقول، ولكني رأيت الفرق ضئيلًا جدًّا بين العقل والجنون، ورأيت الإنسان في جملته متقارب الإدراك، وصح عندي أن العبقرية كما قيل لون من الجنون؛ إذ كانت فنًّا من الشذوذ، والفرق بين جنون العبقرية وجنون الخبل أن العبقريين يغلب عليهم النشاط وأن المخبولين يغلب عليهم الهمود.

وكل الـنـاس مـجـنـونٌ ولـكـنْ　　على قدر الهوى اختلف الجنونُ

واللهَ أسأل أن يهب أولئك المساكين الذين أحزنني مرآهم ما يحتاجون إليه من عافية البدن والعقل، وأن يهبنا — عز شأنه — معرفة أنفسنا حتى لا تهوي بنا الغفلة والغرور إلى حضيض الجنون.

٢٠ مايو سنة ١٩٣٢

عقيق وعقيق

نشر سعادة شيخ العروبة الأستاذ أحمد زكي باشا خطابًا وصل إليه من صاحب الجلالة ملك اليمن، ولم يتخير للنشر ما فيه من التحيات الطيبات، بل نشره برُمَّتِه فجاءت فيه عبارات تفتح الشهية وتُسيل اللُّعاب، ولست جائعًا وأنا أكتب هذا الكلام، وإنما هو تعبير يصور ما جاء في خطاب جلالة ملك اليمن إلى سعادة الأستاذ، فقد قال يخاطب ساكن جيزة الفسطاط: «وسيكون مطلوبكم من العقيق واصلًا إليكم».

ومعنى هذا أن سعادة الباشا طلب من جلالة ملك اليمن أن يرسل إليه حِملًا من العقيق، وأن ملك اليمن الذي ورث الكرم عن أبيه وأجداده سيرسل إليه المطلوب.

فضل العقيق

وقبل أن أتكلم عن العقيق وأوصافه وأنواعه أبدأ فأذكر كيف خَلَصتُ بفضله مرة من ورطة الامتحان، فقد كنت طالبًا بالجامعة المصرية، وكان المرحوم إسماعيل بك رأفت — غفر الله له — يعتقد أني قليل المحصول من العلم الذي كان يدرِّسه وهو الجغرافيا ووصف الشعوب، واتفق له أن أسقطني في الامتحان مرتين، وكنت أستحق ذلك؛ فقد سألني مرة عن حدود مصر الطبيعية في الامتحان فقلت: إن حدود مصر الطبيعية من الجنوب هي منابع النيل، فغضب، فقلت له: تلك هي الحدود الطبيعية، وهي الحدود التي لا يحب الإنجليز أن نعرفها على وجهها الصحيح! وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٢٠ بعد أن قضيت نحو سنة في الاعتقال، ودخل في رُوعي أن حدود مصر الطبيعية هي ما كان يسميه المرحوم سعد باشا «من منبع النيل إلى مصبه»، وكان رأفت بك لسوء حظي يرى أن ما يُحتجُّ به في الجرائد غير ما يُجاب به في الامتحان!

وفي العام التالي سنة ١٩٢١ كنت أؤدي امتحانًا عند رأفت بك، وكان الدكتور منصور فهمي عضوًا في اللجنة. وكان يحبُّ أن يخلِّصَني من براثن ذلك الأستاذ، وجاء ذكر وادي العقيق في الامتحان، فتدخل الدكتور منصور وقال: حدثني يا شيخ زكي، أتذكر شيئًا مما قال الشعراء في وادي العقيق؟ فرأيت من الحزم أن آخذ بتلابيب تلك الفرصة السانحة، واندفعت أتحدث عما قال الشعراء في وادي العقيق والدكتور منصور يشجعني على الإطناب، وظل رأفت بك ينظر ويَعْجَبُ كيف أتيحت هذه الفرصة لطالب ثرثار يعرف كل شيء إلا مادة الامتحان! وكانت مدة الاختبار ثلاثين دقيقة انتهبتُ نحو ثلثيها وأنا أبدئ وأعيد في الناحية الوجدانية من أخبار وادي العقيق! وخلصت من يد الأستاذ إسماعيل بك رأفت، ولولا لطف الدكتور منصور ويُمن العقيق لاغتالني ذلك الرجل الذي كانت تُضرَب بقسوته الأمثال.

ما هو العقيق؟

هو خَرَز أحمر يكون باليمن، ومنه سيكون مطلوب زكي باشا، وبسواحل رومية منه جنسٌ كدِر كماءٍ يجري من اللحم المملَّح (وشرح هذه النقطة مما سيتفضل به الأستاذ محمد مسعود)، وفيه خطوط بيض خفيفة. وقد دخل العقيق في الخرافات الطريفة فذكروا أن من تختَّم به سكنتْ روعته عند الخصام، وانقطع عنه الدم من أي موضع كان.

ومن أطايب الخرافات ما كنَّا نسمع من أن الظريف هو من تَخَتَّم بالعقيق، وروى نونية ابن زيدون، وتمذهب بمذهب الشافعي. وقد كنت حينًا كذلك ثم تحنَّفتُ فذهب مني ثُلث الظرف، ثم نزعت خاتم العقيق فذهب الثلث الثاني، ونَسيتُ مع الأسف نونية ابن زيدون فذهب الظرف كله، وعدت لا أصلح إلا لمناوشة خلق الله من الكُتَّاب والشعراء والمؤلفين.

الأعقة والعقائق

الأعقة جمع عقيق، والعقائق كذلك جمع عقيق، ولكن لا يستوي الجمعان، فالعقيق يُجمع على عقائق حين يكون دالًّا على الخرز الأحمر الذي يتختم به الظرفاء، ويجمع على أعقة حين يكون بمعنى الوادي، والعرب تقول لكل مَسِيل ماء شقَّه السيل في الأرض فأنهره ووسعه: عقيق، فالأعقة هي الأودية، ومن ذلك قول الشاعر:

تربَّعُ ليلى بالمصيَّخ فالحمى وتحفر من بطن العقيق السواقيا

وعقيق المدينة مشهور، وفيه يقول الشاعر:

إني مررت على العقيق وأهلُهُ يشكون من مطر الربيع نُزُورا
ما ضرَّكم إن كان جعفرُ جاركم أن لا يكون عقيقكم ممطورا

وهناك عقيق آخر يدفع سيله في غَوْرَيْ تهامة، ويظن ياقوت أنه المعنيُّ بقول أبي وَجْرة السعدي:

يا صاحبيَّ انظرا هل تؤنسان لنا بين العقيق وأوطاس بأحداجِ

وهو الذي ذكره الشافعي رضي الله عنه فقال: لو أهلّوا من العقيق كان أحبَّ إليَّ.

العقيق اليماني

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن العقيق اليماني، وهم يريدون به بعض الأقطار النجدية؛ لأن أرض هوازن في نجد مما يلي اليمن، وإياه عنى الفرزدق حين قال:

ألم تر أني يوم جوِّ سُويقةٍ بكيتُ فنادتني هُنيدة ما ليا
فقلت لها إن البكاء لراحةٌ به يُشتَفَى مَن ظن أن لا تلاقيا
قفي ودِّعينا يا هُنيد فإنني أرى الركب قد ساموا العقيق اليمانيا

وفي العقيق اليماني يقول الشريف الرضيّ:

أقول لركب رائحين لعلكم تحلُّون من بعدي العقيق اليمانيا
خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى ونجدًا وكثبان اللوى والمَطاليا
ومُرُّوا على أبيات حيٍّ برامةٍ فقولوا لديغٌ يبتغي اليوم راقيا
عَدِمتُ دوائي بالعراق فربما وجدتم بنجدٍ لي طبيبًا مداويا

عقيق المدينة

وفي عقيق المدينة يقول سعيد بن سليمان يتشوق إليه وهو في بغداد، ويذكر غلامًا له اسمه زاهر ابتلاه الزمن بمحادثته بعد فراق الأحباب:

أرى زاهـرًا لـمـا رآنـي مُـسـهَّـدًا   وأنْ ليس لي من أهل بغدادَ زائرُ
أقام يعاطيني الحديث وإننا   لمختلفان يوم تُبْلَى السرائرُ
يحدثني مما يجمِّع عقلهُ   أحاديث منها مستقيمٌ وحائرُ
وما كنت أخشى أن أرانيَ راضيًا   يعللني بعد الأحبة زاهرُ
وبعد المصلى والعقيق وأهلِهِ   وبعد البلاط حيث يحلو التزاورُ
إذا أعشبتْ قُريانُهُ وتزينت   عِراصٌ بها نبتٌ أنيق وزاهرُ
وغنَّى بها الذبان تغزو نباتها   كما واقعت أيدي القيان المزاهرُ

وقد عاد العقيق على الزمن اسمًا شعريًّا يتحدث عنه الشعراء من حيث لا يعرف أحد أي عقيق يقصدون، وانظر قول بعض الأعراب:

أيا نخلتَيْ بطن العقيق أمانعي   جنى النخل والتين انتظاري جناكما
لقد خفت أن لا تنفعاني بطائلٍ   وأن تمنعاني مُجتَنَى ما سواكما
لَوَ انَّ أمير المؤمنين على الغنى   يحدَّث عن ظليكما لاصطفاكما

وقال البحتري:

قد أرتك الدموعُ يوم تولت   ظُعُنُ الحيِّ ما وراء الدموعِ
عبرات ملء الجفون مَرَتْها   حُرَقٌ للفراق ملء الضلوعِ
فرقةٌ لم تدعْ لعينيْ محبٍّ   منظرًا بالعقيق غير الربوعِ

وقال السريّ الرفاء:

مررنا بالعقيق فكم عقيقٍ   ترقرق من محاجرنا فذابا
ومن مَغْنًى جعلنا الشوق فِيهِ   سؤالًا والدموع له جوابا

وفي الكلل التي غابت شموسٌ   إذا شهدت ظلام الليل غابا
حملت لهن أعباء التصابي   ولم أحمل من السلوان عابا
ولو بَعُدتْ قِبابك قابَ قوسٍ   من الواشين حيين القبابا

بين نجد والعقيق

وقد طار الشعر كل مطار بالحديث عن نجد والعقيق، وإن لم يكن نجد ولا عقيق، وأروع ما قرأنا في الارتياح إلى هذين الوطنين قول أعرابية كانت تسكن عقيق المدينة ثم حُمِلتْ إلى زوجها في نجد:

إذا الريح من نحو العقيق تنسَّمتْ   تَجَدَّد لي شوق يضاعف من وجدِي
إذا رحلوا بي نحو نجدٍ وأهلهِ   فحسبي من الدنيا رجوعي إلى نجدِ

٢٨ رجب سنة ١٣٥٢هـ

كلماتٌ للدرس والتحقيق

لما صودر كتاب تاريخ بغداد حزنت حزنًا شديدًا، وكان أول ما فكرت فيه نسختي التي لم أتسلم منها إلا جزءًا واحدًا مع أني دفعت من ثمن الكتاب مبلغًا يقسم على ٢ وعلى ٤ وعلى ١١، ولناشر الكتاب أن يذكر هذا حتى لا يضيع على الموقِّع فيه أدناه ما أنفقه من المال!

ثم أخذت أفكر في السبب الذي من أجله صودر الكتاب، وهو إثبات ما قيل في هجاء أبي حنيفة، وتذكرت أني كنت جمعت أشياء كثيرة مما هوجم به الشافعي رحمه الله استعدادًا لكتاب شرعت في وضعه نقدًا لمذهبه، وكان ذلك يوم نشرتُ كتاب (الأخلاق عند الغزالي) الذي استقبله علماء الأزهر الشريف استقبالًا يثبط العزائم ويشلّ النشاط. وقد اتفق — مع الأسف — أني غيرت ذلك الميدان وانصرفت بعض الانصراف عن دراسة التشريع الإسلامي، وأقبلت كل الإقبال على دراسة الأدب الخالص حيث لا نصطدم إلا قليلًا بعقائد الناس.

واليوم أريد أن أدون بعض الملاحظات بمناسبة كتاب تاريخ بغداد. وأذكر أولًا أن أظهر مَحمدة عُرف بها الإسلام هي التسامح في معارضة المفكرين. والذي يراجع كتاب «الإسلام والنصرانية» لفقيد العلم والدين الشيخ محمد عبده يرى أن المؤلف حصر هجومه على النصرانية في سرد ما عُرف عن النصارى من معارضة الآراء والمعتقدات، وإحراقهم لكتب الفلسفة، وتشتيتهم لجماهير المفكرين. وفي مقابل ذلك اهتم المؤلف بإظهار سماحة الإسلام وأهله في معاملة أحرار الفكر والعقل والوجدان.

فإذا استطاع اليوم أحدٌ أن يقاوم المؤلفات والمؤلفين، وأن يستعين الحكومة في مصادرة ما لا يروقه من المطبوعات، ومضايقة من لا يرضى عنه من الباحثين، فسيُفتَح للإسلام تاريخ جديد في العدوان على الحرية الفكرية لا يُقاس به ما عُرف عن النصرانية

في قديم الزمان؛ لأن النصرانية كانت تعتدي على أحرار الفكر يوم كانت أوربا تَعْمَهُ في غيٍّ الهمجية، ولا كذلك نحن اليوم؛ لأننا نعيش في القرن العشرين، عصر العلم والنور فيما تذكر الجرائد والمجلات!

وأذكر ثانيًا أن هذا الذي نشاهده قد يكون دليلًا على انحطاط الشرق في هذه الأيام؛ لأن الإسلام لم يتسامح مع أحرار الفكر إلا حين كان الشرق عزيزًا قويًّا، ولم تعتد النصرانية على أحرار الفكر إلا يوم كان الغرب جاهلًا ضعيفًا. وعلى هذا الأساس لا يكون للديانات دخلٌ في تقدير الحرية الفكرية، وإنما المسألة ترجع إلى العلم والجهل، فلينظر قومٌ أين يضعون أنفسهم بعد هذا البيان!

واذكر ثالثًا أن من الخير كل الخير أن نعرف ما نُسب إلى بعض الأئمة من الهفوات؛ لأنهم يتكلمون باسم الدين، مع أنه قد يتفق أن يضع أحدهم القاعدة وهو مأخوذ من حيث لا يشعر بحالته النفسية. ومثال ذلك ما اشتهر عن أحد المجتهدين من تحليل النبيذ، فهو في رأيي لا يعبر في هذه المسألة عن الشرع الشريف، وإنما يعبر عن حالته النفسية، فقد كان عرف الشراب في صباه، وكانت له مجالس حفظها عليه حَمَّاد عَجْرَد حين قال، وقد تكدر ما كان بينهما من صفاء:

إن كان نُسْكك لا يَتِمُّ ... بغير شتمي وانتقاصي
فاقعد وقم بي حيث شئـ ... ـت مع الأداني والأقاصي
فلطالما زكَّيتَني ... وأنا المقيم على المعاصي
أيام نشربها ونسكرُ ... من أباريق الرصاصِ

وأرجو القارئ أن لا يشتط في مؤاخذتي على هذا التأويل؛ لأني مقتنع بأن بعض المشرِّعين يأخذون كثيرًا من أهوائهم الشخصية وهم يضعون القواعد الاجتماعية، ومن الخير أن نُرجع أغلاط الأئمة إلى مذاهبهم في فهم الحياة قبل أن نرجعها إلى الشرع الشريف.

مثال آخر: الإمام الشافعي يرى «أن لمس المرأة عمدًا أو سهوًا ينقض الوضوء»، وهذه مسألة فرغ من بحثها الشافعية، وأستاذنا الشيخ الظواهري يعرفها جيدًا، فهل يسمح القارئ أن أدله على السبب الذي من أجله تشدد الشافعي في التحرز من لمس المرأة؟

الذي أراه أن ذلك يرجع إلى حالة نفسية عند الشافعي رحمه الله، فقد كان يعتقد أن الرجل ضعيف جدًّا بجانب المرأة، وأنها خليقة بأن تنقله من الهدى إلى الضلال. وقد اتفق له رحمه الله حين انتقل من العراق إلى مصر أن رأى المرأة المصرية من أخطر أسباب الغي والفتون، وأُثِر عنه أنه قال: «من لم يتزوج بمصرية فليس بمحصَن»، وقد سرى رأيه في البيئات المصرية إلى هذا اليوم. وأهل الريف من المنوفية إذا أرادوا الحط من شأن امرأة وصفوها بأنها لا تنقض الوضوء، يريدون أنه لا أنوثة فيها على الإطلاق.

كيف نشأت المذاهب؟

والفصول التي قَبِلَ حذفها الخانجي أفندي من تاريخ بغداد قد تكون من أظهر ما يشرِّف المسلمين؛ لأن النقد الذي وُجِّهَ إلى الأئمة يدل على أنه كانت هناك حياة عقلية، وكان هناك ناس لا يقبلون كل ما يُقدَّم إليهم من أصول التشريع. وأبو حنيفة قوبل مقابلة عنيفة في حياته، وعُورض مذهبه بعد وفاته، وأدق ما هوجم به قول حفص بن غياث وقد سُئل عنه: «أعلم الناس بما لم يكن، وأجهل الناس بما كان». يُريد أنه كثير الاهتمام بوضع الفروض والاحتمالات. ولو تأملنا قليلًا في العداوات التي ثارت بين أصحاب المذاهب لرأيناها كانت جزيلة النفع، وأظهرها ما كان بين الحنفية والشافعية؛ فقد حملتْ أتباع المذهبين على التعمق في البحث والاستقراء، وعادت على الفقه الإسلامي بالنفع الجزيل. وأمتع الساعات في الترويح عن النفس هي الساعات التي نقضيها في مراجعة الخلافات المذهبية حيث تتناحر الآراء، وتتصاول العقول. والأدب العربي من أغنى الآداب في هذا الباب؛ ففي منافرات النحاة والفقهاء والمتكلمين مُتَعٌ عقلية لا تفنى جِدتها عند من يفهمون النحو والفقه والتوحيد.

وهنا مسألة لا مَفَرَّ من عرضها على القراء، وهي الأسباب التي قضت لبعض المذاهب بالنباهة وقضت على بعضها بالخمول. ومن المحزن أن نقرر أن القوة كل القوة كانت للسياسة والمال: فأظهر الأئمة لم يكن أكثرهم علمًا، ولكن كان أكثرهم مالًا وجاهًا، وإن شئت فقل: كان أظهر الأئمة هو أكبرهم منزلة عند السلطان.

ومن المُوجِع أنه كان للمصريين إمام عظيم ضاع علمه وفقهه لقلة الجاه والمال: وهو الليث بن سعد الذي وُلد في قلقشندة بالقرب من قليوب سنة ٩٤، وتُوفي سنة ١٧٥، وقد وصفه الإمام الشافعي بقوله: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به».

وهؤلاء «الأصحاب» نحن نعرفهم؛ فهم التلامذة الذين لا يرعون أستاذهم إلا إن كان ذا جاه وذا مال!

أين مقام مالك؟

وبمناسبة هذا الكلام نذكر — والحديث ذو شجون — أننا شهدنا اثنين يتنازعان مرة في المفاضلة بين الشافعي ومالك، إلى أن قال أحدهما وقد حَمِيَ الوطيس: كيف تفضل مالكًا على الشافعي مع أن للشافعي (مقامًا) نعرفه وليس لمالك (مقام) معروف؟

والمقام هنا هو «القُبة» العالية التي يستريح في ظلها رفات الشافعي محمد بن إدريس، والناس لا يُذكرون في مصر إلا إن أقيمت فوق قبورهم القباب!

وكنت قرأت منذ سنين رسائل المرحوم مصطفى كامل إلى المدام جولييت آدم، ومنها رسالة بمناسبة مَنْحِه رتبة الباشوية، وهي رسالة فيها فرح وابتهاج، وقد رأى رحمه الله أن من الصغار أن يفرح بالرتب والألقاب؛ ولهذا علل فرحه في ختام تلك الرسالة بأن للرتبة قيمة عظيمة في تقريبه إلى القلوب؛ لأن أهل مصر قد يتشيعون بلا رأي ولا بصيرة إلى أصحاب الرتب والألقاب!

وللقارئ أن يُجيب بدون مواربة: أكان مصطفى كامل باشا يقابل بما قوبل به يوم أسس الحزب الوطني لو كان (مصطفى أفندي كامل)؟

إن الدنيا هي الدنيا والناس هم الناس، ويا ويل من جمع بين غِنى الرأس وفقر الجيب في أرض يُقدَّم فيها أغنياء الجيوب على أغنياء الرؤوس!

٥ أغسطس ١٩٣٢

مؤتمر اللغات الحية في باريس

خمسة أيام من أيام العلم والتعليم شهدناها في السوربون، حيث انعقد المؤتمر الدولي لمدرسي اللغات الحية، ذلك المؤتمر الذي اشتركت فيه أربع وعشرون أمة من الأمم التي تفهم الواجب في تربية الأبناء.

خمسة أيام رأينا فيها حماسة المدرسين وغَيرتهم، فتذكرنا المدرس المصري الذي يقضي حياته في التضجر والتبرم دون أن يفكر في إصلاح جديد. وللمدرس المصري عذرُهُ فهو يعيش في بيئات مسمومة لا يَسلَم من شرها إلا الجامدون وأهل الخمول.

ولكن أهكذا تكون الحياة؟ وكيف يحيا من يشعر في كل لحظة بأنه مأجور، وتحمله معاملات الحكومة ومعاملات الجمهور على الاقتناع بأن حظه من أسوأ الحظوظ؟

ليس عجيبًا أن يجمُد المدرسون المصريون، ولكن العجيب أن نرى في الأمة ناسًا يُقبلون على وظائف التعليم مع ما يرونه من هوان المعلمين في بلد يزنُ الرجال بما (يقبضون) لا بما يحسنون!

غير أنه في مثل هذه الظروف النكداء تُرجَى شهامة الفتيان من أبناء وادي النيل. فمن العار أن يستمر المدرسون المصريون على اختيار السلامة والسكون، فعهدي بهم يؤدون أعمالهم بغير قلب، ثم يعودون إلى منازلهم ليهجعوا ساعة أو ساعتين، ثم يخرجون إلى القهوات ليقص بعضهم على بعض ما وقع من غفلة الناظر، وسقطات التلاميذ!

من العار أن يظل المدرسون الأقوياء أقلية في المدارس المصرية.

ولكن أي أقلية؟ أقلية مضطهدة تُرمَى من الزملاء بالخرق والتهور وحب الظهور، وعلى هذا النمط تجري الحياة في مدارسنا الخاوية، ومن النادر أن تقرأ لمدرس كتابًا

جيدًا، أو بحثًا طريفًا، أو مقالًا شائقًا. وكيف والمسكين قد دَرَجَ على الخمود والهمود، ولم تبق له أية شهوة للظهور بمظهر المفكر أو الباحث أو الخطيب؟

هذه كلمة حق، وسيقرؤها إخواننا الأفاضل وهم يتسامرون في القهوات، وسيتعاهدون على تجديد أنفسهم وإحيائها، ولكنهم سيذكروننا بشرٍّ حين يعودون إلى مدارسهم فيجدون الناظر هو هو بعينه كتلة من الثلج تعجز عن إذابتها شمس الصيف، ويرون التلاميذ هم أنفسهم لم يتغيروا ولم يتبدَّلوا، ولم يُنفَخ فيهم روح جديد؛ لأنهم لم يجدوا حتى اليوم من يحببِّ إليهم الجو المدرسي، ويبعث فيهم الشوق إلى الدرس والتحصيل.

إني لأعرف ما أنتم عليه أيها المدرسون المصريون؛ لأني زميل لكم قاسى بعض ما قاسيتم، وعانى بعض ما عانيتم، فلا تَضِقْ صدوركم لعنف هذه الكلمات، ولكن اذكروا أنكم مسئولون أمام الوطن والضمير والتاريخ عن هذه الحال، فعليكم أن تشحذوا عزائمكم وأن تواجهوا المهنة بقلوب صبَّارة، ونفوس راضية، وأن تزحزحوا تلك الصخرة من طريقكم، صخرة الموت التي وضعها من يرتاعون كلما ظهر في أفق التعليم نجمٌ جديد.

بيدكم لا بيد رؤسائكم أن تصبح المدارس جنات عالية نزع الله ما في صدور أهلها من الحقد، وصيرهم إخوانًا أصفياء، بيدكم أنتم أن تعود المدارس أحب إلى الطلبة من منازلهم وملاعبهم وملاهيهم، وإذ ذاك يعود الجو الصالح جو البر والمنفعة والإخاء.

لقد اختبرت هذه المهنة وشربت ما فيها من علقم وصاب، فقد اشتغلت بتدريس اللغة الفرنسية عشرة أعوام، وعرفت جو التدريس بالمدارس المصرية والأجنبية من ابتدائية وثانوية وعالية، ودرست أخلاق الطلبة من جميع الأجناس، وانتهيت بعد الخبرة الطويلة إلى النتيجة الآتية: «أشقى الناس جميعًا في مهنة التدريس هو المدرس الكسلان».

فالكسل يا حضرات الزملاء هو عدوكم المبين، هو الذي يُطمع فيكم الطلبة، ويبسط فيكم ألسنة المتقوِّلين وهو الذي يشعركم بأن مهنتكم ثقيلة، وبأن حياتكم ضائعة، وبأن وجودكم عدم من الأعدام، وهو الذي يُشمت فيكم أعداءكم حين تظهر نتائج الامتحانات العمومية ويُكشف تهاونكم للناظرين.

والإخلاص وحده هو صديق المدرس، هو الذي يبث فيه الإقدام والمثابرة، ويمثل الطلبة لعينيه في صورة الأطفال المحبوبين، ويجعل له في جدران المدرسة وأساسها وأدواتها وكل كائن فيها بابًا من أبواب المتعة الروحية التي شقي في البحث عنها طلاب السعادة من لدن آدم إلى اليوم.

والمدرس المخلص هو أجدر الناس بالظفر في ميدان التعليم، وهو العُدَّة والذخيرة للوطن العزيز.

تذكرت المدرس المصري وأنا أشهد أعمال مدرسي اللغات الحية وهم يتساجلون الآراء في السوربون. وقد حضروا من أقطار مختلفة ومتباعدة، وبيد كل منهم تقرير عن ملاحظاته واختباراته التعليمية. وقد استمرت تلك المعارك الفكرية خمسة أيام كانت من أَنْفَس ما شهدنا في باريس. ومما يُذكر للتنويه بحرص بعض الأساتذة على قوميتهم أن المؤتمر قرر أن تكون الخطب والمناقشات باللغة الفرنسية، ولمن يجهل الفرنسية أن يخطب بالإنجليزية أو الألمانية أو بلغته القومية، وقد قبل المؤتمرون ذلك ما عدا المدرسين الألمان، فقد أصرَّ خطباؤهم على أن يتكلموا بالألمانية ثم يلخصوا ما قالوه بالفرنسية، وبذلك فرضوا أن تكون الألمانية قريعة للفرنسية في قلب السوربون. وفي ذلك عبرة لمن ينسون قوميتهم ولغتهم حتى في بلادهم، وفي ذلك فناؤهم لو كانوا يعقلون.

كان أهم ما شغل المؤتمر مسألة شرح النصوص الأدبية. فما شرح النصوص هذا؟

إن شرح النصوص يا حضرات القراء هو أهم ركن في تدريس اللغات. وهو فن مجهول في مصر، وبخاصة عند مدرسي اللغة العربية. وقد يكون أخطر مقتل في كلية الآداب بالجامعة المصرية هو إغفالها لشرح النصوص، واعتمادها على طريقة المحاضرات.

ومن الغريب أن كلمة (محاضرة) لها في مصر معنى رنان تُرهف له الأسماع والقلوب. والمدرس في الجامعة عندنا لا يرضيه أن يقال إنه ألقى (درسًا)؛ لأن كلمة (درس) كلمة صغيرة في بعض الأذهان، فمن الواجب أن تكون أعمال التدريس كلها محاضرات، وبذلك تُقْلب كلية الآداب إلى سوق عكاظ جديد! والطلبة يستمعون في صمت مُبهَم كأن على رؤوسهم الطير، أو لا أدري ماذا؛ لأنهم يستمعون محاضرة والمحاضرة تتطلب خشوعًا دونه خشوع الصلاة.

فإن رأيتم طلبة كلية الآداب يجهلون أسرار اللغة العربية فاذكروا أن الأساتذة هم الجناة؛ لأنهم يُشغلون بالطنطنة الفارغة التي تتمثل في مدرس يتكلم وطلبة يسمعون، ولو أنهم أعدوا العُدَّة لشرح النصوص على الطريقة الأوربية أو على طريقة الشيخ سيد المرصفي الذي لم يعرف في دنياه غير حي سيدنا الحسين لأمكن أن يكون للطلبة ذوق مهذب في فهم أصول الآداب.

والمعروف اليوم أن الأساتذة الفرنسيين هم أعرف الناس بشرح النصوص، وهم يتفاضلون في ذلك كما يتفاضل غيرهم في الطريقة العقيمة طريقة المحاضرات، وقد قال

لي أحد أساتذة السوربون مرة: يكفي فرنسا مجدًا وعظمة أن مدرسيها يمتازون من بين الناس بإجادة شرح النصوص، فسألته: وما هي قيمة هذه الطريقة؟ فأجاب: قيمتها ترجع إلى التحديد.

التحديد؟ يا عجبًا! وما قيمة هذه الكلمة؟

ألا فليعلم القراء أن الفرنسي مجنون بشيء اسمه Précision، وهو التحديد الدقيق في المعاني والألفاظ والأغراض، وهذا لا يمكن الوصول إليه في اللغات إلا عن طريق شرح النصوص.

وللقراء أن يعرفوا بعد ذلك، إن أهَمَّتهم المقارنة، أن وزارة المعارف المصرية تسلك في تدريس الأدب بالمدارس الثانوية طريقة تذكِّر بالعقم المتبع في كلية الآداب، فهم يفرضون على الطلبة أن يستظهروا كتابًا في تاريخ الأدب من أقدم العصور إلى اليوم الحاضر، وهذا الكتاب كان اسمه أولًا «الوسيط» واسمه اليوم «المجمل»، ومن العجيب أن الدكتور طه حسين من الذين اشتركوا في هذه الجريمة الشنعاء.

أقول: جريمة شنعاء، وأنا أعرف جيدًا أن الدكتور طه حسين يقرأ رسائلي حرفًا حرفًا، وأعرف أنه سيغضب، ولكني موقن أنه مقتنع بأن ما أقوله حق.

وعذر الدكتور طه أنه لم يدرِّس يومًا في مدرسة ثانوية، ولكن ما عذر الشيخ السكندري والشيخ الجارم في الموافقة على مواجهة الطلبة بما لا يفهمون من تاريخ الآداب؟

لقد اشتغلت زمنًا بالتدريس في المدارس الثانوية، وعرفت استعداد طلبة الكفاءة وطلبة البكالوريا، وأستطيع بعد التجربة أن أقول: إن الذين قرروا منهج تدريس الأدب بالمدارس الثانوية يخدعون الناس؛ لأن الطالب في التعليم الثانوي لا يسمو ذهنه إلى فهم تطور العصور الأدبية، وإنما يحتاج إلى تذوق الأدب، وهذا لا يجيء إلا عن طريق شرح النصوص.

وقد حادثت الدكتور طه عن كتاب «المجمل» الذي وضعتْه بمساعدته لجنةٌ من وزارة المعارف، وقلت له: إنه كتاب غير صالح؛ لأنه يحادث الطلبة فيما لا يدركون، فقال: لقد يسَّرْناه كل التيسير، ومع هذا فأين هو في مادته من كتاب دوميك في اللغة الفرنسية؟

وهنا قلت للدكتور: إن كتاب دوميك في الفرنسية أوضح من كتاب المجمل في العربية، مع أن الفرق بين الشباب الفرنسي والشباب المصري ملموس؛ لأن الشبان الفرنسيين من طفولتهم يغشون المسارح، وتاريخ الأدب الفرنسي في الأغلب يرجع إلى النوع المسرحي،

فالمؤلف الذي يؤرخ الأدب يذكِّر الشبان بما شهدوا بأعينهم منذ كانوا أطفالًا. أما الأدب العربي فيرجع في جملته إلى الخطب والرسائل والقصائد، فمن الواجب أن يتعرف الشبان إلى هذه الأنواع قبل أن يدرسوا تاريخها في كتاب.

وجملة القول أن أعضاء المؤتمر خصوا مسألة شرح النصوص بجانب عظيم من مناقشاتهم وخطبهم، وكان أهم ما قيل فيها خطبة لأحد الأساتذة الألمان، تُلخص في أن المهم ليس في شرح الألفاظ وتحديد المعاني فقط، وإنما ترجع أهمية شرح النصوص إلى قدرة المدرس وبراعته في حمل الطلبة على تذوق أسرار الألفاظ والحروف متصلة بأغراض الخطباء والشعراء والكُتّاب، ويمكن المدرس وهو يشرح النص الأدبي أن يبيِّن لتلامذته كيف تكون هندسة التراكيب من الوجهة النحوية.

هذا كلام يُقال في باريس وفي القرن العشرين، فمن يُبلغ عبد القاهر الجرجاني في قبره أن أناسًا يقولون بمثل ما كان يقول في شباب الزمان؟ أم من يبلغ هؤلاء المؤتمرين أن مؤلفًا عربيًّا سبقهم بهذه الآراء منذ أكثر من تسعة قرون؟

وجاءت بعد ذلك مسألة الفنوغراف (الحاكي) وأهميته في دراسة اللغات، وقد انقسم المؤتمر إلى فريقين: فريق يرى أن للحاكي المكان الأول في تعويد الطلبة على صحة النطق والتثبت من مخارج الحروف، وأكبر المتحمسين لهذا الرأي الأستاذ ستالينج مدرس اللغة الفرنسية بالسويد،وقد طَبع نشرة بَيَّن فيها طريقته، ووزعها على الحاضرين، ومن رأيه أنه لا يكفي أن يكون في كل مدرسة حاكٍ واحد، بل يجب أن يكون لكل تلميذ حاكٍ في بيته مزوّد بأكبر عدد ممكن من الإسطوانات، وقد ضحك الحاضرون لهذا الفرض.

والفريق المعارض يرى أن أهمية الحاكي ثانوية؛ لأنه ميت؛ إذ كان الطلبة لا يستمعون إليه بشوق أكثر من عشر مرات. والأهمية الحقيقية تنحصر في نشاط المدرس وحلاوة إلقائه، وتذوقه معاني ما يُلقي على التلاميذ.

وقد أُخذت الأصوات، فوافق أكثر الحاضرين على أهمية الفنوغراف، وقرروا أن المعلم مسئول عن بعث الروح في مختلف الإسطوانات؛ لأنه لا يَجمل بالطبع أن يترك الحاكي يصيح بدون أن يثير في نفوس الطلبة روح التشوق إلى متابعة الإلقاء.

وأذكر مع الأسف أن مدير الليسيه فرانسيه بالقاهرة وزع على المدرسين في العام الفائت منشورًا يلفتهم فيه إلى الفنوغرافات التي أعدها لمعونة الأساتذة، وطلب منهم أن يقدموا إليه بيانًا بالإسطوانات الصالحة، فوجد مدرسو اللغة الفرنسية والإنجليزية

بغيتهم، أما أنا فظللت أبحث عن إسطوانة عربية واحدة تصلح لتعليم الإلقاء فلم أجد؛ لأن الإسطوانات العربية أكثرها باللغة العامية وفي موضوعات تافهة لا تصلح إلا لتسلية الفارغين، وما كان منها باللغة الفصيحة فأكثره في موضوعات غرامية وهي لا تصلح للدرس؛ لأن ذلك لو وقع لأصبحت حجرات الدراسة ميدانًا للهذر والإسفاف.

فهل لنا أن نقترح على وزارة المعارف المصرية أن تملأ نحو خمسين إسطوانة من متخيَّر الخطب والقصائد؟ إنه ليوجد بين مدرسي اللغة العربية من يحسنون الإلقاء، وفي معهد التمثيل كذلك شبان مثقفون يستطيعون أداء هذا الواجب، وفي تنفيذ مثل هذا الاقتراح توحيد لكيفية الأداء في الأقطار العربية.

إن وزارة المعارف المصرية تتبع خطوات الأوربيين في ميادين كثيرة، فلنتبعهم أيضًا في هذا الميدان. ولعلها تجيب هذا الاقتراح، ولو ترضيةً لمدرس مصري يسوءُه أن يتخلف مواطنوه في حومة النضال.

وقد تكلم المؤتمرون كذلك عن المذياع وأهميته في ربط الطلبة بأهم المراكز الفنية التي تذيع أشهر الخطب والمداولات والمحاضرات، وقد يصعب أن نقترح على وزارة المعارف أن تهيئ للطلبة نصيبًا من ذلك، فلنكتف بالملاحظات السالفة؛ لأن تحقيقها سهل المنال، إن صحت العزائم القلوب.

باريس في ١٢ إبريل سنة ١٩٣١